بسم الله الرحمن الرحيم

حقيقة

التصوف والمتصوفين

تأليف

مصطفى محمد لطفى القطان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهديه الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إحسان إلى يوم الدين

أما بعد

فى هذه الصفحات التالية سوف نتعرض لرأى الإسلام فى الصوفية ومعرفة حقيقة أمرهم وما هم عليه وإن كان الحق فى أمرهم ظاهر وواضح جلى لا يخفى على إنسان منه شىء ولكن جهل الإنسان بحقيقة الشىء يجعله يعاديه إن معرفة الحق واتباعه فيه كل الخير والرشاد ولقد أخذ الله عزوجل الميثاق على حملة العلم أن يبينوه للناس ولا يكتمونه قال : تعالى

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) آل عمران 187

وتفسير هذه الآية كما وردت فى تفسير الطبرى

حدثنا بشر قال : حدثنا يزيد قال : حدثنا سعيد عن قتادة : وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم الآية

هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم فمن علم شيئا فليعلمه وإياكم وكتمان العلم فإن كتمان العلم هلكة ولا يتكلفن رجل ما لا علم له به فيخرج من دين الله فيكون من المتكلفين كان يقال : مثل علم لا يقال به كمثل كنز لا ينفق منه ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب . وكان يقال : "طوبى لعالم ناطق ، وطوبى لمستمع واع" .

هذا رجل علم علما فعلمه وبذله ودعا إليه ورجل سمع خيرا فحفظه ووعاه وانتفع به وإن كان من مفهوم الأمية جهل القراءة والكتابة فكذلك من مفهوم الأمية أيضا عدم فهم حقيقة الأمور ومن مفاهيمها أيضا الذى يفهم الأمور فهما خاطئا بعيدا عن الحقائق وكذلك منها أيضا عدم الإنتفاع بالعلم وأيضا الجهل بوظيفة الأشياء والجهل ببواطن الأشياء وعدم معرفة حقيقتها والإكتفاء منها بمعرفة ظواهرها وهذا النوع من الأمية ناشىء عن االجهل بأهم عنصر للمعرفة وهو سنن الهداية إن من يتبع الحق وسنن الهداية يدرك حقيقة رأى الإسلام فى هؤلاء القوم الذين سلكوا الطريق إلى الله عزوجل بالحب والمعرفة والزهد والإخلاص ومحبة ما أحبه الله عزوجل وحب رسوله وآل بيته وصحابته صلوات الله وسلامه عليهم جميعا وإذا كان الحق هو هدف النفوس الكبيرة والهمم العالية فما أجمل التعب والمشقة للوصول إلى تلك الحقائق ومما يسره الله تعالى بفضله وكرمه ومنه معرفة رأى الإسلام فى هؤلاء القوم وحقيقة أمرهم وأنهم لم يخرجوا عن الكتاب والسنة الشريفة بل أصول المذاهب الصوفية جميعا مصدرها القرآن الكريم والسنة ومذهبهم هو مذهب أهل السنة الشريفة وأنهم ملتزمون إلتزاما كاملا بهما بل والمذاهب الفقهية جميعها ولأئمة هذه المذاهب رأى فى التصوف والمتصوفين وكذلك شيوخ الإسلام الكبار وأعلامه سنتعرف على

أرائهم فى هذا الكتاب كان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم " اللهم علمنا ما ينفعنا" يطلب العلم النافع وكان يستعيذ بالله من علم لا ينفع وكان يستعيذ بالله أن يضل أو يضل ومن أشقى ممن طريق الحق وأضل غيره ومن رزق علما لم ينتفع بهوإن أفضل ما عبد به الله عزوجل هو العلم بالله عزوجل لأنه يهدى إلى الحق ومن شروط الإنتفاع بالعلم صدق النيه ونفى الجهل وعبادة الله عزوجل على حق وأن نتجرد من هوى أنفسنا وننقاد إلى الحق وإنى كنت يوما أسيء الظن بهولاء القوم حتى كشف الله عزوجل بفضله أمرهؤلاء القوم وكم كنت أحب أن أقف على حقيقة أمرهم وكم أحببت أن أكتب فيهم حتى يسر الله تعالى هذا الأمر والحمد لله أحمده حمدا كثيرا وسيعلم من يطالع هذا الكتاب وأسأل الله تعالى لمن قرأه أن ينتفع به ومن المعلوم أنه فى زمان ومكان وفى كل طائفة من طوائف الدين الذين هم على الحق مدعون كاذبون وتلك سنة الله تعالى فى خلقه ولكن الحق يعلو ولا يعلى عليه والرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل ولن يستفيد أحدا من علم إلا إذا جرد نفسه لله عزوجل متخليا عن أهواء نفسه يبتغى من الله الهدى والبصيرة

واعلم – يا طالبا للحق أى أى إنسان مهما بلغ قدره وعلمه يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم ولا عبرة بمن خالفت أقواله أقوال المعصوم قال : الإمام مالك ما من أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم وقال: الإمام الشافعى إذا خالفت أقوالى أقوال المعصوم فاضربوا بأقوالى عرض الحائط وقال : الإمام أحمد انظروا عمن أخذنا هذا العلم

فاعلم – أنه ليس أحد حجة على الدين بل الدين حجة على الخلق والعلماء ورثة الأنبياء وورثة علم النبوة وحاملوا أمانة العلم لتبليغه للناس إن التصوف الإسلامى حق وهو من جوهر الإسلام وهو سلوك الطريق إلى الله عزوجل بالمعرفة والزهد والمحبة وبطهارة القلب والإلتزام بالشريعة الإسلامية قولا وفعلا ظاهرا وباطنا وإن التصوف الإسلامى ليس دخيلا على الإسلام بل ولد فى بيئة الإسلام

واعلم – أن للتصوف دورا كبيرا فى الإسلام وفى الدفاع عنه وفى نشر الدعوة الإسلامية دورا لا ينكره أحد إلا جاهلا أو مكابرا أو معاندا وهذا مما ثبت فهؤلاء القوم دعاة الإسلام وحاملوا مشاعل الإيمان جاهدوا فى نشر الإسلام فى شتى أرجاء الأرض فى الأماكن التى لم تصل إليها دعوة الإسلام وهذا ما سنعرفه فى دور الصوفية فى نشر الإسلام

سلام إلى هؤلاء القوم الذين عبدوا الله حق عبادته

واعلم أيها القارىء الكريم أن هذا الكتاب لا يحمل سوى نبذة بسيطة عن حقيقة هؤلاء القوم ورأى الإسلام فيهم وهناك الكثير من الكتب لمن أراد كثير المعرفة وهذا مما يسره الله تعالى كما ذكرت ومما تيسر لى من هذه المراجع التى نقلت منها فجزى الله تعالى هؤلاء القوم الذين نقلت عنهم خير الجزاء

واعلم – أيها الأخ الكريم أن من اتبع الحق أفلح وأرشد ومن جانب الحق خاب وخسر وهلك

واعلم أيضا – أنى لا ألبس الأمور ولا أغير حقيقتها ولست أدعوا إلى الحق إلا بالحق ولا أدعوا إلى الباطل بحق

أسأل الله العلى القدير أن يتقبل هذا العمل ويجعله خالصا لوجهه تعالى
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مصطفى محمد لطفى القطان

تمهيد

إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يسمح بإستقلال الصلة بين الخالق عزوجل والمخلوق ويستطيع العابد فيه أن يتوجه إلى الله عزوجل بضميره فردا بغير وساطة من سادن ولا شعائر فى محراب ومتى تفتح للمسلم طريق الإتصال بالله تعالى على شريعة الحب واستقلال الضمير فليس فى دينه ما يحجبه عن طلب الحكمة الإلهية من هذا الطريق ولا من التعمق فى إستطلاع الحقائق وكشف الأسرار فى الكون وفيما بين سماء الله تعالى وأرضه من العجائب والخفايا كما نعلم من آيات كتابه ومن وصايا نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ومن فريضة التفكير على التعميم ولسبب آخر أن يكون الصوفية من المسلمين بهذه الكثرة فى بلاد المسلمين كافة لأن الإسلام يرفض الرهبانية والإنقطاع عن الدنيا فلا ملاذ فيه للفرد إذا نبا مجتمعه وأنكر على قومه ما يخالف طريقته فى العقيدة إلا أن يلجأ إلى ضميره ويتخذ لنفسه مذهبه الذى يحاسب عليه نفسه ولا يحاسب عليه سواه بين يدى الله عزوجل

الباب الأول

نظرة إلى التصوف الإسلامى

لقب الصوفية إذا أطلق اليوم فإنما يراد به جمهور الناس من المسلمين الذين يقلدون أحد أئمة المذاهب الأربعة الإمام مالك وأبو حنيفة النعمان والشافعى وأحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنهم جميعا وعقيدتهم عقيدة السلف الصالح ومنهم من يعتنق مذهب الإمام أبى الحسن الأشعرى وفى عقيدة عامة أهل السنة والجماعة فى العالم الإسلامى الفسيح والتى تدرس فى الأزهر الشريف وغيره من المعاهد الدينية فى شتى أصقاع العالم الإسلامى ما عدا المملكة العربية السعودية ومعاهدها الرسمية الواقعة تحت إشراف المشايخ المقلدين للشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباع دعوته المسماة بالدعوة السلفية وكما يطلق هذا اللقب الصوفية اليوم على كل من يحتفل بذكرى المولد النبوى الشريف والإسراء والمعراج وبهما تحتفل الدول الإسلامية رسميا فى عطلة رسمية كما أن هؤلاء هم المستمرون على ما كان عليه سلفهم الصالح فى العالم الإسلامى من زيارة النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة قبل أو بعد آداء فريضة الحج أو العمرة الشريفة وختم القرآن فى اليوم الثالث على موتاهم وإستعمال السبحة فى ذكر الله تعالى وتلقين الميت وزيارة المقابر للإعتبار وإهداء ثواب القرآن الكريم لأقاربهم وأرحامهم من الموتى ومن جاورهم من المسلمين مما عليه العمل فى غالب بلاد المسلمين وهكذا يتبين أن من ينتسبون إلى الصوفية ما هم إلا السواد الأعظم والأكثرية الصامتة من المسلمين المتمسكين بالعادات والأعراف الدينية التى ورثوها عن أجدادهم وأسلافهم مما لا يعارض مع ما أجمع عليه الأمة وفقهاؤهاوقد قال : النبى صلى الله عليه وسلم "عليكم بالسواد الأعظم" رواه صاحب المشكاة وأخرجه الامام ابن ماجه فى سننه كتاب الفتن باب السواد الأعظم بهذا الاسناد حدثنا العباس بن عثمان الدمشقي قال : حدثنا الوليد بن مسلم قال : حدثنا معان بن رفاعة السلامي قال : حدثني أبو خلف الأعمى ، قال : سمعت أنس بن مالك ، يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : " إن أمتي لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم " **رواه ابن ماجة فى السنن**

إن من يلقى نظرة عابرة خلال القرون الغابرة التى مضت ويرى ما خلفه السلف الصالح رضى الله تعالى عنهم فى كل فن من فنون العلم وفى كل جهة من جهات الفن والحضارة التى أشعلت النور على العالم بعد أن كان يربض تحت تأثير الجهل والفوضى ليعترف بأن للإسلام الفضل الأول فى مبعث هذه الحضارة وتثبيت دعائمها وأن الصدر الأول من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم هم الذين حملوا العبء الأكبر فى نشر هذه الشريعة السمحة وبث أسرارها فى هذا الكون وتحويله من طبيعة جرداء إلى نور أبلج يضىء لكل سالك فى هذا الطريق والصوفية كان لهم الحظ الأوفر فى بعث هذا العمل المشرق كانت المدرسة النبوية التى أخرجت أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله تعالى عنهم ثم كانت مدرسة الصحابة التى أنجبت أمثال سعيد بن المسيب والحسن البصرى وطاووس اليمانى وإبراهيم التميمى وسادة غيرهم لا يحصون فضلا ولا علما وعملا وبهم كان تأثير الأئمة الكبار أمثال الإمام مالك وأبو حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل فالإمام أبو حنيفة كان تأثيره الأكبر

بشيخه المشهور عطاء بن أبى رباح وأمثاله وكان يقول ما لقيت رجل أفضل من عطاء

قال : الشعرانى فى الأجوبة المرضية عن شيخه شيخ الإسلام زكريا الأنصارى أنه قال : يكفينا شرف طريق القوم قول موسى للخضر عليهما السلام **(هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا)** **الكهف66**

إن موسى عليه السلام طلب طريق الإرشاد من الخضر مع سعة علم موسى ومع كونه نبيا مرسلا قال ذلك وكذلك يكفينا من شرفها أن الإمام أحمد بن حنبل إذا توقف فى مسألة يسأل عنها الشيخ أبو حمزة البغدادى ويقول له ما تقول فى هذه المسألة يا صوفى فإذا حل أبو حمزة إشكال تلك المسألة تعجب الإمام أحمد من ذلك وكان يقول : لولده عبد الله يا ولدى عليك بالحديث وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية فإنه ربما كان أحدهم جاهلا بأحكام دينه فلما صحب أبو حمزة البغدادى وعرف أحوال القوم كان يقول لولده يا ولدى عليك بمجالسة القوم فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة وبلغنا أن الإمام أبو عمر الأوزاعى طلب الصحبة لإبراهيم بن أدهم فلم يجبه إلى ذلك وقال : له يا عبد الرحمن لايطير الطير إلا مع شكله فرجع الأوزاعى عن طلب الصحبة لعلمه بعلو مراقى الصوفية وهذا من الأوزاعى أعظم دليل على شرف الطرق وأهلها وبلغنا أن الإمام الشافعى رضى الله عنه كان يجالس الصوفية كثيرا ويقول : يحتاج الفقيه إلى معرفة اصطلاح الصوفية ليفيدوه من العلم ما لم يكن عنده وقيل : له مرة ما الذى استفده من الصوفية فقال : استفدت منهم شيئين قولهم : الوقت كالسيف أن لم تقطعه قطعك وقولهم : إن لم تشغل نفسك بالخير شغلتك بالشر

فصل

حقيقة التصوف الإسلامى

موضوع الصوفية الصوفية من حيث الموضوع نوعان عظيمان :-

الأول : نوع العقل والمعرفة

الثانى : نوع القلب والرياضة

والصوفية من حيث موقعها من الدنيا نوعان الأول يتخطاها والثانى نوع يمشى فيها ويصل منها إلى الله سبحانه وتعالى ويتأدى من الخلق إلى الخالق وكل هذه المذاهب عرف فى الإسلام على أوفاه ومن الصوفية العقليين طلاب المعرفة من يحسب فى عداد الفلاسفة الأفذاذ ولا نعرف فى عقول الفلاسفة عقل يفوق الغزالى فى قوة التفكير وهؤلاء الصوفية العقليون يذهبون بالعقل إلى غاية حدوده أما الصوفيون القلبيون فهم يلتمسون المعرفة المباشرة برياضة النفس على قمع الشهوات وعندهم أن شهوات الإنسان هى الحائل بينهم وبين النور فإذا ملك زمامها وأفلت من قيودها تكشف له النور ووصل إلى مرتبة العارفين وأغناه صفاء النفس عن دراسة الدارسين وبحوث الباحثين حقيقة أن التصوف لم يسلم من الأخلاط والإفتراء إن الدين الإسلامى قد انتشر فى أقطار شاسعة كانت فيها من قبل عبادات وثنية وغير وثنية وقد تسرب بعضها إلى أبناء تلك الأقطار واختلط بعضها بالعقائد الإسلامية عن طريق الوراثة والإستمرار ولم يسلم التصوف من تلك الأخلاط فاقترن فى أذهان أناس من المنتسبين إلى الإسلام بما يجوز وما لا يجوز

التصوف الإسلامى

نشير إلى حقيقة التصوف الإسلامى فى النقاط التالية :-

أولا : إن التصوف الإسلامى نشأ فى بيئة الإسلام الأول نفسها وأخذ أصوله وقواعده من الكتاب والسنة مباشرة وهدى وأعمال النبى صلى الله عليه وسلم وأقواله وسنة الخلفاء الراشدين من بعده ثم أثار السلف الصالح كل هذه كانت وما زالت هى منبع التصوف الحق ومصبه أولا وآخرا

ثانيا : التصوف تجربة خاصة بأفراد معينين وليس شيئا مشتركا بين الناس جميعا ولكل صوفى منهج أو طريق معين فى التعبير عن حالاته

أى أن التصوف هو خبرة ذاتية لا سيما وأن أصحابه يعتمدون على الإستنباط فى وصف حالاتهم كما أنهم يلجئون للتعبير عن هذه الحالات إلى أسلوب الرمز وذلك لإخفاء أذواقهم عمن لا يرتقون إلى مستوها ومن ألطف ما يروى فى التصوف الإسلامى أن علومه كلها ذوق

ثالثا : بعد ظهور التصوف وبروز أعلامه بدأ ينتشر تدريجيا فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى على الرغم من الجدل التاريخى الذى إحتد فى بعض العصور بين العلماء والفقهاء وحول معتقدات بعض كبار المتصوفة

رابعا : إن المتصوفين حققوا التوازن حين دعوا إلى الزهد وإعتزال المظالم كما أسهموا بجهد طيب فى تغيير المنكر الذى كان واقعا آنذاك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا كان ذلك فى صورة علماء لهم مجالس وحلقات فى القرنين الثالث والرابع الهجرى كما كان فى القرن السادس الهجرى حيث تكونت ما يسمى بالطرق الصوفية

فولدت لنا عبر التاريخ الإسلامى وإلى يومنا هذا علماء مصلحين زمجددين انتقضوا وأبى وعيهم الإنسياق فى تيار بدعة الترهب والإختفاء عن أعين الناس فوقفوا ينادون الأمة ويدلونها على الأمراض التى تتهددها

التصوف جوهر الإسلام

إن التصوف الإسلامى جزء جوهرى من الدين الإسلامى نعنى بذلك جهة المركز الأساسى لذلك كانت فروضا رخيصة تلك التى تذهب بالصوفية إلى أصل يونانى أو هندى أو فارسى وهى معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها تلك المصطلحات التى ترتبط باللغة العربية أرتباطا وثيقا

وإذا كان هناك تشابه بين الصوفية وما يماثلها فى البيئات الأخرى فتفسير ذلك أمر طبيعى لا يحتاج إلى فرض الإستعارة ذلك أنه ما دامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد فى جوهرها وإن إختلفت فيما تلبسه من صور

التصوف ليس دخيل على الإسلام

يقول : الأستاذ : ماسينون

قد بين لنا فينكولسون أن إطلاق الحكم فى أن التصوف دخيل على الإسلام قول غير مقبول والحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأفكار التى أختص بها متصوفة المسلمين نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث

التصوف هو ما إمتاز به أهل السنة
عن غيرهم

يذكر صاحب كتاب التبصير فى الدين أن سادس ما امتاز به أهل السنة هو التصوف والإشارات وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ومن القرآن والسنة استمد الصوفية أول ما استمدوا آرائهم فى الأخلاق والسلوك ورياضتهم العملية التى قاموا عليها من أجل هدفهم من الحياة الصوفية فالتصوف انبثق بقضه وقضيضه من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حيث انتهله أربابه من الحياة المحمدية ظاهرها وباطنها وقددد بدأها النبى محمد صلى الله عليه وسلم وسار الصحابة فيها على نهجهم السامى واقتبسوا من أنواره السماوية المتلألئة دون أن يشوه جمال ذلك أجنبى أو يدنس بقاءه دخيل

الإتجاه إلى السلوك الصوفى له مؤثراته
الداخلية البحتة

لأن الإتجاه إلى السلوك الصوفى له مؤثراته الداخلية البحتة وهى مؤثرات تتصل بالفرد من الناحية الداخلية أكثر من أن تتصل بعامل خارجى لأنه لا بد إذا من أن يكون الإستعداد الشخصى الفردى الفطرى موجود مهيأ لأن التصوف ليس ثقافة كسبية تتأثر لهذا الإتجاه أو ذلك إنما هو ذوق ومشاهدة يصل إليها الإنسان عن طريق الخلوة الرياضية والمجاهدة والإشتياق بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب بذكر الله تعالى

التصوف الإسلامى ثورة شاملة

إن التصوف الإسلامى ليس أسلوبا من الأساليب يحيا الصوفى بمقتضاها وحسب بل هو فى الوقت نفسه وجهة نظر خاصة تحدد موقف العبد من ربه عزوجل أولا ومن نفسه ثانيا ومن العالم وكل ما فيه

آخرالأمر: فالصوفية لم يشاركوا عامة المسلمين فى نظرتهم إلى الله عزوجل والإنسان والعالم ولهذا جاء التصوف الإسلامة ثورة شاملة على هؤلاء جميعا

يقول : الكلاباذى عن الصوفية فى كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف

أجمعوا على أن الدليل على الله عزوجل هو الله وحده وسبيل العقل عندهم سبيل العاقل فى حاجته إلى الدليل لأنه محدث والمحدث لا يدل على مثله

أقوال أئمة وأعلام التصوف

إن أقوال أئمة وأعلام التصوف تشير إلى حقيقة ما هم عليه وما يدينون به أنفسهم ويدعون أتباعهم إليه : -

قال : أبو الفيض ذو النون المصرى ... مدار الكلام على أربع حب الجليل وبغض القليل واتباع التنزيل وخوف التحويل . القليل هنا بمعنى ما قل من العمل الصالح .

وقيل : هو الدنيا لقوله : سبحانه وتعالى **(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)** **النساء 77**

وقال : أبو الحسن السرى السقطى ... التصوف اسم لثلاث معان وهو الذى لا يطفىء تور معرفته نور ورعه ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة ولا تحمله على هتك أستار محارم الله .

وقال : أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى ... لو نظرتم إلى رجل أعطى الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وآداء الشرائع .

وقال : أبو الحسن أجمد بن الحوارى

من عمل بلا إتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فباطل عمله .

وقال : أبو حفص الحداد

من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعده فى ديوان الرجال .

وقال : أبو القاسم الجنيد بن محمد

من لم يحفظ القرآن ويكتتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال : أبو الحسين أحمد بن محمد النورى

من رأيته يدعى مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربن منه .

وقال : أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز

كل باطن يخالف ظاهر فهو باطل

وقال : أبو العباس أحمد بن محمد بن عطاء الله السكندرى

من ألزم نفسه آداب الشريعة نور الله قلبه بنور المعرفة ولا مقام أرقى من مقام متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم فى أوامره وأفعاله وأخلاقه وأقواله .

ماهية التصوف

إن الباحث فى كلمة تصوف يجد أن الكلمة من أكثر الكلمات تداولا وذيوعا وانتشارا واستعمالا فقد ظفرت بما لم يظفر به غيرها من الكلمات ولا يخفى أن البحوث والدراسات قد سجلت لكلمة تصوف تحركات واسعة فى مجال الفكر الإسلامى وقل أن يخلو كتاب يتصل بالسلوك من القديم والحديث من دوران حول هذه الكلمة فى كثير من صفحاته ومباحثه ذلك أن التصوف منذ أن إتخذ مكانه فى المجتمع الإسلامى ومما أعطى لكلمة تصوف وما جاء منها وتولد عنها شأنا وذيوعا وإعتبارا

الكشف عن اسم الصوفية

يعقد السراج فى كتابه اللمع فصلا بعنوان باب الكشف عن اسم الصوفية ولما سموا بهذا الاسم ولما نسبوا إلى هذه اللبسة

لما قلت الصوفية ؟ يبدأ بالسؤال عن السبب فى تسمية الصوفية بهذا الاسم دون نسبتهم إلى حال ولا إلى علم معين كما ينسب الفقهاء إلى الفقه وأصحاب الحديث إلى الحديث

لأن – الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع ولم يرسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم وذلك لأنهم معدن جميع العلوم ومحل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة سالفا ومستأنفا وهم مع الله تعالى فى الإنتقال من حال إلى حال مسجلين للزيادة فلما كانوا فى الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقين اسما دون اسم فلأجل ذلك ما أضفت إليهم حالا دون حال ولا أضفتهم إلى علم دون علم لأنى لو أضفت إليهم فى كل وقت حالا هو ما وجدت الأغلب عليهم من الأحوال والأخلاق والعلوم والأعمال وسميتهم بذلك لكان يلزم أن أسميهم فى كل وقت بإسم آخر وكنت أضيف إليهم فى كل وقت حالا دون حال على حسب ما يكون الأغلب عليهم

منشأ كلمة تصوف

إن الباحث فى كلمة تصوف يجد أن العلماء القدامى والمحدثين إختلفوا فى منشأ هذه الكلمة

يقول : الهجويرى

قد تكلم الناس فى تحقيق هذا الإسم كثيرا وألفوا كتبا فى ذلك فقالت : جماعة إن الصوفى يسمى بالصوفى لأنه يلبس ثياب الصوف ، وقالت : جماعة أخرى إنهم سموا بذلك لأنهم يشبهون أهل الصفة

وقال : آخرون إن هذا الإسم مشتق من الصفاء ويذكر الكلاباذى أن طائفة قال : إنما سموا بالصوفية صوفية لصفاء سرائرهم ونقاء آثارهم

وقال : بعضهم الصوفى من صفت لله تعالى معاملته فصفت له من الله عزوجل له كرامته

وقال : قوم آخرون سموا صوفية لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله تعالى بإرتفاع هممهم إليه وإقبالهم علليه ووقوفهم بسرائرهمم بين يديه عزوجل

وقال : قوم إنما سموا بالصوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

كلمة التصوف تحمل أربعة فروض

يرى الدكتور: زكى مبارك أن كلمة صوفية تحتمل أربعة فروض

الأول : أن يكون الصوفى منسوبا إلى الصوفية
ثانيا : أن يكون منسوبا إلى الصوف
الثالث : أن يكون مشتقا من الصفاء
الرابع : أن يكون منسوبا إلى كلمة سوفيا اليونانية وهى تعنى محبة الحكمة الإلهية وهناك أقوال أخرى ذكرها العلماء الباحثون
يقول : أقدم مؤرخ للتصوف وهو السراج الطوسى فى كتابه اللمع
نسبتهم إلى الصوفية إلى ظاهر اللبسة لأن لبس الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء ويكثر فى ذلك الروايات والأخبار
ولكن لماذا أضيفوا إلى ظاهر اللباس ؟
كان ذلك اسما مجملا مخبرا عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة
وما ذكره السراج الطوسى أن إسم الصوفية عنده مأخوذ من كون اللباس الغالب عليهم هو لبس الصوف ويستدل على نسبة التصوف إلى الصوف بقوله ألت ترى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب النبى عيسى عليه السلام فنسبهم إلى ظاهر اللبسة فقال تعالى **(إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ)** **المائدة 112**
وكان قوم يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك ولم سنسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التى كانوا بها مترسمين . فكذلك الصوفية عندى نسبوا إلى الظاهر ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التى هم بها مترسمون . لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعار المساكين المتنسكين

التصوف لا شأن له بالظاهر

يقول الإمام الأكبر شيخ الأزهر فضيلة الإمام :عبد الحليم محمود رحمه الله تعالى
إذا كانت الكلمة تنسب إلى الملبس وهو مظهر وشكل ورسم فليس معنى ذلك أن التصوف مظاهر وأشكال وليس من المحتم دائما أن يكون المعنى الأصلى للإسم هو المراد مما وضع الإسم له إذ المعنى قد يتطور ويتغير ويختلف وقد يقصد به عكسه ومن أجل ذلك فإنه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين لا يريدون أن ينسبوا التصوف إلى الصوف بحجة أن انتسابه إلى المظاهر يحط من شأنه حقيقة إن الباحثين كثيرا ما يجدون صلة وثيقة بين المعنى الأصلى للإسم وما وضع له أو بين الإسم والمسمى .
والباحث فى الموضوع يجد أن المستشرق : نوالدكن رد القول القائل أن كلمة التصوف تعود إلى سوفيا اليونانية حيث ذكر أن السين اليونانية تكتب بإطراد فى العربية سينا لا صادا وأنه ليس فى اللغة الآرامية كلمة متوسطة للإنتقال من سوفوس إلى صوفى العربية
ويقول : الشيخ :عبد الواحد يحيى أما أصل هذه الكلمة صوفى فقد أختلف فيه إختلافا كثيرا ووضعت فروض متعددة وليس بعضها أولى من بعض وكلها غير مقبولة إنها فى الحقيقة تسمية رمزية وإذا أردنا تفسيرها ينبغى علينا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها وإنه من الرائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف صوفى تماثل القيمة العددية لحروف الحكمة الإلهية فيكون الصوفى الحقيقى إذا هو الرجل الذى وصل

إلى الحكمة الإلهية إنه العارف بالله إذا إذ أن الله تعالى لا يعرف إلا به سبحانه وتلك هى الدرجة العظمى الكلية فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة

الأظهر فى إسم الصوفية

يذكر الإمام القشيرى أن الأظهر فى إسم الصوفية أنه كاللقب لأن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج فى تعيينهم إلى قياس لفظ وإستحقاق إشتقاق

ويرى عبد الرحمن بن خلدون رأى الإمام القشيرى من أن إسم الصوفية كاللقب يقول : فلم يبق إلا أنه لقب وضع لهذه الطائفة علما يتميزون به ثم تصرفوا فى ذلك اللقب بالإشتقاق منه فقيل متصوف وصوفى والطريقة تصوف والجماعة متصوفون

فصل

نشأة التصوف الإسلامى

إن التصوف قد استحدث فى القرن الثانى ومعناه هو الذى كان عليه النبى صلى الله عليه سلم وأصحابه فى القرن الأول فكانت بواطن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على المعارف الذوقية الشهودية سواءا منهم المتسبب للأرزاق أم المتجرد للعبادة من أهل الصفة فأقرالنبى صلى الله عليه وسلم أهل الصفة على تجريدهم لما رأى منهم التشوق للأسباب وإنتفاعهم وإنتفاعهم بها ومراد الله عزوجل من الجميع ما هم عليه وكلاهما على الجادة وعلى التوحيد الخالص والنية الخالصة لله تعالى فى تجردهم أو أسبابهم وهذا هو العلم الربانى والكمال العقلى للنبى صلى الله عليه وسلم حيث كان يخاطب الناس على قدر عقولهم ويوجههم للعمل الصالح المصلح لهم لكمالهم أو ترقيتهم ومزيد صفائهم .

فالتصوف الإسلامى هو الدين الخالص والنية الخالصة لله تعالى والتى قامت على مبدأ تحقيق العبودية وتعظيم الربوبية وتحقيق عمارة البواطن بالمعارف والأسرار والرضا والتوكل والإخلاص وعمارة الظواهر بالعبادة والورع والتقوى ومتابعة النبى صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله .

وهذا ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من التحقق بالدين ظاهرا وباطنا ورسوخا فى مراتب الدين الثلاث الإسلام والإيمان والإحسان الواردة فى الحديث الصحيح فليس المراد على المسلم أن يعبد الله تعالى على حرف والحرف على التفسير الأول هو العلة وعلى التفسير الثانى الذى نحن بصدده هو الطرف أو الجانب أى أن لا تعبد الله تعالى على جنب واحد وهو الظاهر فقط أو الباطن فقط لأن هذا خروج عن جادة التوحيد الخالص .

إذ من كان باطنيا فقط كان زنديقا شيطانا لرفضه الشريعة والحكمة ومن كان ظاهريا فقط كان فاسقا لخلو عبادته من الصدق والإخلاص

قال تعالى **(وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ)** الأنعام 120

أى اتركوا كل إثم بما فيه من الشرك الجلى والخفى

الصوفية لهم قدم صدق عند ربهم لرسوخهم فى مقام الإحسان

الصوفية لهم قدم صدق عند ربهم لرسوخهم فى مقام الإحسان وصدق الله العظيم **(وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)** سبأ 13

وكونهم ممن يعبدون الله تعالى بتقوى شاملة بعيدا عن ظاهر الإثم وباطنه مع ترك الشرك جليه وخفيه حريصين على المتابعة المحمدية بحواسهم الحسية وطاقاتهم المعنوية فهؤلاء الصوفية الذين لهم قدم صدق عند ربهم لرسوخهم فى مقام الإحسان وتحققهم بأقوال النبى صلى الله عليه وسلم

تعريف التصوف

قال : ابن عجيبة رحمه الله

التصوف هو صدق التوجه إلى الله تعالى بما يرضاه ومن حيث يرضاه

وقال : أيضا التصوف هو يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل فأوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة لقد كادت كتب الصوفية تجمع على معنى التصوف هو صدق التوجه إلى الله تعالى المشروط برضاه عزوجل

من هو الصوفى ؟

يقول : الشيخ : ابن عجيبة قال : سهل التسترى الصوفى من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله تعالى عن البشر واستوى عنده الذهب والمدر . أى لا رغبة عنده فى شىء دون مولاه

وقال : الإمام الجنيد

الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح

وقال : أيضا الصوفى كالأرض يطؤها البر والفاجر كالسماء تظل كل شىء وكالمطر يسقى كل شىء

وخلاصة القول : أن التصوف تفسير لمقام الإحسان الذى هو مقام الشهود والعيان ولا مشاحة فى المصطلحات وإنما العبرة للحقيقة والجوهرفإذا كان اصلاح الظاهر واجبا فإصلاح الباطن أوجب لأنه موضع نظر الله عزوجل وإذا كان اصلاح باطن العبد وسريرته وقلبه هو جوهر الدين . فذلك هو التصوف ولا يزيد أبدا عن كونه اصلاح القلوب .

الباب الثانى

مصدر التصوف من الإسلام

كان التصوف عند أول تكوينه العلمى أخلاقيا دينيا فمن الطبيعى أن يكون مصدره الأول إسلاميا فقد استمد من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأحوال الصحابة وأقوالهم على أن أحوال الصحابة وأقوالهم لم تكن لتخرج عن نطاق الكتاب والسنة وبذلك يكون المصدران الأساسيان للتصوف فى الحقيقة هما القرآن والسنة ومن القرآن والسنة إستمد الصوفية أول ما إستمدوا آرائهم فى الأخلاق والسلوك ورياضتهم العملية من أجل تحقيق هدفهم من الحياة الصوفية وقد بين لنا الطوسى فى كتابه اللمع أن الصوفية تخصيصا بمكارم الأخلاق والبحث عن معالى الأحوال وفضائل الأعمال إقتداءا بالنبى صلى الله عليه وسلم وصحابته ومن تبعهم وهذا كله على حد تعبيره موجود علمه فى كتاب الله عزوجل والسنة النبوية المطهرة والصوفية يتصورون طريقا للسلوك إلى الله تعالى يبدأ بمجاهدة النفس أخلاقيا ويتدرج السالك له فى مراحل متعددة تعرف عندهم بالمقامات والأحوال وينتهى من مقامه وأحواله إلى المعرفة بالله تعالى وهى نهاية الطريق .

ويعنى الصوفية بالمقام مقام العبد بين يدى الله تعالى فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات . ومن أمثلة ذلك المقامات عندهم مقام التوبة والزهد والورع والفقر والصبر والرضا والتوكلوما إلى ذلك أما الأحوال عندهم فحال المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة واليقين وغير ذلك .

الفرق بين الحال والمقام

قد فرق الصوفية بين الحال والمقام تفرقة دقيقة فالمقام يتصف بالثبوت . أما الحال فزائل والمقام يحصل للسالك لكسبه وإرادته على حين أن الحال وارد عليه دون تعمد منه وإلى هذا يشير الإمام القشيرى فى رسالته بقوله : والحال معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا إجتلاب ولا إكتساب لهم من طرب أو حزن أو بسط أو قبض أو شوق أو إنزعاج أو هيبة أو إحتياج . فالأحوال مواهب والمقامات كسب والأحوال تأتى من عين الجود والمقامات تحصل ببذل المجهود وصاحب المقام ممكن فى مقامه وصاحب الحال مترق عن حاله .

مصدر التصوف من القرآن

إن جميع مقامات الصوفية وأحوالهم مسندة إلى شواهد القرآن الكريم

مجاهدة النفس ... تستند مجاهدة النفس التى هى بادية الطريق إلى الله تعالى إلى آيات مثل قوله : تعالى

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

العنكبوت 69

وقوله : تعالى **(إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)**

يوسف 53

ومثل قوله : تعالى

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَـهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) **النازعات 40 - 41**
.
مقام التقوى ... ومقام التقوى يمكن أن يكون مستندا عندهم إلى قوله تعالى **(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)** **الحجرات 13**
الزهد ... ومقام الزهد يستند إلى آية مثل **(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)** **النساء 77**
وإلى آية مثل **(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)** **الحشر 9**
مقام التوكل ... يستند عندهم إلى مثل قوله : تعالى
(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) **التوبة 51**
الشكر ... مستمد من آية مثل **(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)** **إبراهيم 7**
الصبر ... مستند إلى آية مثل **(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ)** **النحل 127**
ومثل **(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)** **البقرة 155**
الرضا ... أما مقام الرضا فمذكور فى قوله : تعالى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) **المائدة 119**
الحياء ... ومقام الحياء يمكن أن يرد إلى قوله : تعالى (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى) **العلق 14**
الفقر ... بمعنى الإفتقار إلى الله تعالى وهذا يستند إلى آية مثل (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ) **البقرة 273**
(وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ) **محمد 38**
المحبة ... مقام المحبة المتبادلة بين العبد والرب وهو مشار إليه صراحة فى قوله : تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) **المائدة 54**
وكلام الصوفية فى المعرفة الحاصلة عن التقوى والتخلق والإلهام يرد عندهم آياى مثل (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) **البقرة 282**
وقوله : تعالى (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) **الكهف 65**
.
الأحوال مستندة أيضا إلى القرآن الكريم

الخوف ... حال الخوف يستند إلى قوله : تعالى
(يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) **السجدة 16**
حال الرجاء ... يستند إلى قوله : تعالى (مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) **العنكبوت 5**
الحزن ... وحال الحزن يستند إلى قوله : تعالى (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) **فاطر 34**
الذكر ... فالذكر عند الصوفية يستند إلى قوله : تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) **الأحزاب 41**
الولا ية ... ومعنى الولاية موالاة الله عزوجل بالطاعات يستند إلى قوله : تعالى (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) **يونس 62**
الدعاء ... الدعاء عند الصوفية هو رياضة عملية لها آدابها عندهم ويستند إلى شواهد قرآنية كثيرة مثل قوله : تعالى (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) **غافر 60**
وقوله : تعالى (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ)
النمل 62

الطمأنينة

الطمأنينة عند الصوفية تعنى سكون القلب وراحته وهى من خصائص تصوفهم وهى عندهم حال رفيع ولا تكون إلا لعبد رجح عقله وقوى إيمانه ورسخ علمه وصفا ذكره وثبتت حقيقته وهذا لا يكون إلا فى نهاية الطريق

ذكر الطمأنينة فى القرآن الكريم

قد ورد ذكر الطمأنينة فى القرآن الكريم فى قوله : تعالى (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) **الفجر 27 – 28**
وقوله : تعالى
(الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) **الرعد 28**
وقوله : تعالى حاكيا عن إبراهيم عليه السلام (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)
البقرة 260

الطمأنينة ثلاثة أقسام

قد بين لنا الطوسى فى اللمع فى باب خاص عقده عن حال الطمأنينة وأن الطمأنينة ثلاثة أقسام

الأول : للعامة الذين إذا ذكر الله إطمأنوا إلى ذكرهم له سبحانه وأنه سوف يستجيب لدعائهم ويدفع عنهم الآفات وهو ما قال : الله تعالى النفس المطمئنة أى المطمئنة بالإيمان بأنه دافع عنهم ولا مانع إلا الله تعالى

الثانى : للخاصة وهو ما إقترن بالرضا بقضاء الله تعالى والصبر على بلائه والإخلاص والتقوى والسكون لقوله : تعالى

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) **النحل 128**
وقوله : نعالى (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) **الأنفال 46**
الثالث : لخاصة الخاصة وهو إطمئنان يختلف عن سابقيه فالصحابة يعلمون أن قلوبهم لا تقدر أن تطمئن إلي الله تعالى أو تسكن معه هيبة وتعظيما إذ هو غاية لا تدرك لأنه تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) **الشورى 11**
(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) **الإخلاص 4**
وهم كفنائهم عن أنفسهم مأخذون بجلال الله وجمال عظمته فشغلهم ذلك عن رؤية أعمالهم وعن كل معنى إذ هم لله تعالى لا لشيء دونه

التحقق بالطمأنينة يضفى قوة نفسية

ويشير الصوفية إلى أن تحقق الصوفى بالطمأنينة يضفى قوة نفسية ويجعل الغير يأس به
يقول : سهل بن عبيد الله التسترى
إذا سكن قلب العبد إلى مولاه واطمأن إليه قويت حال العبد فإذا آنس بالعبد كل شيء
ويشيرون كذلك إلى أن إطمئنان القلوب يحدث عن مداومة ذكر الله تعالى والمعرفة به
وقد سئل الحسن بن على الدامغانى عن قوله : تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) **الرعد 28**
فقال : إن القلوب هشت من معرفة جلال الله تعالى وعظمته وبشت من معرفته رحمة الله تعالى وفضله وسكنت من معرفة كفاييته وصدقه وإستأنست من معرفة إحسانه تعالى ولطفه .
وجدير بالذكر- أن الصوفية يدخلون فى إعتبارهم أن من أسباب الطمأنينة أن يجد الفرد كفايته فى المجتمع فهم لم يكونوا يعيشون فى فراغ ولذلك نجد صوفيا كأبى سليمان الدارانى يقول : النفس إذا أحرزت قوتها إطمأنت وسئل الشبلى عن معنى هذه العبارة فقال : إذا عرفت من يقوتها أى الله عزوجل إطمأنت ، ويقول : أبو تراب النخشبى ... التوكل طرح البدن فى العبودية وتعلق القلب بالربوبية والطمأنينة إلى الكفاية فإن أعطر شكر وإن منع صبر

الطمأنينة هى الفرح

قد عبر بعض الصوفية عن الطمأنينة أيضا بالفرح والفرح الحقيقى عندهم هو شهود الله تعالى فى حركاتهم وسكناتهم ورؤية المنعم الوحيد فأعمال طاعتهم وعباداتهم ليست إلا فضلا منه تعالى ورحمة وهذا مشار إليه فى قوله : تعالى (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) **يونس 58**
وهذا يقتضى منهم الفرح بما من الله تعالى به عليهم لا الفرح بأعراض الدنيا ، فهذا الفرح الأخير وهم على التحقيق لأنه يستجلب بالتدريج هموما لا حصر لها ، وإلى هذا المعنى يشير سهل بن عبد الله التسترى بقوله : من فرح بغير مفروح به استجلب حزنا لا إنقضاء له
وأخيرا - يطول بنا الحديث لو أردنا كل معنى من المعانى النفسية أو الأخلاقية التى يعبر عنها الصوفية بالأحوال والمقامات إلى أصله من القرآن الكريم ومن أراد زيادة

فى هذا الباب فعليه بالرجوع إلى كتب الصوفية أنفسهم كالرسالة للإمام القشيرى أو اللمع للطوسى أو الإحياء للإمام الغزالى

مما سبق يتبين لنا أن البذور الأولى للتصوف الإسلامى من حيث هو علم المقامات والأحوال أو بعبارة أخرى من حيث هو علم للأخلاق الإنسانية والسلوك الإنسانى موجود فى القرآن الكريم ومن هنا يكون التصوف من حيث نشأته الأولى آخذا من القرآن وكما كان القرآن الكريم منبعا استقى منه الصوفية تصوفهم . كذلك كانت حياة النبى صلى الله عليه وسلم التعبدية وأخلاقه وأقواله مصدرا من مصادر التصوف وفيما يلى بيان ذلك

حياة النبى صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وأقواله

يكننا التمييز فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم بين فقرتين . حياته قبل أن يبعث وحياته بعد البعثة وفى كل فترة من هاتين الفترتين وجدا الصوفية لأنفسهم مصدرا غنيا فيما استمدوه من صنوف العلم وضروب العمل . وإذا تأملنا حياة النبى صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحى لوجدنا أنها تنطوى على معانى الزهد والتقشف والإنقطاع والتأمل فى الكون للوصول للحقيقة . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتحنث فى غار حراء كلما أقبل شهر رمضان مبتعدا عن صخب الحياة زاهدا فى نعيمها وترفها متقللا فى مأكله ومشربه ومتأملا فى الوجود فأتاح له هذا كله صفاء القلب . وكان تحنثه فى غار حراء تمهيدا لنبوته حتى نزل عليه حبريل بالوحى فقال له إقرأ فقال ما أنا بقارىء حتى أمره جبريل

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) **العلق 1 -5**

لقد كانت حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى غار حراء بما فيها من تحنث وتقلل فى المأكل والمشرب وتأمل فى الكون صورة أولى للحياة التى سيحياها فيما بعد الزهاد الصوفية . والتى أخضعوا أنفسهم فيها لضروب من الرياضات والمجاهدات والأحوال كالغيبة والفناء فى مناجاة الله جلا وعلا والتى هى ثمرة الخلوة .

ذكر ما أشار إليه الإمام الغزالى فى هذا المسلك

قد أشار الإمام الغزالى إلى استناد الصوفية فى هذا المسلك وهو عزلة النبى صلى الله عليه وسلم قائلا :

الفائدة الأولى للعزالة ... التفرغ للعبادة والفكر والإستئناس بمناجاة الله جلا وعلا عن مناجاة الخلق والإشتغال بإستكشاف أسرار الله تعالى فى أمر الدنيا والآخرة وملكوت السماوات والأرض . فإن ذلك يستدعى فراغا ولا فراغ فى المخالطة

فالعزلة وسيلة إليه ولذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم فى ابتداء أمره يتبتل فى جبل حراء وينعزل إليه حتى قوى نور النبوة فكان الخلق لا يحجبونه عن الله تعالى فكان ببدنه مع الخلق وبقلبه مقبلا على الله عزوجل .

ما ذكره السهروردى

يقول : السهروردى البغدادى فى كتابه عوارف المعارف

قال : يحيى بن معاذ رحمه الله

الوحدة منية الصديقين ومن الناس من ينبعث من باطنه داعية الخلوة وتتجذب النفس إلى ذلك وهذا أتم وأدل على كمال الإستعداد وقد روى من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك ما يدل عن عائشة رضى الله عنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتى حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خجديجة رضى الله عنها لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء .

حياته صلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحى

أما حياة النبى صلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحى عليه فكانت أيضا متصفة بالزهد والتقلل من المأكل والمشرب حافلة بالمعانى الروحية التى وجد فيها الصوفية منبعا فياضا لهم . فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم آخذا نفسه بالتقشف كثير العكوف على العبادة والتهجد حتى لقد نهاه القرآن عن ذلك فى قوله : تعالى (طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) **طه1 - 2**

وكان زهد النبى صلى الله عليه وسلم زهدا إختياريا

يقول : الدكتور: محمد حسنين هيكل فى كتابه حياة محمد

لم يكن هذا الزهد ولا هذه الرغبة عن الدنيا تقشفا للتقشف ولا كانا فرائض الدين فقد جاء فى القرآن (كلوا من طيبات ما رزقناكم) وفى الأثر إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا وإعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . ولكم محمد صلى الله عليه وسلم أراد أن يضرب للناس المثل الأعلى فى القوة على الحياة قوة لا يتطرق إليها ضعف ولا يستعبد صاحبها متاع أو مال أو سلطان أو أى مما يجعل لغير الله عليه سيادة .

ويروى عن كثرة تعبد الرسول صلى الله عليه وسلم أن عائشة رضى الله عنها قالت : له لما رأته يقوم الليل حتى تنفطر قدماه لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال : أفلا أكون عبدا شكورا . وكان يأخذ نفسه بالإعتكاف .

وروت السيدة عائشة رضى الله عنها أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ثم اعتكف أزواجه من بعده .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه

أنه لما كان العام قبض فيه النبى صلى الله عليه وسلم إعتكف عشرين يوما

وأما عن أخلاقه صلى الله عليه وسلم فقد بلغ فيها الكمال

قال : الله تعالى عنه (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) **القلم 4**

وسئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلقه فقالت : كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه وكانت نفسه صلى الله عليه وسلم منجذبة إلى عالم الربوبية وكانت بطبيعتها شديدة النفور عن اللذات الباطلة والسعادات الزائفة التى يمعن الناس فى الأخذ بها والخضوع لها ولم يعرف عنه قبل بعثته شىء مضاد للخلق الكريم .

وولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم فى خلقه متكلفا وإنما كان خلقه سجية وطبعا وإلى هذا الإشارة بقوله : تعالى (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) **ص86**

أى – قل يا محمد لست متكلفا فيما يبدوا لكم من أخلاقى لأن المتكلف لخلق من الأخلاق لا يدوم له هذا التكلف طويلا بل يعود إلى طابعه الأصلى . فالذى يتكلف الشجاعة وهو جبان سرعان ما يظهر على حقيقته وهكذا الشأن فى جميع الأخلاق الأخرى وقال : النبى صلى الله عليه وسلم أدبنى ربى فأحسن تأديبى وفى الحديث أن الله تعالى قد أمره أن يصل من قطعه ويعطى من حرمه ويعفو عمن ظلمه . وكان آية فى العلم والحلم فقد روى أنه يوم أحد لما شج وجهه شق ذلك على صحابته فقالوا : لو دعوت عليهم فقال : لم أبعث لعانا ولكن داعيا ورحمة اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ولمانتصر على أعدائه من قريش فى فتح مكة لم يك أعداؤه فى أنه سيتأصل شأفتهم فما زاد على أن عفا عنهم وصفح وقال : لهم ما تظنون أنى فاعل بكم قالوا أخ كريم وابن أخ كريم قال إذهبوا فأنتم الطلقاء . وكان من خلقه الرحمة والشفقة لجميع الخلق ألم يقل : الله تعالى (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

التوبة 128

وقالت : السيدة خديجة رضى الله عنها بعد نزول الوحى عليه أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق وعرف النبى صلى الله عليه وسلم بحسن العشرة للناس وقد وصفه على بن أبى طالب رضى الله عنه من هذه الناحية فقال : كان أوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويلاطف الأطفال الصغار ويجيب دعوة من دعاه ويعود المرضى ويقبل الدعوة . ولا أدل على تواضعه من أن رجلا دخل عليه فأصابته من هيبته رعدة فقال : له هون عليك فإنى لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد وكان النبى صلى الله عليه وسلم معروفا بالحياء وهو فضيلة خلقية أساسية فى الإسلام فروى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كان النبى أشد حياءا من العذراء فى خدرها وكان إذا كره شيئا عرفناه فى وجهه وقال : تعالى مبينا فضيلة الحياء فيه (إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ) **الأحزاب 53**

ولهذا كان الحياء من الإيمان على حد قوله صلى الله عليه وسلم وهو القائل أيضا "لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء " رواه الإمام مالك في الموطأ و رواه ابن ماجة

وأما عطاؤه وجوده صلى الله عليه وسلم

فقد كان فيهما المثل الأعلى

عن جابر رضى الله عنه قال : ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا فكان يعطى من سأله إذا وجد وإلا وعده بالعطاء إذا أتاه مال . ولهذا قال : حسان بن ثابت

ما قال لا قط إلا فى تشهده   لولا التشهد لم تسمع له لا

ولا يمكننا فى الواقع أن نستقصى هنا جميع أخلاقه صلى الله عليه وسلم ومن أراد زيادة فى هذا الشأن فعليه بكتب الحديث والسيرة وكتب شمائله صلى الله عليه وسلم وقد أجمل أحد صحابته ذكر أخلاقه وسلوكه مع الناس فى قوله : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا

سخاب فى الأسواق ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح مداح يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤيس منه فقد ترك نفسه من ثلاث الرياء والإكثار وما لا يعنيه وترك من الناس من ثلاث كان لا يذم أحدا ولا يعيره ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما يرجوا ثوابه إذا تكلم أطرق له جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير وإذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده . وبهذه الأخلاق إكتسب النبى صلى الله عليه وسلم حب أصحابه له وإخلاصهم فى دعوته .

وفى هذا الصدد يقول : المستشرق الإنجليزى المعاصر مونتجمرى وات

لقد كسب محمد إحترام الرجال وثقتهم على أساس دينى من حيويته وأخلاقه كالشجاعة والعزم والنزاهة بالإضافة إلى ذلك كان له من سحر السلوك ما أكسبه حبهم وضمن تفانيهم فيه . وليس من شك فى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان المثل الأعلى للمسلمين جميعا بما فيهم الصوفية لقوله : تعالى (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) **الأحزاب 21**

هذا ويؤثر عن النبى صلى الله عليه وسلم بالإضافة إلى ما تقدم ذكره أقوال كثيرة حافلة بالمعانى التى استنبطها الصوفية فيما بعد وطوروها فى شكل نظريات ذوقية قائمة على أساس المعاناة والخبرة المباشرة . فمن ذلك ما روى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : " إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله تعالى فى اليوم سبعين مرة:

رواه الإمام أحمد وأبو داود ومسلم

ليس المقصود بإستغفاره إستغفارا عن الذنوب فالنبى صلى الله عليه وسلم بحسب العقيدة الإسلامية معصوم من الذنوب سواء ما كان منها كبائر أو صغائر . وقد أعطانا الإمام القشيرى فى الرسالة تفسيرا لذلك حيث يقول : كان النبى صلى الله عليه وسلم دائما ابدا فى الترقى من أحواله فإذا إرتقى إلى حالة أعلى مما كان فيها فربما حصل له ملاحظة إلى ما إرتقى عنها فكان يعدها غينا بالإضافة إلى ما حصل فيها فأبدا كانت أحواله فى التزايد ومقدورات الحق سبحانه من الألطاف لا نهاية لها .

وحاصل كلام الإمام القشيرى أن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها كمال وبعضها أكمل من البعض الآخر . فإذا كان فى الحال الأكمل ونظر منه إلى الحال الأقل كمالا عد الأخير غينا بالنسبة للأعلى .

دعوة النبى صلى الله عليه وسلم إلى الزهد

دعا النبى صلى الله عليه وسلم إلى الزهد فقال : "ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس " **رواه ابن ماجة**

وقال : صلى الله عليه وسلم " إذا أراد الله بعبد خيرا فقهه فى الدين وزهده فى الدنيا وبصره بعيوبه "

رواه مسلم والطبرانى

وقال : صلى الله عليه وسلم " إذا رأيتم من يزهد فى الدنيا فادنوا منه فإنه يلقى الحكمة " **رواه البيهقى فى الشعب**

وأشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى معنى الولاية فى الحديث القدسى إن الله تعالى قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب مما

إفترضه عليه وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حت أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى أعطيته ولئن إستعاذ بى لأعذته " **رواه البخارى**

وتحدث النبى صلى الله عليه وسلم عن معنى الشكر والصبر وما إليهما من المعانى الروحية فقال : الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن بين السماوات والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء "
رواه مسلم

وحث النبى صلى الله عليه وسلم على التوكل والتسليم بقضاء الله تعالى قال : احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة واعلم أن ما أصابك لم يكن أخطأك وإن أخطأك لم يكن ليصيبك واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الشدة وأن مع العسر يسرا" **رواه الترمذى**

وقد انطوت بعض أدعية الرسول صلى الله عليه وسلم على كثير من المعانى وذلك نحو قوله :

اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت " **صحيح البخارى**

وقوله : صلى الله عليه وسلم "اللهم اجعلنى شكورا واجعلنى صبورا واجعلنى فى عينى صغيرا وفى أعين الناس كبيرا " **رواه البزار**

وقوله : صلى الله عليه وسلم... اللهم أغننى بالعلم وزينى بالحلم وكرمنى بالتقوى وجملنى بالعافية .

وقوله : صلى الله عليه وسلم اللهم إنى أسألنى الصحة والعفة والإنابة وحسن الخلق والرضا بالقدر"**رواه البيهقى**

فهذه الشواهد كلها تدل على أن تصوف الصوفية وما ينطوى عليه من النزعات الزهدية والمعانى الأخلاقية كالمقامات والأحوال وما يترتب عليها من ثمرات روحية وقد وجد مادته فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وأفعاله وأقواله وعمله وفعله .

فصل

حياة الصحابة رضى الله عنهم

كانت حياة الصحابة وأقوالهم أيضا منبعا إستقى منه الصوفية لأن حياتهم وأقوالهم حافلة بالشىء الكثير من الزهد والورع والتقشف والإقبال على الله تعالى ولا يستطيع باحث منصف فى تاريخ التصوف الإسلامى أن يغفل عما انطوت عليه حياة الصحابة رضى الله عنهم وأقوالهم من المنازع الروحية والأذواق القلبية وذلك حينما يريد التعرف على الأسس التى قامت عليها حياة الصوفية الروحية . لقد كان الصحابة فى الحقيقة مقتدين بالنبى صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأحواله وأفعاله وقد إمتدحهم القرآن الكريم فى قوله : تعالى (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) **التوبة 100**

وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى علو منزلتهم فقال : "أصحابى كالنجوم بأيهم إقتديتم إهتديتم " رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله
ومن هنا نظر الصوفية إلى الصحابة على أنهم قدوة فى جميع معانيهم الظاهرة والباطنة على حد تعبير الطوسى فى كتابه اللمع ونحن لا نستطيع هنا أن نذكر كل ما روى عن صحابة الرسول من الأقوال والأحوال التى جعلها الصوفية مصدرا لهم فى حياتهم الروحية وحسبنا أن نشير إلى بعض ذلك مما له دلالة على ما نحن بصدد الحديث عنه . فمما روى عن الصحابة رضى الله عنهم إجمالا قول : أبى عتبة الحلوانى ألا أخبركم عن حال كان عليها أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم : -
أولها : كان لقاء الله تعالى كان أحب إليهم من الحياة
الثانية : كانوا لا يخافون عدوا قلوا أن كثروا
الثالثة : كانوا لا يخافون عوزا من الدنيا وكانوا واثقين برزق الله تعالى

أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

كان أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه زاهدا حتى ليروى عنه أنه كان يطوى ستة أيام وكان لا يزيد على ثوب واحد وكان يقول : إذا دخل العبد العجب بشىء من زينة الدنيا مقته الله تعالى حتى يفارق تلك الزينة . وتحدث عن التقوى واليقين والتواضع فقال : وجدنا الكرم فى التقوى والغناء فى اليقين والشرف فى التواضع . وتحدث عن المعرفة فقال : من ذاق من خالص المعرفة شيئا شغله ذلك عما سوى الله واستوحش من جميع البشر . وحكى الإمام الجنيد عنه
فقال : أشرف كلمة فى التوحيد قول أبى بكر رضى الله عنه سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا العجز عن معرفته . وقد ذكر المحب الطبرى روايات كثيرة عن تعبده رضى الله عنه وأدعيته وزهده ورضاه وخوفه وورعه وتواضعه وحلمه وغير ذلك من صفاته وأخلاقه مما جعله الصوفيه فيما بعد أساسا لكلامهم فى هذه المعانى .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه صافى النفس طاهر القلب حتى لقد قال عنه النبى صلى الله عليه وسلم مخبرا عن ربه إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله
وكان متقشفا حتى ليروى عنه أن كان يخطب الناس وهو خليفة وعليه قميص فيه اثنا عشر رقعة وتكلم عمر رضى الله عنه فى معنى الرضا والصبر فقال : فى كتاب وجهه إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أما بعد فإن الخير كله فى الرضا فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر . وكان آية فى التواضع حتى لقد روى عنه قوله : رحم الله امرءا أهدى إلينا عيوبنا وقد ذكر الطوسى عن إقتداء الصوفية بعمر رضى الله عنه ما نصه قال : ولأهل الحقائق أسوة وتعلق بعمر رضى الله عنه بمعانى خص بها من إختيار لبس المرقعة والخشونة وترك الشهوات وإجتناب الشبهات وإظهار الكرامات وقلة المبالاه من لائمة الخلق عند قيام الحق ومحق الباطل ومساواة الأقارب والأباعد فى الحقوق والتمسك بالأشد فى الطاعات

قال : طلحة بن عبد الله رضى الله عنه ... ما كان عمر بأولنا إسلاما ولا أقدمنا هجرة ولكنه كان أزهدنا فى الدنيا وأرغبنا فى الآخرة .
ويرى الصوفية فى ظهور خوارق العادات من المكاشفات والكرامات على يد عمر رضى الله عنه أنه بلغ درجة الصديقين ودلائل ذلك ظهرت عليه عندما كان يخطب الجمعة وهو خليفة فصاح فى وسط خطبته مناديا يا سارية الجبل الجبل وسارية فى عسكر على باب نهاوند فسمع صوت عمر رضى الله عنه عندئذ وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو وقيل لسارية كيف علمت ذلك فقال : سمعت صوتا عمر يقول : يا سارية الجبل .

عثمان بن عفان رضى الله عنه

أما عثمان رضى الله تعالى عنه فكان قدوة أيضا لأهل التصوف فى أمور كثيرة ففى مجاهدته لنفسه . يروى عنه أنه حمل حزمة حطب من بعض بساتينه وكان له عدة عبيد فقيل له لو دفعتها إلى بعض عبيدك فقال : إنى قد استطعت أن أفعل ذلك فدل على أنه كان لا يدع مجاهدة نفسه فلا يسكن إلى ما جمع من الأموال لأنه ليس فى ذلك كغيره . ويروى عن زهده مع كثرة ماله أن الإنفاق كان أحب إليه من الإمساك فهو قد جهز جيش العسرة واشترى بئر رومة من يهودى كان يمنع المسلمين عنها حتى قال : عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ضر عثمان ما فعل بعد هذا . وقد بين عثمان رضى الله عنه أن للمال وظيفة إجتماعية فقال : لولا أنى خشيت أن يكون فى الإسلام ثلمة أسدها بهذا المال ما جمعته . وروى عنه كثرة تعبده وكثرة تلاوته للقرآن وكان يقول : هذا القرآن كتاب ربى ولا بد للعبد إذا جاءه كتاب سيده أن ينظر فيه كل يوم ليعمل بما فيه . وقد ذكر المحب الطبرى شيئا من أخلاقه كالحياء والجود والزهد والخوف والورع والتواضع والشفقة وحسن الصحبة للناس وغير ذلكك الكثير من فضائله وشمائله رضى الله عنه . وقد قتل رضى الله عنه وهو يقرأ القرآن وقد فلسف صوفية الإسلام مقتله هذا فلسفة خاصة فيقول : الطوسى فى اللمع ومما يدل على تخصيصة عثمان رضى الله عنه بالتمكين والثبات والإستقامة ما روى عنه أنه يوم قتل لم يبرح مكانه ولم يأذن لأحد بالقتال ولا وضع المصحف من حجره إلى أنقتل رضى الله عنه وسال الدم على المصحف وتلطخ بالدم ورفع الدم عن موضع الآية (**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**) **البقرة 137**
والتمكين حال رفيع .
ويقول الإمام القشيرى فى رسالته عن معنى التمكين التمكين هو صفة أهل الحقائق فما دام العبد فى الطريق فهو صاحب تنقل لأنه يرتقى من حال إلى حال وينتقل من وصف إلى وصف فإذا وصل تمكن . وهكذا رأى الصوفية أن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان متحققا بالوصول إلى اللبه تعالى وبمقام التمكين الذى جعله ثابتا لمجارى الأقدار لا يزعزعه شىء مما حوله . وقد روى عن عثمان رضى الله عنه أقوالا منها قوله : و جدت الخير مجموعا فى أربعة : -
أولها : التحبب إلى الله تعالى
الثانى : الصبر على أحكام الله تعالى
الثالث : الرضا بتقدير الله عزوجل

الرابع : الحياء من نظر الله عزوجل
فكأنـه يتحـدث هنـا عـن مقامـات أربعـة مـن مقامـات السـلوك وهـى المحبـة والصـبر والرضا والحياء من الله عزوجل .

على بن أبى طالب رضى الله عنه

أما الإمام على كرم الله تعالى وجهه فله أيضا عند الصوفية منزلة خاصة رفيعة فقد قال : عنه أبو على الروذبادى أحد كبار أوائل الصوفية ذلك إمرؤ أعطى العلم اللدنى أى العلم الذى هو من لدن الله تعالى والعلم اللدنى هو العلم الذى خص به الخضر عليه السلام قال : تعالى (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) **الكهف 65**
يقول : الطوسى فى كتابه اللمع ولأمير المؤمنين على بن أبى طالب خصوصية من بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعانى جليلة وإشارات لطيفة وألفاظ مفردة وعبارة وبيان للتوحيد والمعرفة والإيمان والعلم وخصال شريفة تعلق وتخلق بـه أهل الحقائق من الصوفية كـان عليا رضـى الله عنـه بـارزا فـى الزهد والتقشف والدعوة إليهما فقال : لعمر بن الخطاب إذا أردت أ تلقى أصحابك فرقع قميصك واخصف نعلك وقصر أملك وكل دون الشبع . وقال : ابن عجيبة ... أنـه كـان أزهد الصحابة رضى الله تعالى عنهم وشهد له الإمام الشافعى بأنه كان عظيما فى الزهد .
وقد صور الإمام على حال مجاهدته لنفسه قائلا ما أنا ونفسى إلا كراعى غنم كلما ضمها من جانب انتشرت من جانب . وسأل رجلا الإمام عليا عن معنى الإيمان فقال : له الإيمان على أربع دعائم على الصبر واليقين والعدل والجهاد ثم شرع يصف له كل مقام من هذه المقامات . وهنا يعلق الطوسى قائلا : إذا صح ذلك فهو أول من تكلم فى الأحوال والمقامات .
ويقول : الطوسى أيضا وللإمام على رضى الله تعالى عنه أشباه ذلك كثير من الأحوال والأخلاق والأفعال التى يتعلق بها أرباب القلوب وأهل الإشارات وأهل المواجيد من الصوفية .
ونحن لا نجد بذور الحياة الروحية الإسلامية مغروسة فى قلب النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته رضى الله تعالى عنهم من الخلفاء الأربعة فحسب وإنما نجدها أيضا فى قلوب صحابته من غير الخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم . فأهل الصفة من الصحابة مثلا كان لهم أثر قوى فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية . وقد كان أهل الصفة جماعة من فقراء المسلمين المهاجرين والأنصار لم يكن لهم أهل ولا مال وبنيت لهم صفة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم (الصفة هى مؤخرة المسجد) إنقطعوا فيها إلى الله تعالى وعكفوا على العبادة ورياضة النفس والتجرد عن أعراض الدنيا وهم الذين نزل فيهم قوله : تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) **الكهف 28**
وقد وصف أبو نعيم الأصفهانى فى كتابه حلية الأولياء أهل الصفة فقال : عنهم هم قوم أخلاقهم الحق لا يركنون إلى شىء من العروض وعصمهم من الإفتتان بها عن

الفروض قدوة للمتجردين من الفقراء لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا يلهيهم عن ذكر الله تعالى تجارة ولا بيع لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا ولم يفرحوا إلا بما أيدوا به من العقبى . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجبهم ويجالسهم ويحث الناس على إكرامهم ومعرفة فضلهم . وكان أبو هريرة رضى الله عنه من أشهر من سكن الصفة طيلة حياة النبى صلى الله عليه وسلم ولم يبرحها وقد ذكرت لنا كتب الطبقات الشىء الكثير عنه وعن زهده وتقشفه وأحواله وأحوال غيره من الصحابة الذين لزموا الصفة . وهناك طائفة أخرى من الصحابة رضى الله عنهم أخبارها فى الزهد والنسك معروفة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر معاذ بن جبل ةعمران بن حصين وسلمان الفارسى وأبا ذر الغفارى وأبا عبيدة بن الجراح وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر وحذيفة بن اليمان وبلال الحبشى وصهيب الرومى رضى الله تعالى عنهم أجمعين . ومن أراد أ يقف على أحوال هؤلاء القوم وأقوالهم فعليه بالرجوع إلى كتب حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى وكتاب اللمع للطوسى . ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن أحوال وأقوال الصحابة الكرام والتى كانت مصدرا استقى منه صوفية الإسلام الذين جاءوا من بعد

فصل

أركان التصوف الأربعة

الركن الأول : التصوف هو المعرفة

حيث قدم لنا التيار الصوفى نموذجا خاصا فى المعرفة الإسلامية لا يقتنع بالتجريب ولكن يؤمن بالحدث . فإذا كان الفلاسفة يستخدمون مناهج العقل فى التوصل إلى حقائق الأشياء والمتكلمون يستخدمون العقل فى إثبات العقيدة الدينية أو تفنيد حملات خصومهم وحجج أعدائهم والعلماء يستخدمون مناهج الملاحظة والتجربة فة معرفة كنه الأشياء . فإن الصوفية يستخدمون الكشف أو الذوق الصوفى طريقا إلى إدراك الحقائق المستترة وراء المحسوس . وهذا الكشف أشبه برومضة سريعة الزوال ويجىء بعد رياضة بدنية ومعاناة نفسية . والمعرفة الصوفية هى معرفة مباشرة لا تحتاج إلى وسائط من مقدمات أو قضايا أو براهين وهى فوق العقل لا يملكها إلا من سلك سبيل التصوف . وقد أطلق أبو حامد العغزالى على هذه المعرفة علم الوراثة وتمثل لديه الفقه فى الدين وقال : لقد تميز الصوفية عن سائر العلماء بعلوم زائدة هى

علوم الوراثة . فمن زهد فى هذه اللدنيا اتسع وادى قلبه فسالت فيه مياه العلوم واجتمعت وصارت أوعية العلم .

المعرفة لا يمكن الوصول إليها بالتعلم
بل بالذوق والحال

إن هذه المعرفة لا يمكن الوصول إليها بالتعلم بل بالذوق والحال وهو نور عرفانى يقذفه الحق بتجليه فى قلوب أوليائه فيفرقون بواسطته بين الحق والباطل من دون أن يعتمدوا فى ذلك التفريق على
كتاب أو غيره .

الركن الثانى : الزهد

والزهد فى الإسلام له مفهوم خاص فهو ليس رهبانية أو انقطاعا عن الدنيا وإنما هو معنى يتحقق به الإنسان يجعله صاحب نظرة خاصة للحياة والدنيا يعمل ويكد ولكنه لا يجعل لها سلطانا على قلبه ولا يدعها تصرفه عن طاعة ربه . ولذلك ليس من شرط الزهد فى الإسلام أن يكون مقترنا بالفقر بل قد يتفق للإنسان الغنى والزهد معا . كان عثمان بن عفان رضى الله عنه وعبد الرحمن بن عوف من كبار الأغنياء ولكهما كانا زاهدين فيما يمتلكان وكانا لا يتوانا فى بذل مالهما فى سبيل الله تعالى ونفع المجتمع وقد عرف أحد الصوفية الزهد الإسلامى بقوله : أن تكون معرضا عما تملك لا أن تكون معرضا عما لا تملك فإن من لا يملك شيئا فيما يكون زاهدا والزهد معناه إرتفاع الإنسان بنفسه فوق شهواتها وهذا معناه أن يتحرر تماما من كل ما يعوق حريته .

الزهد مستمد من أدب القرآن

إن هذا الزهد مستمد من أدب القرآن وسنة النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن الزهد عند النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته ليعنى إنصرافا تاما عن الدنيا وإنما كان يعنى الإعتدال والتوسط فى الأخذ بأسبابها وملذاتها وهذا مشار إليه فى قوله : تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) **البقرة 143**

وفى قوله : تعالى (وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) **القصص 77**

وورد فى الأثر ... "عمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا "
وكان الصحابة رضى الله عنهم نتيجة للزهد أقوياء على أنفسهم فلم يفتنوا بمال أو جاه بل كان يمدهم بطاقات روحية لا حصر لها تعينهم على حياة المجتمع ذاتها فلم يكونوا عبادا للمال أو الجاه أو الشهوات . لذلك حققوا العدالة الإجتماعية فى أسمى صورها .

الزهد فى الإسلام منهج الحياة

إن الزهد فى الإسلام إذا منهج الحياة قوامه التقلل من ملذاتها والإنصراف إلى الجاد من أمورها فتحقق بذلك حرية الإنسان المتمثلة فى إرتفاعه فوق شهواته وأهوائه

بمحض إرادته مع قدرته فى نفس الوقت على تحقيق تلك الشهوات والسير وراء هذه الأهواء ولكن يمنعه من ذلك إيمان قوى بالله تعالى وبثوابه وعقابه فى الآخرة .

الزهد والتصوف

يعد الزهد بمثابة الأب الشرعى للتصوف إذ من غير الممكن أن يوجد التصوف إلا إذا سبقته حركة الزهد لأنه المعرفة الضرورية التى لا بد منها لقيام التصوف واستمراره .

قال : السرى السقطى وهو من كبار الصوفية الأوائل إن الله تعالى سلب الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفيائه وأخرجها من قلوب أهل وداده لأنه لم يرضها لهم وأورد الإمام القشيرى فى رسالته بعض التعريفات للزهد التى تفيد الإيثار بالإنسحاب من الدنياوأمورها مثل قوله : الزهد هو سلو القلب عن الأسباب ونفض الأيدى عن الأملاك وعزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف . ويبلغ التقشف ذروته حينما يقول : لو كان الجوع يباع فى السوق لما كان ينبغى لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره . على هذا الأساس يكون الفقر هو طريق الزاهدين فهو أمر ضرورى إذا أراد السالك السير فى الطريق والوصول إلى منتهاه وهناك بعض الصوفية يرون أن الزهد لا يعنى التجرد من الدنيا دائما وإنما يعنى ألا تستعبد الدنيا الإنسان . فلقد كان الكثير من المتصوفين أغنياء يملكون الثروات ويتصرفون فيها كوكلاء لله تعالى عليها وكثيرا ما يدعون الله تعالى بأن يغنيهم ولا يكتفون بذلك بل يدعون أن يجعلهم ربهم سببا لغنى أوليائه إن الزهد قد يخلق قيما إيجابية فى اتجاه الإنخراط والمشاركة ومقاومة التسلط والفساد . فالزهد فى الماديات من ثروة أو منصب يعنى عدم الخضوع للسلطة التى تقوم بتوزيع الموارد والمناصب وتملك أدوات تضييق أرزاق معارضيها فالزهد على هذا الأساس أكثر قدرة من غيره على المقاومة والتمرد ضد الطغيان لأنه مستغنى عن الشىء الذى يهيمن به على الناس .

الركن الثالث : الولاية

إن الولاية تأخذ عند الصوفية معنى اصطلاحيا خاصا تتميز به عما يفهمه الآخرون منها ويرى الصوفية أن الولى محفوظ

الركن الرابع :وهو المحبة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم

إن محبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم هى البداية عند الصوفية وتقتضى فعل المأمور وترك المحظور وتمتد إلى محبة المتصوفة لبعضهم البعض والتى يحرصون عليها أشد الحرص ومحبتهم لكل المخلوقات لأنها من صنع الحبيب وهو الله عزوجل وتؤدى المحبة إلى شيوع قيمة التسامح بينهم وبين الآخرين . ويقوم التصوف على دعامتين أساسيتان هما الأولى الزهد والثانية العبادة . أو كما قال : بعضهم الزهد وحب الله عزوجل .

سمات الحب فى التصور الإسلامى

يتميز الحب فى التصور الإسلامى بعدة سمات منها الحب الإلهى للإنسان الحب الخالص الإقتران بإفشاء السلام الإرتباط بالتسامح الإسلامى والإيثار والتعبير عنه فى العلانية وهو ما يتطلب توضيحه فيما يلى : -

أولا - الحب الإلهى للإنسان

وهو المعنى المشار إليه فى القرآن الكريم والذى يمثل فى تفضله سبحانه وتعالى على صنف من عباده بخصوصية مجتمعة لأنهم عباد أخلصوا فى عقيدتهم وفى إيمانهم وارتقوا بسلوكهم فوق كل نوازع الشر فاستحقوا محبته إنهم المتقون الصادقون القانتون الخاشعون المقسطون وكل من سار على درب هذه المعانى الإيمانية الطيبة وسلك طريقتهم ليكونوا الأسوة الحسنة لكل من أراد الإقتداء بهم .

حب الله تعالى لعباده له مظاهره

الدالة عليه

الثبات على عقيدة الإسلام لما فى هذا الثبات من دليل على قوة التمسك بها وشدة الحب لها وليصبح المرتدون عنها هم ضعاف الإيمان الذين تركوا طريق الحق وسلكوا طريق الضلال فأنزل الحق سبحانه وتعالى فيهم قوله : الكريم (يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) **المائدة 54**

هم قوم إلتزموا طريق الطاعة ووطنوا أنفسهم عليه فاستحقوا حب ربهم التقرب إلى الله تعالى بالفرائض والنوافل من دواعى محبة الله تعالى لعباده وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قائلا : إن الله تعالى قال : وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه وما يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإن أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه "

ثانيا ـ حب صفات الرحمن وتقديسها

ورد عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا فكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم ويختم قل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سلوه لأى شىء يصنع ذلك فسألوه فقال لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبروه أن الله تعالى يحبه .

ثالثا ـ حب رسول الله صلى الله عليه وسلم واتباع هديه

حب الله عزوجل لعباده يقترن بحبهم لرسول الله لأنه لا ينطق عن الهوى ولأنه مبلغ رسالة الحق إلى الخلق وفى اتباع هديه فوز بمحبته سبحانه لمن آثر الإهتداء وسار على النهج . ولقد أشار الحق سبحانه وتعالى إلى ذلك الحب بقوله : مخاطبا نبيه الكريم (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) **آل عمران 31**

وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغى أن يعلو ويسمو فوق حب النفس والمال والولد كما أشار إلى ذلك عليه الصلاة والسلام فى حواره الشريف مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فإذا تحقق ذلك كمل إيمان المؤمن واقتدى برسول الله الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة فى كل أقواله وأفعاله وأثمر ذلك الحب الثمرة الإيمانية المأمولة .

رابعا ـ الحب الخالص لله تعالى

هو من سمات الحب فى التصور الإسلامى وهو الحب الذى ينتفى غرضه المادى النفعى وهو الذى يرتبط بالغرض الإيمانى العقائدى فعن أنس رضى الله عنه قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ثلاث من كن فيه وجد حلاة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه ما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار **رواه مسلم**

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم رجلان تحابا فى الله إجتمعا عليه وتفرقا عليه . **متفق عليه**
وعنه صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى يقول : يوم القيامة أين المتحابون فى جلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى **رواه مسلم**
وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال : الله عزوجل المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم الأنبياء والشهداء **رواه الإمام أحمد ومالك والطبرانى**

خامسا - الإقتران بإفشاء السلام

من سمات الحب فى التصور الإسلامى إقتراه بإفشاء السلام وهو ما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم
والذى نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم .
إن إفشاء السلام يعبر عن شفافية النفس وصفائها وعلوها فوق كل نزعات إنسانية تكدر صفو الحياة .

سادسا - الإرتباط بالتسامح والإيثار

إن من صفات الحب فى التصور الإسلامى إرتباطه بالتسامح والإيثار وهو المعنى المشار إليه فى موقف الأنصار من مهاجرى مكة وصدق حبهم للمهاجرين القادمين إليهم ما أشار إليه الحق سبحانه بقوله :
(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) **الحشر 9**
وعن البراء بن عازب ... قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله متفق عليه
التعبير عن هذا الحب فى العلانية
وأخيرا – فإن من سمات الحب قى التصور الإسلامى التعبير عنه فى العلانية بإعتباره من عوامل استمراره والإحساس به فى وجدان الإنسان وليكون علاقة مودة فى ربوع الحياة الإجتماعية لا يحيد عن الإحساس بها إلا أصحاب القلوب المريضة والوجدان السقيم وهذه العلانية هى التى أشار إليها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : فيما رواه الترمذى وأبو داود
إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه .

المحبة فى القرآن

ورد ذكر الحب فى القرآن الكريم بمعان مختلفة

قال : تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) **البقرة 165**

وقد احتل مفهوم المحبة مكانة عند المسلمين وبلغ هذا المفهوم شأوا عظيما عند الصوفية على وجه الخصوص .

المحبة عند ابن القيم : إن ابن القيم رحمه الله يجعل المحبة منزلة من بين سبع منازل لقلوب أولياء الله تعالى وقد اعتبر ابن القيم لفظ المحبة أتم الألفاظ التى أطلقها على نفسه وأخبر عنها بأنه سبحانه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلها وأعلاها فيوصف من الإرادة بأكملها وهو الحكمة وحصول كل ما يريد بإرادته كما قال : تعالى (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) **البروج 16**

وبإرادة اليسر وبإرادة الإحسان وكذلك الكلام يصف نفسه منه بأعلى أنواعه كالصدق والعدل والحق . وهكذا المحبة وصف نفسه تعالى منها بأعلاها وأشرفها فقال : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) **المائدة 54**

ولم يصف نفسه بغيرها من العلاقة والميل والصبابة والعشق ونحوها فإن مسمى المحبة أشرف وأكمل .

الله تعالى وحده هو المحبوب

الله تعالى وحده عند ابن القيم هو المطلوب المعبود المحبوب ويقول : فى هذا المعنى اعلم – أن كل حى سوى الله فهو فقير إلى ما ينفعه ودفع ما يضره والمنفعة للحى من جنس النعيم واللذة والمضرة من جنس الألم والعذاب فلا بد من أمرين :-

أحدهما : هو المطلوب المقصود المحبوب الذى ينتفع به ويتلذذ به

الثـانى : هـو المعـين الموصـل المحصـل لـذلك المقصـود والمـانع لحصـول المكـروه والدافع له بعد وقوعه . ويوضح ابن القيم فكرته عن المعبود فيضيف قائلا ها هنا أربعة أشياء : -

الأول : أمر محبوب مطلوب

الثانى : أمر مكروه مطلوب العدم

الثالث : الوسيلة إلى حصول المحبوب

الرابع : الوسيلة إلى دفع المكروه

فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد بل ولكل حى سوى الله لا يقوم صلاحه إلا بها إذا عرف هذا . فالله سبحانه هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له وهو المعين للعبد على حصول مطلوبه فلا معبود سواه ولا معين على المطلوب غيره وما سواه هو المكروه المطلوب بعده وهو المعين على دفعه فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون سواه . وهذا معنى قول : العبد إياك نعبد وإياك نستعين لأن الله الذى يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراما . والرب هو الذى يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله ومصالحه التى بها كماله ويهديه إلى إجتناب المفاسد التى بها فساده وهلاكه . ومما يقرر هذا أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له فبذكره تطمئن قلوبهم وبرؤيته فى الآخرة تقر عيونهم ولا شىء يعطيهم فى الآخرة أحب إليهم من النظر إليه ولا شىء يعطيهم فى الدنيا أحب إليهم من الإيمان به ومحبتهم له ومعرفتهم به .

غاية محبوب العبد ونعيمه
هو محبوب الرب

إن غاية محبوب العبد ومطلوبه وبه سروره ولذته ونعيمه فهو أيضا محبوب الرب من عبده ومطلوبه الذى يرضى به ويفرح بتوبة عبده إذا رجع إليه وإلى عبوديته وطاعته أعظم من فرح من وجد راحلته التى عليها طعامه وشرابه فى أرض مهلكة بعد أن فقدها وآيس منها . وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله تعالى هو عذاب عليه ومضرة وألم فى الحقيقة .

مفهوم المحبة عند ابن القيم

قد بنى ابن القيم هذا المفهوم للمحبة على أصلين : -

الأول : أن الإيمان بالله تعالى وعبادته ومحبته غذاء للإنسان وقوته وصلاحه وقوامه بل أوامر المحبوب قرة العيون وسرور القلب ونعيم الأرواح ولذة النفوس فقرة عين المحب فى الصلاة والحج وفرح قلبه وسروره ونعيمه فى ذلك وفى الصيام والذكر والتلاوة وأما الصدقة والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الله تعالى والصبر على أعداء الله سبحانه فاللذة بذلك أمر آخر لا يناله الوصف ولا يدركه من ليس له نصيب منه .

ثانيا : كما النعيم فى الدار الآخرة يكون برؤيته وسماع كلامه وقربه ورضوانه وفى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم أسألك لذة النظر إلى وجهك .

تعريفات المحبة

يرى ابن القيم أن تعريفات المحبة لا تعطى تصور حقيقة المحبة فقيل : المحبة هى ميل القلب إلى محبوبه . وهذا الحد لا يعطى الحقيقة لأن المحبة أعرف عند القلب من الميل كما أن الميل لا يدل على حقيقة المحبة . فإن المحبة أخص من مجرد الميل بالقلب إذ قد يميل قلب العبد إلى الشىء ولا يكون محبا له لمعرفته بمضرته له .

وقيل : المحبة علم المحب بجمال المحبوب ومحاسنه . وهذا تعريف قاصر لأن العلم بجماله ومحاسنه هو السبب الداعى إلى محبته فعبر عن المحبة بسببها.

وقيل : المحبة تعلق القلب بالمحبوب أو الصبابة إليه أو سكونه إليه .

وقيل : المحبة بذل المجهود فى معرفة محبوبك وبذل المجهود فى مرضاته .

وقيل : إنه هيجان القلب عندة ذكر المحبوب .

وقيل : هى شجرة تنبت فى القلب يسقى بماء المراقبة وإيثار رضى المحبوب .

وقيل : المحبة حفظ الحدود . أى أنه لا يعد صادقا من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده

وقيل : المحبة هى فطام الجوارح فى استعمالها فى غير مرضاة المحبوب .

وقيل : المحبة سقوط كل محبة من القلب سوى محبة حبيبك .

وقيل : المحبة هى صدق المجاهدة فى أوامر الله تعالى ووتجريد المتابعة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : فى المحبة حدود أكثر من هذا وكل هذه الحدود لا تستطيع أن تفى بمعناها ومقصودها ولا توصف المحبة ولا تحد بحد أوضح من المحبة ولا أقرب إلى الفهم من لفظها . وكل معنى من معانى المحبة فله صيغة تعبر به عنه وليس للمحبة صيغة تعبر بها عن حقيقتها . بمعنى أن لفظها لا يفهم حقيقة معناه ومعناها فوق ما يفهم من لفظها . لقد فطر الله عزوجل القلوب على محبة المحسن الكامل فى أوصافه وأخلاقه وإذا كانت هذه فطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها قلوب عباده . يقول ابن القيم فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحسانا منه سبحانه وتعالى يبطلان متعلقها وكل ما سوى الله باطل . وإذا تعقلت المحبة بوجود محدث الكمال فى وجوده بالنسبة إلى غيره فإن الكمال كله لا يكون إلا لله عزوجل وكل من أحب شيئا لكماله وما يدعوا إلى محبته فهو دليل وعبرة على محبة الله تعالى . فيجب أن لا تكون هناك نسبة بين محبته ومحبة غيره من الموجودات له بل يكون حب العبد له سبحانه وتعالى أعظم من حبه لكل شىء بما لا نسبة بينهما ولهذا قال : سبحانه وتعالى **(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا) البقرة 165**

فالمؤمنون أشد حبا لربهم ومعبودهم من كل محب لكل محبوب وهذا مقتضى عقد الإيمان الذى لا يتم الإيمان إلا به .

المحبة المشتركة ثلاثة أنواع

أشار ابن القيم إلى الرأى القائل بأن المحبة ثلاثة أنواع : -

الأولى : محبة طبيعية مشتركة كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء وغير ذلك وهذه لا تستلزم التعظيم

الثانية : محبة أنس وإلف وهى محبة المشتركين فى صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر بعضهم بعضا وكمحبة الإخوة بعضهم .

فهذه الأنواع الثلاثة هى المحبة التى تصلح للخلق بعضهم من بعض ووجودها فيهم لا يكون شركا فى محبة الله جل وعلا .ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل وكان أحب الشراب إليه الحلو البارد وكان أحب اللحم إليه الذراع وكان يحب نساءه وكانت عائشة رضى الله تعالى عنها أحبهم إليه وكان يحب أصحابه .

المحبة الخاصة لا تصالح إلا لله عزوجل

إن المحبة الخاصة فهى التى لا تصلح إلا لله تعالى وحده ومتى أحب العبد بها أى بالمحبة الخاصة غيره كان شركا لا يغفره الله تعالى فهى محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة وإيثاره على غيره . فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله تعالى أصلا .

الحب الإلهى

يتفق المسلمون على إختلاف مذاهبهم وأفكارهم على أن الله تعالى هو المحبوب الأول **يقول : ابن مسكويه** فى الإطار الفلسفى للمحبة الإلهية . وأصل هذه المحبة الجوهر البسيط الإلهى الموجود فى تركيب الإنسان وإذا صفا هذا الجوهر الإلهى فى الإنسان من كدوراته التى تحصل فيه من ملامسة الطبيعة وإذا لم تجذبه أنواع الشهوات إشتاق إلى شبيهه ورأى بعين عقله الخير الأول المحض الذى لا تشوبه مادة فأسرع إليه وحينئذ يفيض نور ذلك الخير الأول عليه فيتلذذ به لذة لا تشبهها لذة .

فضائل المحبة الإلهية

أنها لا تقبل النقصان ولا تقدح فيها السعادة . ويضيف ابن مسكويه بأن محبة العبد لخالقه هى المحبة التى لا تشوبها الإنفعالات ولا يطرأ عليها الآفات ولا تخلص هذه المحبة إلا للعالم الربانى الذى يدرك ضرزب إنعام الخالق عليه ووجوه إحسانه المتصلة به فى بدنه ونفسه . وهذه المحبة تتصل بها لا محالة الطاعة والتعظيم فالحق الواجب الذى لا مرية فيه لا يحبه إلا السعيد الخير من الناس الذى يعرف السعادة والخير بالحقيقة . فلذلك يتقرب إليه ويطلب مرضاته بقدر طاقته ويتقبل أوامره بنحو استطاعته ومن أحب الله تعالى هذه المحبة وتقرب إليه هذا التقرب وأطاعه هذه الطاعة أحبه الله تعالى وقربه وأرضاه واستحق خلته التى أطلقتها الشريعة على بعض البشر حيث نالها إبراهيم خليل الله جلا وعلا .

المحبة الإلهية عند الصوفية هى أصل جميع المحبات

تعتبر المحبة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم أول طريق التصوف ويطلق عليها المحبة الأصلية والحب هو أشهر الأحوال التى يجب به نفس الصوفى وقلبه .

يقول : الغزالى فى المحبة الإلهية

ومن أحب غير الله تعالى لا من حيث نسبته إلى الله تعالى فذلك لجهله وقصوره فى معرفة الله سبحانه وتعالى وحب الرسول صلى الله عليه وسلم محمود لأنه عين حب الله تعالى وكذلك حب العلماء والأتقياء لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب وكل ذلك يرجع إلى الأصل فلا محبوب عند ذوى البصائر إلا الله سبحانه .

الصوفية تحدثوا عن الحب الإلهى
بلغة أذواقهم

إذا كان الصوفية قد أخذوا الحب الإلهى كغيرهم من المسلمين من قوله : تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) **آل عمران 31**

فإنهم تحدثوا عن هذا الحب بلغة أذواقهم وأن يكون هذا الحب للحب فحسب لا لأجل شيء آخر . فحب الله تعالى عبد السيدة رابعة العدوية حب بذكره وحده وحب لأن الله تعالى أهل لذلك الحب .

حال الحب : وقد وصف الإمام الجنيد حال المحب بقوله : عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأدائه حقوقه ناظر إليه بقلبه أحرق قلبه نا هويته وصفا شربه من كأس وده وانكشف له الجبار من أستار عينه فإن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله فهو بالله ولله ومع الله . وهكذا أصبحت محبة الله تعالى سبيلا إلى معرفته أو صارت معرفة الله تعالى منطلقا لمحبته .

المحبة والمعرفة عطاء من الله تعالى

إن ابن الفارض يجعل المحبة والمعرفة عطية من الله تعالى وهما يشتركان بمعنى واحد وبصورة واحدة .

التصوف على حقيقته الكاملة : هوحرية الضمير فى الإيمان باللهعلى الحب والمعرفة إن بلوغ هذه المرتبة هو فضيلة فى الإسلام الذى أطلق ضمير الفرد من عقال السيطرة الروحية ويسر له أن يلوذ بسريرته هذا الملاذ الأمين الذى لا يداخله فيه حسيب أو رقيب غير حسيبه ورقيبه بين يدى الله سبحانه ولا غنى عن مثل هذا الملاذ فى زمن من الأزمنة ولا فى جماعة من الجماعات .

إن المجتمع الإسلامى أحق بالتصوف وأولاه بحرية الضمير التى يسمو إليها الإنسان كلما آثر لنفسه الإيمان بالله تعالى على الحب والمعرفة ولم يقنع بحظ الثواب والعقاب لأن الإسلام يأبى له الرهبانية ولا يرضى له بعض المذاهب الوجودية فى عصره الحاضر إن الإسلام يفتح لضمير الفرد مسلكا واسعا غير الرهبانية وغير الوجودية بما فيها من خير وشر ويقيم له صومعته فى أعماق نفسه ولا حدود لها غير الكون بما وسع من سماوات وأرضين . ولا جرم أن وسعت سماحة الإسلام عقائد الصوفية وهم فى رحابه الفسيحة لا يفارقونها ولا يعتزلون دنياهم حيثما أتوا إليها وإن الإسلام قد وضع التصوف موضعه الذى يصلح به ويصلح من يريده فليس هو بواجب وليس هو بممنوع ولكنه ملكة نفسية موجودة فى بعض الطبائع لازمة لمن وجدت فى طبائعهم وألزم ما تكون لهم حين تفترق مقاييس الأخلاق ومعايير القيم الروحية بينهم وبين مجتمعاتهم فإن الفرد إذا افترق ما بينه وبين مجتمعه من هذه القيم تجنبه بالرهبانية ولا رهبانية فى الإسلام أو صاغ فضائله على وفاق ضميره وهو مقيم فى مجتمعه لا حسيب عليه بينه وبين ربه وتلك هى شريعة الإسلام الذى لا سلطان فيه لمخلوق على مخلوق فى طاعة الله . ومهما تكن للنفس الإنسانية من ملمة خلقية أو روحية فتلك أمانة لا تفريط فيها ولا خير فى المجتمع الذى يفرط فيها ويسلمها للضياع وقد يجوز إحياء الملكة الصوفية على ملكات أخرى كما يجوز التخصص فى

كل قدرة على غيرها من عوامل القدرة فى الطبائع والعقول ولكنها لازمة التخصص التى لا فكاك منها . فإما التخصص والإحتفاظ وإما الإهمال والإنقطاع وليس فى التخصص إيجاب شىء واستنكار شىء وإنما هو سبيل التعميم والإستفادة من كل ملكة فى الذهن والذوق والروح ولا يوجب الإسلام التنسك على جميع المسلمين لأن أناسا منهم تخصصوا له وفضلوه على مطالب الروح أو مطالب الجسد الأخرى ولكنه يجيزه بالقدر وهو القدر الذى لا غنى عنه فى تدبير حياة الإنسان . فالملكات الإنسانية أكثر وأكبر من أن ينالها إنسان واحد ولكنها ينبغى أن تنال فكيف يمكن أن تنال ؟

إنها لا تنال إلا بالتخصص والتوزيع ولا يتأتى هذا التخصص أو هذا التوزيع إذا سوينا بينهم جميعا فى التحصيل و ألزمنا كل أحد أن تكون له أقساط منها جميعا على حد سواء ولا نقصر القول هنا على الملكات العقلية أو الروحية التى لا يسهل إحصاؤها ولا تحصيلها ولمن نعم به هذه الملكات ومعها ملكات الحس والجسد وهى محدودة متقاربة فى جميع الناس . فهذه الملكات الجسدية فضلا عن الملكات العقلية الروحية قابلة للنمو والمضاعفة إلى الحد الذى لا يخطر على بال ولا نصدقه إلا إذا شهدناه .هذه الملكات الجسدية المحدودة وهذه هى آماد الكمال الذى تبلغ إليه بالتخصص والمرانة والتوزيع . فما القول إذا حكمنا على الناس جميعا أن يكسبوا أعضائهم ملكة من هذه الملكات ؟ إننا نخطىء إيما خطأ ونعطلهم به عن العمل المفيد . ولكننا نخطىء كذلك إذا حجرنا على إنسان لأنه أنفق ملكة من هذه الملكات الجسدية ولو جار فى نفسه على ملكات أخرى يتقنها الآخرون فإذا كنا قد جاوزنا بالقوى الجسدية حدودها المعهودة بالمرانة والتخصيص فما الظن بالقوى الروحية أو العقلية وهى لا تتقارب فى الناس هذا التقارب ولا تقف عند هذه الحدود . وإذا كان طالب القوة الروحية يؤثرها على جسده فلماذا نلومه وننعى عليه ولا ننعى على الآخر فى فنون العقل أو على الكمال فى مطالب الروح .

الباب الثالث

العقل
وفريضة التفكير والتأمل فى الإسلام

لما كان من مهمة العقل التفكير والتأمل والفهم والإستيعاب وصولا إلى الحقائق فإن رسالة المنهج االإلهى هى تبيان المعالم والمظاهر الازمة للتفكير العقلى فضلا عن كونها توجيها للعقل الوجهة الرشيدة فى انتقاء معطيات التفكير وأساليب تناولها واستقامة مقصدها وهدفها .وبذلك يصبح هذا المنهج عاصما للعقل من ارتياد مجاهل التيه والضلال لقوله : سبحانه (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

آل عمران 101

وإن التأمل والتدبر فى المنهج الإلهى فضلا عن كونه منهج حياة فإنه فى نفس الوقت ميدان لتوظيف طاقات العقل وقدراته فى مكان آمن يساعد على ارتياد طريق الصواب إهتداءا بقوله : سبحانه وتعالى

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) **يونس 108**

إن فى هذا النداء الإلهى إعلام وتوجيه للعقل أن يختار طريقه فى التفكير بإرادته الحرة متحملا تبعة إختياره ولقد ارتضى المنهج الإلهى للعقل أن يقف وقفة تفكر وتأمل أمام حقائق هذا المنهج ومن هذه الحقائق التى ارتضاها المنهج الإلهى للتفكر والتأمل العقلى ما يلى : -

أولا – إن يقف أمام إكمال الدين

وأن تكون هذه الوقفة التأملية تدرك أن رسل الله جميعا على امتداد الفترات والأزمنة التاريخية المتعاقبة قد أرسلوا إلى أقوام بعينهم فى فترة زمنية معينة وأن كل رسالة من رسالات السماء قد أرسلت إلى جماعة معينة فى فترة زمنية معينة ثم شاءت الإرادة الإلهية أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين وأن تكون رسالته هى الرسالة الخاتمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

إن رسالة الإسلام رسالة عامة إلى البشر جميعا بجميع أجناسهم وطوائفهم وهى رسالة عامة فى مقصدها وقواعدها الشرعية بحيث تكون صالحة لجميع الأجناس والبيئات والأزمنة لقوله : سبحانه وتعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ) **المائدة 3**

ثانيا – الوقوف أمام إتمام النعمة

وهى نعمة إكمال الدين وصلاحية قواعده ومبادئه من أجل الإرتقاء بالحياة الإنسانية ما شاء الله أن تمتد هذه الحياة ، ولن يستطيع الإنسان إدراك هذه النعمة حق قدرها إلا إذا وقف متأملا ومتدبرا لما كان يقع فى الحياة الجاهلية من مظاهر الضلال والبغى والإنحراف وانحدار القيم .

ثالثا – الوقوف أمام إختيار الإسلام دينا

إنه إختيار إلهى إنه إختيار الحق سبحانه وتعالى للإسلام دينا ومنهاجا وشريعة للبشر أجمعين .

إن هذا الإختيار فى حقيقته ومراميه يعنى الكثير من المعانى والدلالات يعنى تكريم الأمة العربية وشمولها بعظيم التقدير ولا شك فى أن الوقفة التأملية العقلانية أمام هذا الإختيار سوف تدفع الإنسان إلى التمسك بهذا الإختيار الإلهى وإلى الإعتزاز به وإلى العمل بمقتضى قواعده .

العقل الرشيد شرط ضرورى
للتكليف الإلهى

إن العقل الرشيد شرط ضرورى للتكليف الإلهى وأن من حرم القدرة العقلية لا يكلف التكاليف الشرعية والدينية ، لذلك أوجب المنهج الإلهى ضرورة بلوغ العقل رشده حتى يكون قادرا على إستقبال معطيات وتكاليف هذا المنهج .

الإسلام والعقل الرشيد

الإسلام والعقل البشرى إن لمكانة العقل فى الإسلام أشار القرآت الكريم إليها مقررا أن سلوك الإنسان على هدى رؤيته وتفكيره العقلى واجب وأن رجوع الإنسان إلى عقله عند استجاباته وتصرفاته أفضل وأن تفكيره وفق قدراته العقلية فى إطار المنهج الإلهى يعتبر من مراتب العبادة . وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد كرم الإنسان وفضله على شسائر المخلوقات فإن محور هذا التكريم يرتكز على قاعدتين : -

الأولى – تزويده بالفطرة النقية التى ترشده وتعينه على اتباع هذى خالقه

الثانية – العقل والفهم الذى يمكنه من أن يتبين طريق الهدى من طريق الضلال .

الإنسان فطر على التوحيد

إن الإنسان بتكوينه قد فطر على التوحيد لمن خلقه ولمن أوجده من العدم إنها فطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها منذ أن كان فى أصلاب الأجداد والآباء يوم أن خلق

الله تعالى آدم عليه السلام . لذلك كان كفر الإنسان بخالقه سترا لفطرته واسدال ستائر الجحود والنكران عليها بما يخالف فطرته لأنه وجهها للسير فى الطريق المضاد لوجهتها السليمة . كما أن الإنسان بعقله وقدرته على الإستيعاب يستطيع أن يختار ما فيه رشده وهداه وأن يقبل على خالقه وأن ينقاد إليها إنقيادا مخلصا صادقا .

العقل البشرى مفهومه ومعناه

قال : عنه العقاد إن العقل فى مفهومه العام ملكة يناط بها الوازع الأخلاقى وهو بهذا المعنى يحول بين الإنسان وبين الوقوع فى المحظور والمنكر . والعقل مشتق من مادة عقل وهى التى يؤخذ منها كلمة العقال أى القدرة على التحكم . لذلك ينظر إليه العقاد على أنه ملكة مدركة ملاتبطة بالقلب والرأس .

ويقول : عنه الشيرازى ... إنه صفة يميز بها الإنسان بين الحسن والقبيح .

وقد – ورد ذكره فى القرآن الكريم بمفردات مختلفة مثل كلمات يعقل وتعقل ويعقلون وقوله : سبحانه (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) **النحل 67**

وكذلك ورد بشأنه مسميات كثيرة تتضمن العديد من المعانى فقد ورد ذكره بمعنى اللب وهو الشىء الخالص النافع الذى لا بد منه وأصحابه هم أولوا الألباب لقوله : سبحانه (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) **آل عمران 190**

كذلك ورد بمعنى القلب والفؤاد وقلب الشىء أهم ما فيه والفؤاد مسئول عن إدراكه كما أن البصر مسئول عن إبصاره كما جاء فى قوله : سبحانه (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ) **الأعراف 179**

أيضا قوله : سبحانه (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) **الإسراء 36**

كذلك ورد بمعنى الحلم والنهى والحلم هنا يعنى التأنى والتدبر والفكر وأصحاب النهى وهم الذين يتأملون الظواهر الكونية والإنسانية وهم الذين ينتهى إليهم الرأى لخبرتهم ورأيهم الراجح وهم أيضا الذين ينتهون عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن لقوله : سبحانه (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) الطور 32

وأحلامهم تعنى عقولهم وأيضا لقوله : سبحانه

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى) **طه 54**

اى أصحاب العقول الرشيدة ويعتبر العقل تكوينا فرضيا يعرف بأثره وهو التفكير والعقول هى الموازين التى يبحث عن الحق لتعرف به حقائق الأمور فبالعقل تتم معرفة الحق من الباطل والحلال من الحرام وعنه يقول : ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد

إنه النور الذى يدفع الإنسان إلى الهدى ويبعده عن الروى

وقال : عنه بعض الحكماء ... ما عبد الله تعالى بشىء أحب إليه من العقل

وسئل أعرابى ... أى شىء أدل على عقل العاقل قال حسن التدبير . وسئل أى منافع العقل أفضل قال : اجتناب الذنوب . وسئل عن العاقل ماذا يعرف قال : إذا نهاك عقلك عما ينبغى فهو عاقل .

وروى عن سليمان الحكيم عليه السلام

أنه قال : ما ارتدى العبد رداءا أفضل وأجمل من رداء العقل إن إنكسر جبره وإن ذل عزه وإن إعوج أقامه وإن عثر رفعه وإن إفتقر أغناه وإن إنكشف ستره .

وسئل ابن عباس رضى الله تعالى عنه

أنى لك هذا العلم قال : قلب عقول ولسان سئول . فبالعقل يفكر الإنسان ويتدبر ويقارن ويختار ويعمل إنه أشرف المخلوقات ومنبع العلم الذى لا ينضب . لذلك تجدر الإشارة إليه فى هذا السياق إلى الإرتباط الوثيق بين العقل والقلب فلا غناء لأحدهما عن الآخر حتى وإن تمثل هذا الإرتباط فى وحدة التسمية اللفظية وفوق ذلك فإن العقل مسئول عن المدركات والقلب مسئول عن اليقين وهما معا من دلائل صدق الإيمان كما أنهما جوهرتان متلازمتان للإنسان .

العقل الرشيد مفهومه وخصائصه

العقل كما يصفه الإمام أبو حامد الغزالى

هو أنموذج من نور الله تعالى لأنه الذى يبدد ظلمات الجهل أمام الإنسان وينير له طريق العلم والمعرفة .

كما يصفه الجاحظ بأنه وكيل الله تعالى عند الإنسان والعقل فى كل الأحوال نعمة من نعم الله تعالى على الإنسان وهو جوهر إنسانيته وهو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة وهو المعول عليه فى الإيمان بالله تعالى وعلمه وقدرته والتصديق برسالته والمؤمن الكامل الإيمان هو الذى عقل دينه وعرفه بنفسه واقتنع به .

سمات العقل الرشيد وخصائصه

هو آداة التفكير الذى يستطيع الإنسان بواسطته أن ينقب ويفهم ويدرك العلاقات بين الظواهر المختلفة ويدرك الأسباب والمسببات ويكتشف القوانين التى تحكم الكون وهو الذى يستطيع بواسطته أن يبتكر ويخترع ويضيف الجديد من أجل خير الإنسان . إنه الذى يؤثر بالتفكير فى موجوداته وآفاته ويؤثر النفس بخصائصها ومكوناتها ويؤثر الكتاب الكريم بآياته ليكون ميدان تفكيره إنه القادر على أن يعطى ويثرى الحياة الإنسانية .

فصل

الإسلام والعلم

لقد حث الإسلام العقل البشرى على الإقبال على التعلم وعلى أن يفكر ويتدبر حتى يعود عليه ذلك التعلم بالخير العميم ويزداد إيمانا بخالقه عزوجل وإلتزاما بمنهجه لذلك كانت أول آيات القرآن الكريم نزولا على الإنسان إقرأ إنها أمر من الله تعالى للإنسان أن ينظر فى كل شىء حوله ليتأمل ويتدبر فليس المقصود بهذا التوجيه الإلهى مجرد معرفة القراءة والكتابة ولكن أن يعقل الإنسان أمور حياته وألا يكون صاحب نظرة عابرة وأن يستخدم بصره وبصيرته فى تعقل الآيات والظواهر الكونية والحياتية إهتداءا بقول : الحق سبحانه وتعالى

(انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) **الأنعام 65**

أى أن البصيرة التى يعرف الإنسان من خلالها الأشياء ومدركاتها ويتوقف عند التقدير الإلهى لخلقها . ولأن هدف القراءة هو اتساع آفاق العلم والمعرفة الإنسانية .

لقد دعا الإسلام إلى العلم بصورة غير مسبوقة فى أى كتاب أودين سماوى آخر وذلك عندما أقسم الحق سبحانه وتعالى بالقم ولا شك أن العلم يتطلب القراءة والكتابة والمداد والصحف ولا بد لكل هذه المعطيات من عقل يفهم ما يقرأ حتى يخرج من ظلمات الجهل إلى نور العلم وصدق قول : الحق سبحانه عندما أشار إلى هذه المعانى بقوله : الكريم (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) **العلق 1 – 5**

ولقد خاطب القرآن جميع مستويات العقل البشرى مخاطبة تتناسب وقدراتها وكافة مستوياتها : -

أولا – خاطب العرب الذين كانوا يعيشون حياة البداوة يرعون فيها الإبل والغنم ويشكل الجمل أهمية كبرى لهم لذلك خاطب القرآن الكريم العرب وذكرهم بالجمل الذى هو محور حياتهم من الذى خلقه قال : سبحانه (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) **الغاشية 17**

إنها نظرة التأمل والتدبر ثم الإقناع الذى يحقق صادق الإيمان واليقين والإعتقاد .

ثانيا – خاطب العلماء على كافة مستويات تخصصهم ودعاهم إلى البحث والتأمل فى السماء وكيف سير الكواكب فيها والسحب وكل فى فلك يسبحون وخاطبهم بالبحث فى الأرض وفى الجبال من أجل استخراج خيراتها .

ثالثا – خاطب العلماء بأن تكون تقوى الله هى أساس علمهم الضابط وهو العلم النافع الذى يخدم البشرية وأن يكون الخلق هو المعيار الضابط للعقل من الشطط وهو سبحانه القائل (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) **البقرة 282**

وهوسبحانه الذى يرفع العلماء درجات في الدنيا بصدق إيمانهم لقوله : سبحانه **(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) المجادلة 11**

كما أنه سبحانه أنزل العلماء منزلة لا يصل إليها غيرهم من البشر من حيث خشيتهم من الحق سبحانه وتعالى لأنهم الأقدر على المعرفة بعظمة الخلق والإيجاد والتقدير الإلهى المحكم فقال : سبحانه (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) **فاطر 28**

كما قرن سبحانه شهادة توحيد العلماء بالألوهية مع شهادته سبحانه وشهادة الملائكة المكرمين بقوله : سبحانه (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) **آل عمران 18**

الدين هاديا وسيظل هاديا للصراط المستقيم

لما كان العقل معرضا للخطأ مثلما تخطىء الحواس لذلك أصبح الدين هاديا وسيظل هاديا للعقل من كل مسببات تؤدى إلى الخطأ والموجه له إلى الصراط المستقيم هاديا له فى أمور الحياة التى تتعلق بالغيبيات والسمعيات وأمور العقيدة والإعتقاد . فإذا كان العقل هو الذى يفكر فإن الدين بقيمه وتعاليمه هو الذى يوجه هذا التفكير وجهة الخير والنفع العام .

الشرع كاف لتحديد معانى الخير والشر

إن الشرع لكاف لتحديد معانى الخير والشر والرذيلة والفضيلة والقواعد الأخلاقية والقيمية وبذلك تبرز أهمية الدين بالنسبة لدور العقل ليصبح العقل الرشيد .

نزول الوحى تكريم للإنسان

إن كلمة إقرأ هى خطاب للعقل وفى نفس الوقت شرف للإنسان لأن مجرد نزول الوحى هو فى حقيقته تكريم للإنسان لأن من لا يملك عقلا لا يستطيع أن يقرأ وأن من مظاهر تكريم الحق سبحانه وتعالى للإنسان أنه هو الذى تولى تعليمه وعلمه ما لم يكن يعلم فهو الذى خلقه وهو الذى علمه البيان .

العقل والنقل فى الإسلام

من المسلمات أن كل فكرة وكل علم لا يولد من فراغ فكل فكرة تستمد جذورها من الأفكار السابقة عليها وكل علم يستمد جذوره من الحقائق الثابتة التى تم التوصل إليها وهكذا يستمر البناء الفكرى والعقائدى فى صورة عطاء متجدد يبنى على أساس ميراث فكرى وعلمى متأصل تاريخيا ، وعلى أساس هذه المسلمات يتحدد دور كل من النقل والعقل :-

أولا – دور العقل

فدور العقل من خلال معطيات النقل لما ثبت من أفكار وكل نقل لا يتحقق إلا من خلال مهمة عقلية ، لذلك عندما يفكر لا يفعل ذلك من فراغ أو أنه يفكر خارج الميراث الثقافى من خلال عملية التفكير يضيف ويجدد من خلال إعادة تنظيم المعارف والمعلومات والبيانات المتاحة وصولا إلى أفكار جديدة ، لهذا لا يمكن إنكار ددور النقل وفى نفس الوقت لا يمكن تصور وجود عقل يعمل فى فراغ معرفى .

العلاقة بين النقل والعقل : لكل من النقل والعقل مجاله ووظيفته فالنقل يكون للثوابت والأصول ووظيفته الأساسية المحافظة على الثوابت والحفاظ على العقيدة والتمسك بالأصول ومن هذه المعطيات جميعها يتحقق الإستمرار الحضارى وإذا فالنقل يفيد فى الربط التاريخى وتواصل الأجيال وتحقيق الإستمرار الحضارى حتى تستمر القيم فى كونها الضوابط التى تحكم السلوك الإنسانى . إن النقل يعنى استمرار المقدس فى حياة الشعوب والأمم وبدونه يكون النقل من كتاب مقدس أو من ميراث حضارى بشرى .

دور العقل : أما العقل فتكون وظيفته هى دراسة الظروف والمتغيرات ودراسة الأساليب المرتبطة بالزمان والمكان والتى تتغير بتغير الظروف ، وإذا فإنه من خلال العقل نستجيب للمتغيرات ونجدد الحياة ، وبذلك يرتبط دوره ووظيفته بالتجديد الذى يحافظ على مسيرة التقدم الإنسانى .

التوازن بين النقل والعقل

النقل يكون للنص المقدس الذى تؤخذ منه قيم العقيدة والمبادىء التى تحكم حركة الحياة الإنسانية ثم يأتى دور العقل فى التطبيق حسب متغيرات الزمان والمكان فإذا كان النص المقدس يحدد دور القيم فإنه يترك مجال التطبيق وأشكال التطبيق لدور آخر وهو دور العققل ، وبذلك يتحقق دور العقل فى تطبيق القيم من أنماط سلوكية فى

واقع الحياة ، وإذا فبدون النقل نخرج عن القيم الدينية والحضارية وبدون العقل نعجز عن تطبيق تلك القيم فى حياتنا السلوكية .

الوسطية تعنى التوازن بين النقل والعقل

إن الوسطية كقاعدة إسلامية تعنى التوازن بين النقل والعقل بهذ الحفاظ على دورهما فكلاهما ضرورى لإستمرار الحياة الإنسانية وفكرة التوازن بين النقل والعقل تعنى أن المقدس الدينى يحدد القيم التى تحكم السلوك الإنسانى وتترك شكل التطبيق الحياتى لهذه القيم والمبادىء حسب ظروف الزمان والمكان إلى الدرو الرئيسى للعقل إن النص المقدس يحتاج إلى العقل ليطبق ما تم نقله من الكتاب فبدون النقل نخرج عن القيم الدينية والأخلاقية وبدون العقل نعجز عن تطبيق تلك القيم فى واقع الحياة المعاشة ومن الملاحظ أنه إذا تم الإفراط فى الإعتماد على نقل المقدس وحده وأيضا النقل عن السلف الصالح وإغفال دور العقل بحيث يعلق دوره عن مواكبة الظروف الحياتية المتغيرة فإن ذلك سوف يؤدى إلى الجمود كذلك فإن الإعتماد على العقل وتحجيم دور النقل ، فإن ذلك سوف يؤدى إلى الخروج على الثوابت إذا فالوسطية هى التى توازن بين دور النقل والعقل وهو توازن وظيفى أى يرتبط بوظيفة كل منهما بحيث يتم النقل فى مجاله ويعمل العقل فى مجاله .

أيضا – فيحدث التوازن الوظيفى بين النقل والعقل ويتحقق التمسك بالأصول والثوابت ويتم التجديد فى آن واحد .

تتحقق الأصالة بالنقل ويتحقق
التجديد بالعقل

هكذا تتحقق الأصالة بالنقل ويتحقق التجديد بالعقل وبقدر التوازن بينهما يتحقق الإستقرار للهوية الحضارية ويتحقق التجديد الملائم للظروف الحياتية المتغيرة إن التلازم بين كل من النقل والعقل هو الذى يحقق منظومة الحياة المتكاملة فقد تكون الفكرة أصيلة وجديدة لكنها لا تتلائم مع ظروف الواقع الراهن وإعمال العقل يعنى أن يتم إختيار الأفكار الجديدة على محك الواقع وذا الإعمال يعنى عملية تجديد مستمرة تتلائم مع الواقع الحياتى لذلك فإننا دائما فى حاجة إلى إحياء أصول العقائد والتقاليد الإسلامية فتم علينا الإستفادة من تجارب الماضى والحاضر حتى يتم نقل المعرفة المتوازنة وأن نتعلم من الآخرين ونستفيد من خبرتهم وعلمهم بإعتبار أن ذلك فى حد ذاته عملية نقل وبذلك تتعدد مستويات النقل بحيث يكون بعضها ملزما فيما يخص الأصول والثوابت الدينية والقواعد الأخلاقية والقيمية والبعض الآخر غير ملزم فيما يخص تجارب الآخرين وتجاربنا ثم يأتى دور العقل ويحدد لنا المناسب ويحدد ما يلائمنا من تجارب الآخرين ثم يوظف هذه المعارف والخبرات المتاحة فى صياغات جديدة ملائمة .

التوازن بين النقل والعقل القائم على الوسطية تبدأ عملية النهوض

تبدأ عملية النهوض بالتوازن بين النقل والعقل القائم على الوسطية والإعتدال وتبدأ عملية التجديد للنهوض بالواقع المعاش وعملية التجديد هذه تتطلب إنتقاء المناسب للمجتمع والمناسب للحظة الراهنة والحياة المعاشة ومن ثم يصبح التجديد المناسب للناس هو التجديد القائم على الإنتقاء الإختيارى وفى هذا السياق تبرز أهمية الفقه

الدينى بإعتباره فقد الواقع وفهمه فهم فقه الأصول والعقائد الأساسية ويعتبر كذلك فقد تجديد طرق الحياة بحبيث يكون بين الأصول ولها ثم تقديم ما يلائم الواقع وينهض به وبذلك يصبح التجديد هوالإلتزام بالأصول العقائدية والأخلاقية والحضارية وأن يكون مرتبط بتراكم التجارب البشرية المختلفة وأنتقاء المناسب منها ليكون الإتزان بينهما هو أساس التجديد المستمر لواقع الحاضر المعاش وفى نفس الوقت تتحقق الأصالة والمعاصرة وهذا هو منهج الإسلام بإعتبره منظومة حياة .

فصل

الإسلام والقلب التقى

إن الإنسان من حيث تكوينه البشرى قلب وعقل وروح وجوارح قلب يعبر به عن مشاعره وأحاسيسه وعقل يفكر به ،ويتأمل ويتدبر وجوارح تنبض بالحياة وتعمل بالقلب والعقل معا تنتظم حركة الإنسان فى الحياة وبهما معا تستقيم جوارح الإنسان فى حركتها على طريق الحق القويم والقلب جوهرة لطيفة ربانية أودعها الله تعالى فى الإنسان لتكون هادية ومرشدة .

التقوى والقلب التقى

التقوى من حيث مفهومها ومعناها تعنى أن يجعل الإنسان بينه وبين ربه صلة وثيقة تتضمن الإمتثال لخالقه جلا وعلا فى أوامره ونواهيه وهى زاد القلوب المؤمنة وهى أمر الله تعالى ووصيته للأولين والآخرين وهى خير ما يتزود به الإنسان فى حياته وهى جماع الخير كله .

حقيقة التقوى ومقصدها

أولا – هى أمر لعباده المؤمنين

قال : تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) **الحشر 18**

وقوله : سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) **آل عمران 102**

ثانيا – هى وصية الله لأهل الكتاب والتابعين

لقد وصى بها سبحانه وتعالى أهل الكتاب من قبل بأن يتقوا الله وأن يتقربوا إليه بالطاعة والعبادة لتكون التقوى هى الكفيلة بصلاح القلوب والكفيلة بصلاح الأحوال فقال : سبحانه (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ) **النساء 131**

ثالثا – هى دعوة لوقاية النفس والأهل

هى وقاية النفس بالأعمال الصالحة وذلك بإتباع منهج التقوى وإلتزام طاعته والإنتهاء عن معصيته قال : تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ

اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)
التحريم 6
كما أنها تحذير من عواقب المخالفة والمعصية فى يوم الحساب فقال : سبحانه وتعالى محذرا من العواقب (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) **البقرة 281**
رابعا – هى خير زاد الإنسان إلى الآخرة
قال : ابن كثير ... لما أمرهم بالزاد للسفر من الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى إليها إنه الزاد المعنوى الذى يتمثل فى الخشوع والطاعة والتقوى وهى خير زاد وأنفع فقال : سبحانه (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) **البقرة 197**
خامسا – هى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : صلى الله عليه وسلم اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنى تمحها .
رواه الترمذى
وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى رواه مسلم
سادسا – هى وصية الصحابة والتابعين
وصى بها أبو بكر الصديق رضى الله عنه المؤمنين كافة بقوله : أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عيه بما هو أهله وأن تخلطوا الرعبة بالرهبة ثم وصى بها على سبيل التخصيص عمر بن الخطاب رضى الله عنه قائلا : له اتق الله يا عمر ثم وصى بها عمر بن الخطاب ابنه بقوله : أوصيك بتقوى الله عزوجل فإن من اتقاه وقاه ومن أقرضه جزاه ومن شكره زاده واجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك .
كما وصى بها على بن أبى طالب رضى الله عنه أحد أعوانه قائلا : أوصيك بتقوى الله عزوجل الذى لا بد من لقائه ولا منتهى لك دونه وهو يملك الدنيا والآخرة .
ووصى عمر بن عبد العزيز أحد رجاله بقوله : أوصيك بتقوى الله الذى لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها فإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل .

الطريق إلى التقوى

إن الطريق إلى التقوى يتطلب الآتى : -
أولا – محاسبة النفس قبل أن نحاسب
ثانيا – محاسبة النفس على الطاعة
ثالثا – سماع أقوال الصالحين والعمل بها .

بستان التقوى

أولا – أنها سبب محبة الله تعالى للإنسان وثمرة هذه المحبة مصداقل لقوله : تعالى (بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) **آل عمران 76**
ثانيا – إنه سبب معينة الله تعالى للإنسان لقوله : تعالى (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) **النحل 128**

ثالثا – أنها سبب الأمن من عذاب الله وكفارة السيئات وأمن الله عزوجل للإنسان متوفر لكل من سار على دربها وأصلح العمل لقوله : تعالى (فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) **الأعراف 35**

ولقوله : سبحانه

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ) **المائدة 65**

رابعا – أنها سبب دخوالجنة والمقام الأمين والفوز بالجنة هو الفوز العظيم قال : سبحانه (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) **الزمر 73**

وقوله: سبحانه (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ) **الدخان 51**

خامسا – أنها سبب الأجر العظيم وقبول الأعمال وهذا الأجر جزاءا وفاقا لقوله : تعالى (وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ) **آل عمران 179**

وقوله : سبحانه (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) **المائدة 27**

سادسا – أنها سبب معرفة الحق من الباطل قال : سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) **الأنفال 29**

سابعا – أنها سبب كرامة الإنسان عند الله تعالى والكرامة الحقة هي التى تتحقق للإنسان بفضل من الله تعالى قال : سبحانه (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) **الحجرات 13**

ثامنا – أنها وارفة الظلال يانعة الثمار وذلك في عدة مظاهر لكونها معيار الصوم المقبول وثمرته الطيبة قال : سبحانه (ا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) **البقرة 183**

التقوى والأمانة والتعامل ولصلتها الوثيقة بالأمانة وصدق التعامل قال : سبحانه (فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ) **البقرة 283**

والتقوى من دلائل العفو وسمات الصالحين قال : سبحانه (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) **البقرة 237**

والتقوى درك لكل سلوك محرم قال : سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) **البقرة 278**

التقوى والقلب التقى

إن الحقيقة التى لا شك فيها أنه لا إنفصال بين التقوى والقلب التقى لأن التلازم واضح بينهما فالتقوى بسماتها وخصائصها تحتاج إلى مستقر ومستودع آمن وليس هناك بديل عن القلب التقى ليكون مستقرها ومستودعها . كذلك فإن من مظاهر سلامة القلب وتقواه أن تكون التقوى هى مستقره وهى البلسم الشافى والكافى لسلاكته من علله وأمراضه وإذا فكلاهما لا غناء له عن الآخر القلب بفطرته النقية والتقوى بسماتها الزكية وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أشار إلى صدره الشريف قائلا : التقوى ها هنا .

القلب التقى قيمته ومكانته

لم يكتسب القلب التقى قيكته ومكانته من مصدر مادى بيولوجى فى الإنسان لكنه إكتسب قيمته من مصدر علوى سماوى إكتسبها من تقدير الحق سبحانه وتعالى لقد إكتسب التقدير الإلهى يوم أن ورد ذكره فيما أنزل الله تعالى من منهج ويوم أن دون اسمه فيما أنزل من آيات الكتاب الحكيم قال : تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

الرعد 28

وإكتسب قيمته ومكانته يوم أن أعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن منهج الصلاح والفساد فى الإنسان فى حديثه الشريف بقوله : ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب . **متفق عليه**

وكذلك تتجلى قيمته ومكانته فى كونه الجارحة التى إختارها الحق سبحانه لتكون مهبط الإيمان والتصديق به ومصدر الطمأنينة والأمان والخشوع والإستقرار النفسى والوجدانى حتى يستطيع الإنسان من خلاله أن يستبين معالم طريقه إذا إستضاء بنور الإيمان ، ويمتلأ بهجة وشفافية إذا إستقامت خلجاته وصدقت نواياه وإقترب من رضوان خالقه ، لذلك فإنه بحسب مهمته وغايته تتجلى أهميته وتعظم مهمته وغايته ومهمته هى الإيمان والتصديق بخالقه إلها واحدا لا شريك له . أما وسيلته فى هذا الإهتداء فهى الأخذ بمنهج الحق المبلغ من خالقه ، كما أن هدفه وغايته هى اليقين والثبات على الحق المبين ، والطريق إلى ذلك كله هو الإلتزام بصراط الله المستقيم ومن هنا ترتبط الغايات بالسبل والوسائل برباط وثيق .

القلب السليم والقلب المريض

ذكر ابن القيم فى كتابه إغاثة الهفان ما يلى

القلب السليم وهو الذى برىء من كل نزوة تخالف أمر الله تعالى ونهيه ومن كل شبهة تعارض أسباب يقينه وهو الذى أخلص عبوديته لله وتجنب معصيته والإشراك به ، وسلامة القلب عمرانه بالتقوى ونور الإيمان والتطهر من الخبائث والرذائل والأحقاد والضغائن إهتداءا بقول : الحق سبحانه (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) **الشعراء 88- 89**

القلب المريض وهو الذى لا تخفق فى جنباته نبضات الخير فلا يعرف ربه حق المعرفة ولا يأتمر بأمره ولا ينتهى عن نهيه ولا يبالى عند إقتراف الشهوات لأن الهوى مقصده والشهوات تحركه وهو المدنس بالخبائث المعبأ بالشرور والآثام وهو

الـذى تملـؤه الهـواجس وتغشـاه الظلمـات ويخفـت فيـه نـور اليقـين فـلا يقـدر علـى الإستبصار ولا يسمع لنداء الحق .

القلب التقى سماته وخصائصه

أولا – إنه وعاء الإيمان الصادق

ومستقر اليقين ومصدر الحكمة ومهبط الوحى ومناط التكريم الإلهى فإذا ما أقبل على شريعة الحق ومنهج الصدق زين الله له طريق الطاعة والإيمان وكره إليه العصيان فيكون ذلك ممن قال : الحق فى شأنهم (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) **التغابن 11**

إن القلب الذى يعمره الإيمان وتنضب فيه الشوائب والآثام يضىء للإنسان معالم طريقه فيستشعر معه الإنسان الطمأنينة النفسية والروحية ويصدق عليه قول : الحق سبحانه (الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

الرعد 28

ثانيا – إنه منبع الإخلاص ومنطلق النية الصادقة

النية الصادقة هى الأساس والمعول فى قبول الأعمال وفى تقدير الجزاء الأولى لها ، وتعتبر النية الصادقة هى الدافع والمحرك للسلوك المقبول ذلك ما أكده الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : الشريف إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرىء ما نوى وتعتبر النية الصادقة دافعا إلى إخلاص العمل والتفانى فى آدائه وهما معا النية والإخلاص لا يجتمعان إلا فى قلب تقى

ومجمل القول : أن النية الصادقة هى المعول عليها فى قبول الأعمال وهى التى يستكمل بها الإنسان حقيقة إيمانه وصدق نيته وهو ما يؤكده الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب متفق عليه

ثالثا – إنه المؤتمن على التقوى والأمانة

وذلك إنطلاقا من هدى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف " لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له " **رواه الإمام أحمد**

وهو ما يدل على أن الإيمان إقترن بالأمانة وأن الأمانة قد إقترنت بالإيمان ، ولقد إرتبطت الأمانة بالإيمان فى مظهر آخر من مظاهر الإرتباط بإعتبارها معا مهبط القلب ومستقره فإذا كان القلب هو المقر الدائم للإيمان فإنه كذلك مستقر للأمانة ومهبطها وذلك الإرتباط الذى أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : الشريف " إن الأمانة نزلت فى جذور قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة " **صحيح مسلم**

وإذا كان الإيمان هو تصديق بالقلب فإن الأمانة فى حقيقتها تقدير للمسئولية على قدر ما فى القلب من إيمان وتصديق ، وهما معا الإيمان والأمانة يقعان فى القلب موقع القبول واليقين والتصديق فإذا ضعف اليقين فى القلب تسربت الأمانة منه رويدا رويدا، ولقد وصف حذيفة بن اليمان رضى الله عنه مشهد تسرب الأمانة من القلب فيما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من

قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثمم ينام الرجل النومة فيظل أثرها مثل المجل ثم قال : فيصبح الناس متتابعون فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلا أمينا وحتى يقال للرجل ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال ذرة من خردل من إيمان وإن من علامات صدق الإيمان أن يكون القلب عامرا بالتقوى مقتديا بأنوارها مدركا أنها هى التى تقوده إلى وجهة الخير وشرف الغاية وعندما أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى صدره الشريف قائلا : ثلاثة التقوى ها هنا فإن فى هذا القول تأكيدا على أن التقوى لا موطن لها سوى القلب .

من هم أصحاب القلوب التقية

إنهم الذين يهتدون بهدى القرآن الكريم العاملون على مقتضى معانيه وتوجيهاته وهم الذين قال : الحق سبحانه فى شأنهم (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ)

الزمر 18

إنهم الذين إستحقوا الأفضلية فى مجال التفضيل الإنسانى وهم الذين أخبر عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سئل أى الناس أفضل قال : كل مخموم القلب صدوق اللسان قالوا صدوق اللسان نعرفه فمن هو مخموم القلب قال : التقى النقى لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد رواه ابن ماجة

إنهم الذين جعلوا قلوبهم خير واعظ لهم موقنين بأن خير موعظة هى التى تصدر من قلب عامر بالتقوى وإن خير واعظ للإنسان هو قلبه الذى يفيض بالتقوى إهتداءا بقول : الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه يأمره وينهاه **رواه الديلمى فى مسند الفردوس**

القلب وأمراضه وعلله وسلامته
وعوامل شفائه

مرض القلب وعلله

إن للقلب أمراض كالجسد تماما ولكنه مرض من نوع آخر معنوى غير عضوى ذلك ما بينه الحق فى كتابه الكريم بقوله : تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ)

التوبة 125

وقال : سبحانه (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

الأنفال49

ويوضح ابن القيم الجوزية أن أمراض القلب تكمن فيما يتعرض له من فتن مختلفة تقع فى شيئين : -

أولا – فتن تؤدى إلى أمراض الشهوات والنزوات التى تؤدى إلى إفساد العقيدة والإعتقاد

ثانيا – فتن تؤدى إلى أمراض الشبهات التى تؤدى إلى فساد العلم والإعتقاد .

وهذان النوعان من الفتن والأمراض يترتب عليها نوعين من الألم : -

الأول – ألم يحس به صاحبه مباشرة لأن فساد قلبه يحول بين الإحساس به فى الحال ولأن نشوة الهوى تحول بينه وبين الإحساس بالألم ، وهذا النوع من الألم ناتج عن مرض الجهل والشبهات والشهوات والريبة .
الثانى – نوع آخر من الألم يحس به صاحبه مباشرة وهو الذى يتمثل فى الهم والغم والحزن إن القلب المريض يتعذر عليه معرفة خالقه والشوق إلى لقائه والقرب منه وإيثاره على كل الشهوات والملذات فمن آثر على محبة الله تعالى شيئا من متاع الدنيا وشهواتها فهو مريض القلب لأنه قد عدل عن الغذاء النافع إلى الغذاء الضار وعن الدواء الناجح إلى الدواء المهلك ومن ثم فإن القلب المريض هو الذى يؤثر الضار على النافع والمهلك على المفيد ، وهو الذى لا يستطيع أن يتبين أن أنفع غذاء هو غذاء الإيمان والتقوى .

المظاهر الدالة على أمراض القلب

تتعدد هذه المظاهر : -

أولا – النفاق

وهو يغنى إظهار النفاق باللسان والقول وكتمان المعصية فى القلب بمعنى أن يكون الظاهر مغايرا للباطن ، ولقد بين الحق سبحانه وتعالى حقيقة النفاق بقوله : الكريم (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)
البقرة 8 -10

ثانيا – إستحباب الرذيلة

والرغبة فيها والسعى لإقترافها وذلك ما بينه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله : " الشريف العينان زناهما النظر والأذنان زناهما السمع واللسان زناه الكلاه واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه " . **رواه البخارى ومسلم**

ثالثا – الإنغلاق على العداوة والبغضاء والحقد والحسد

لأن الحقد دافع إلى الحسد وهو تمنى زوال نعمة الغير لذلك لا يجتمع فى قلب مؤمن إيمان وحسد لأن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . ولقد بين الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مثالب العداوة والبغضاء والشحناء بقوله : الشريف " تفتح الجنة يومى الإثنين والخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال انظروا هذين حتى يصطلحا " **صحيح مسلم**

رابعا – إتباع الشهوات

والتى ورد ذكرها فى القرآن الكريم بقصد التضليل والتشكيك وغرس الريبة فى القلوب المؤمنة حتى ترجع عن صراط الله المستقيم وتسقط فى مستنقع الضلال وهو ما أشار إليه الحق سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم بقوله :
(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ

الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

آل عمران 7

خامسا – الغلظة والقسوة

بحيث تمتلك القلوب وتستأصل جذور الخير فيها فتصبح كالحجارة أو أشد قسوة ونعنى بقسوة القلب إنكاره لله تعالى وإنصرافه عن الحق وبعده عن ذكر الله تعالى وخلوه من مظاهر الرحمة لذلك كان جزاء القلوب القاسية تهديد الحق سبحانه وتعالى لها بقوله : (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

الزمر 22

سادسا – اليأس والسخط والقنوط

إن من مظاهر أمراض القلب السخط واليأس والقنوط وهو يعنى التضجر من قضاء الله تعالى وقدره عندما لا يحقق للإنسان مراده ومقصوده فلا يقابل قضاء الله تعالى وقدره بالرضا وطيب النفس ولا يتوكل على الله حق التوكل لأن الأمر كله بيده إهتداءا بقول : الحق سبحانه (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) **الطلاق 3**

سابعا – العمى والضلال

إن العمى والضلال الحقيقى لا يتمثل فى عدم القدرة على الإبصار والرؤية ولكن عدم إهتداء القلب إلى التفرقة بين الحق والباطل حيث قال : سبحانه وتعالى (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) **الحج 46**

ولقد وصف الحق سبحانه وتعالى قلوب الكافرين المعاندين الذين إبتعدوا عن منهج الإيمان بالعديد من الصفات المرضية التى تعبر عنها الكلمات الواردة فى القرآن الكريم مثل كلمات الختم والطبع والرين والموت والإنكار والضيق حيث قال : سبحانه وتعالى (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

البقرة 7

مظاهر سلامة القلب وعوامل شفائه

قد أشار الحق سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم إلى المعيار الذى أساسه يكون الإنسان من المقبولين الفائزين بأنه القلب السليم من كل حقد وغش ونفاق إنه المبرأ من كل عيب وسوء فقال : سبحانه وتعالى (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) **الشعراء 88 - 89**

أولا – أن يكون مقبلا على الله تعالى مجافيا للأحقاد والكبرياء مصداقا لقوله : سبحانه (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ

كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

الحشر 9 – 10

كذلك فإن من عوامل سلامته أن يكون على الصورة التى إرتضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم والتى أعلم بها أصحابه بقوله : الشريف " لا يبلغنى أحد عن أصحابى شيئا فإنى أحب أن أخرج إليهم وأنا سليم الصدر" **رواه أبو داود والترمذى**

ثانيا – السكينة والطمأنينة والثبات واليقين

كل ذلك من مظاهر سلامة القلب وصحته لذلك عرض الحق سبحانه وتعالى قصص الأنبياء فى القرآن الكريم تثبيتا لقلب النبى صلى الله عليه وسلم على الإيمان وعلى اليقين وعلى الطمأنينة والسكينة فلا يتسرب إليه ضيق أو حزن مهما صادف فى دعوته من المشقة والإيذاء موقنا بأن الحق لا بد وأن ينتصر على الباطل فقال : سبحانه (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

هود 120

ثالثا – من مظاهر القلب وصحته

التحلى بالشفافية والرأفة والرحمة والشفقة واللين فلقد كان قلب النبى صلى الله عليه وسلم على هذه الصورة من الصفات كما وصفه الحق سبحانه (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

آل عمران 159

وأيضا قوله : الشريف عليه الصلاة والسلام " إن لله آنية فى أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها " **رواه الطبرانى**

رابعا – من مظاهر سلامة القلب وصحته قوة إيمانه وثبوت يقينه إهتداءا بقول : الحق سبحانه (الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) .

الرعد 28

إن طمأنينة القلب تعينه على أن يفرق بين الحق والباطل والبر والإثم واليقين والشك وهو ما ـأشار إليه الرسول الكريم فى حديثه مع أصحابه عن البر فقال : البر ما اطمأن إليه القلب وإن أفتاك الناس وأفتوك .

الطريق إلى سلامة القلب

إن الطريق إلى سلامة القلب وشفائه من أمراضه وعلله يكمن فى الإيمان الصادق بالله تعالى الذى فطره على الصفاء والنقاء وعلى التمسك بمنهج الحق والصدق وفى اتباع سنة الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم وفى الإكثار من تلاوة الذكر الحكيم

لقوله : تعالى (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآَنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) **الإسراء 82**

وقوله : سبحانه (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) **يونس 57**

إن الطريق إلى سلامة القلب كما ذكر ابن القيم يكمن فى التوبة النصوح عملا بقوله : سبحانه (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) **النور31**

كما أن مداومة الإستغفار والتذلل والخضوع إلى الله تعالى رغبة فى مرضاته وطمعا فى ثوابه وخوفا من عقابه تعتبر من دواعى يقظة القلب ومن أسباب سلامته من كل سوء إهتداءا بقول : الحق سبحانه (وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) **البقرة 199**

وعملا بقول : الرسول صلى الله عليه وسلم "طوبى لمن وجد فى صحيفته استغفارا كثيرا " **رواه ابن ماجة والنسائى والطبرانى والبيهقى**

وختاما ـ فإن القلب التقى الذى يسعى إلى ما فيه خير زاده حت يظل تقيا على فطرته وصفائه كما أراد له خالقه حتى ينعم بأنوار هدايته لذلك يكون جزاوء أنه يجد النور الذى يعينه على إكتشاف حقائق الوجود وحقائق الحياة سوف يجد النور الذى يكسبه راحة البال فى الحال والمآل والإستقبال سوف يجد الطمأنينة والثقة واليقين فى كل أمر وحين وفى كل حركة وسكون سوف يجد النور الذى يبدد من أمامه الظلمات ويوضح له معالم الطريق الآمن إلى الهدى والرشاد ، وذلك ما وضحه الحق سبحانه فى كتابه (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) **الأنعام 122**

وليصبح المؤمن الحق هو صاحب القلب التقى لأنه الجوهرة الربانية الكامنة فى الإنسان والتى خلقها الله تعالى على الفطرة السليمة التقية المبرأة من كل الشوائب والمثالب .

الباب الرابع

الأخلاق فى الإسلام

ورد لفظ خلق فى القرآن الكريم مرتين وذلك فى قوله : تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) **القلم 4**

وفى قوله : تعالى (إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ) **الشعراء 137**

أما – لفظة خلاق بمعنى الحظ والنصيب فقد وردت فى سورة البقرة قوله : تعالى (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) **البقرة 102**

وقوله : تعالى

(فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) **البقرة 200**

وقوله : تعالى

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) آل **عمران 77**

وقوله : تعالى (كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) **التوبة 69**

الأخلاق فى السنة النبوية الشريفة

إن الأخلاق النبوية الشريفة تظهر فى وجوه كثيرة فقد عللت رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم بتقويم الأخلاق وإشاعة مكارمها

قال : صلى الله عليه وسلم "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "

رواه البخارى والحاكم وأحمد

وقد عرف الدين بحسن الخلق فقد جاء فى حديث مرسل أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم "ما الدين فقال حسن الخلق "

أخرجه محمد بن نصر المروزى فى كتاب تعظيم قدر الصلاة من رواية أبى العلاء بن الشخير مرسلا

وفى حديث آخر ربط الرسول صلى الله عليه وسلم الإيمان بالخلق روى الإمام أحمد فى مسنده سأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم " أى الإيمان أفضل قال : حسن الخلق "

وروى أبو داود فى سننه قول : النبى صلى الله عليه وسلم " أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا " .

علاقة الدين بالأخلاق

أشار البخارى فى صحيحه إلى علاقة الدين بالأخلاق وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا وأن خلقه كان القرآن ورغم ذلك فقد كان يدعوا الله تعالى بأن يهديه لأحسن الأخلاق "اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها فإنه لا يصرف عنى سيئها إلا أنت وكان يستعيذ بالله من سوء الأخلاق " **صحيح سنن الترمذى**

الأخلاق صفات الإنسان الأدبية وعلم الأخلاق هو هذه الصفات

إذا كانت الأخلاق هى صفات الإنسان الأدبية وأن علم الأخلاق هو هذه الصفات معروضة على وجه تعليمى فإننا يجب أن لا نخلطهما بما أسماه القدماء الأدب فالأدب أقل عمقا من علم الأخلاق وأكثر شمولا منه لأن معنى الأدب يتضمن ثقافة أدبية حسنة لا سبيل إلى عدها بين الفضائل أو على الأقل بين أمهات تلك الفضائل ويتصل بعلم الأخلاق النصائح والوصايا ويندرج تحت هذين الموضوعين كثير من الأقوال التى تنسب إلى شخصيات مهمة والتى تتضمن مبادىء خلقية يمكن أن توضع إلى جانب الأمثال والحكم ومع ذلك توجد رسائل فى الأخلاق تتصل بصنف خاص من الناس أهمها ما يتصل بأخلاق ذوى السلطان وأخلاق أهل الورع .

الفضائل هى روح الإسلام والرذائل

أمراض نفسية

إن هناك صفات مشتركة بين هؤلاء الأخلاقيون عموما فهم ينزلون بعض الفضائل منزلة حاصة مستمدة من روح الإسلام مثل الإيثار والقناعة بما قسم الله تعالى وضبط اللسان والصبر وهم يشتركون كذلك فى إعتبار الرذائل بمثابة أمراض نفسية وفى تشبيه الأخلاق بالطب وعلى هذا فعلم الأخلاق هو صناعة مداواة الأمراض النفسية وحفظ صحة المريض وغايته الوصول إلى السعادة ويشترك هؤلاء الأخلاقيون المسلمون أيضا فى تقسيم الفضائل تقسيما نفسيا منهجيا يقوم على تحليل قوى النفس فلكل قوة فضيلتها ورذيلتها وتعتبر الرذيلة ضد الفضيلة أو أن الفضيلة وسط بين رذيلتين أحيانا وتلك هى نظرية الوسط بين الطرفين أحدهما إفراط والآخر تفريط .

الإمام الغزالى وعلم الأخلاق

إن للإمام الغزالى عدة تعريفات وتفسيرات لعلم الأخلاق أوردها فى كتابه ميزان العمل وكتاب إحياء علوم الدين وقد عرف الأخلاق أوالخلق الحسن بأنه إصلاح قوى النفس الثلاثة قوة التفكير وقوة الغريزة وقوة الغضب .

ويقول : فى موضع آخر من كتاب ميزان العمل ولا يبعد أن يجعل الخلق اسما لما يحصل فى سائر الشهوات والقوى من الإنقياد والتأدب .

وفى موضغ ثالث يشير إلى ما يفهم منه تمييزه للخلق على أساس مبدأ فعل ما يكره فيقول : فمهما عرض لك أمر ولم تدرك أيهما صواب فعليك فعل ما تكره لا بما تهواه فأكثر الخلق فى الكراهة قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات " **صحيح البخارى ومسلم**

وقال : تعالى (فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) **النساء 19**

وقال : تعالى (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)
البقرة 216

فكل ما يشير عليك بالدعة والرفاهية وحظر الكلفة وإيثار الراحة فى الحال فاتهم فيه نفسك فإن حبك الشىء يعمى ويصم

وفى موضع رابع يشير إلى أن حسن الخلق يتم بأن يزيل المرء جميع العادات السيئة التى عرف الشرع تفاصيلها ويجعلها بحيث يبغضها فيجتنبها كما يجتنب القاذورات وأن يتعود العادات الحسنة ويشتاق إليها فيؤثرها ويتنعم بها كما قال : صلى الله عليه وسلم جعلت قرة عينى فى الصلاة

الخلق هو هيئة النفس وصورتها

لعل أدق تعريفات الإمام الغزالى للخلق الحسن وأشملها ذلك التعريف الذى أورده فى الجزء الثالث من كتابه إحياء علوم الدين والذى يشبه إلى حد كبير تعريف ابن مسكويه

يقول : الإمام الغزالى الخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا فالخلق إذا ليس هو فعل الجميل أوالقبيح ولا القدرة على الجميل أوالقبيح ولا التمييز بين الجميل والقبيح وإنما الخلق هو الهيئة هيئة النفس وصورتها الباطنة التى تجعل النفس مستعدة لأن يصدرعنها الإمساك أو البذل ويربط الإمام الغزالى أيضا بين قوى النفس وما يؤدى إليه إعتدال هذه القوى من ظهور الفضائل الخلقية الرئيسية وما يتفرع عنها . وقال : أيضا بنظرية الوسط وبإمكان تغيير الأخلاق والفضائل الخلقية الرئيسية عنده هى الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ويعتبرالعدالة أم الفضائل أو جملة الفضائل

تقويم الأخلاق فى الإسلام

إن تقويم الأخلاق يعنى بالمصطلحات الإسلامية الإستقامة واصلاح النفس وتزكيتها وإرتبطت هذه المعانى بالتوبة والتقوى (فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) **المائدة 39**

(فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)
الأعراف 35

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) **الأعلى 14**

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) **الشمس 9 – 10**

(وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) **فاطر 18**

إن تقويم الأخلاق والإستقامة وإصلاح النفس وتزكيتها لا يتم إلا عن طريق التأمل والتفكير فحسب بل عن طريق التدريب للسيطرة على النفس الأمارة بالسوء .

وسائل تقويم الخلق

أولا – معرفة الأخلاق الحسنة التى أمر بها الإسلام والأخلاق الرديئة التى نهى عنها فالحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع

ثانيا – الإهتمام بتقوية معانى العقيدة الإسلامية فى النفس كالإيمان بالله واليوم الآخر مما يؤدى إلى تقبل النفس واستجابتها للأخلاق الإسلامية

ثالثا – القيام بالعبادات المفروضة فى الإسلام لأنها تزكى النفس وتطهرها

رابعا – تكلف الأخلاق الطيبة التى يريد الإنسان أن يتخلق بها حتى تصر مع مضى الزمن كالطبع والسجية

خامسا – الإقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ومخالطة المؤمنين ذوى الأخلاق الحسنة

سادسا – إبداء النصيحة وقبولها من الآخرين إذا كانت تدعوا إلى فضائل الأخلاق فالدين النصيحة .

فصل

التصوف والأخلاق

تقوم الحياة الصوفية على مقومات أخلاقية ثابتة ومن ثم الترابط الوثيق بين التصوف والأخلاق من حيث القول ومن حيث العمل وإذا فحصنا أقوال الصوفية وتصريحاتهم وجدنا معظمها يدور حول النظام الأخلاقى وإذا تتبعنا سجل حياتهم ألفيناه عرضا أمينا وتصويرا دقيقا للمثل العليا التى نادوا بها ودعوا الناس إليها

الصلة بين التصوف والأخلاق

إن وثاقة الصلة بين التصوف والأخلاق تظهر من بعض التعريفات فقد عرف التصوف بأنه الدخول فى خلق سنى والخروج من كل خلق دنى .كما عرف بأنه أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من قوم كرام وعرف التصوف أيضا بأنه خلق فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى التصوف

التقرب إلى الله تعالى ونيل السعادة
لا يكون إلا بالأخلاق

لا يتصور الصوفى مطلقا إمكان فتح باب الود مع الله سبحانه وكسب رضاه ونيل السعادة دون أن يسمو الإنسان خلقيا وأن يتهذب سلوكيا .

يقول : التسترى من لم يدخل فيما بينه وبين الله على مكارم الأخلاق لم يتهن بعيشه فى دنياه وآخرته . ولذلك لا تغنى المعرفة فى نظر المتصوف عن التحقيق بمقتضيات تلك المعرفة وتطبيق التعاليم التى تفرضها قبل التقدم لكسب أى معرفة جديدة وتلك هى الثمرة المرجوة من كل علم نافع أو معرفة مفيدة

المبادىء الأخلاقية للتصوف

إن أولوية اصلاح الباطن وهو الجانب الخفى من الإنسان يولى الصوفية أهمية بالغة وعناية فائقة بالحياة الباطنية للإنسان وتفيض كتبهم بالحديث عن خلجات النفس وخطرات القلب ودقائق المشاعر ورقائق الأحاسيس وأوجه الصراع الباطنى عند تحويل السلوك أو تعديله نتيجة لنداءات القلب أو العقل ، وتتجلى عنايتهم بباطن الإنسان فى حديثهم الفياض عن حقيقة النية أو القصد وحديثهم عن أعمال القلوب التى لا يمكن الإطلاع عليها أو قياسها بأى قياس إنسانى حيث ينفرد بالقدرة على ذلك الله جل جلاله وهنا يتوثق الربط بين باطن الإنسان وبين مبدأ الإلوهية فى صفاتها الفعلية التى ترتبط بالخلق ومقتضيات هذا الخلق إن عناية التصوف بالجانب الداخلى أو الوجه الباطن فى الإنسان أمر مفهوم له ما يبرره فالتصوف أولا وأخيرا ليس إلارحلة نفسية فيها يتم للصوفى إكتشاف أبعاد نفسه ومدى صلتها بالله وبخلقه وما يؤديه الصوفى من أعمال وما يقوم به من واجبات ومجاهدات ليس إلا زادا وإعداد وسيلة لإتمام الرحلة بنجاح ولا عجب إذا أن نجد بعض المفكرين يحاول أن يبرز عن طريق المقارنة الفرق الأساسى بين أهل الدين أو المتدينين وبين أهل التصوف الذين يعنيهم الجوهر والروح أكثر مما يعنيهم المظهر والشكل ، وقد رأى هذا بعض أهل العلم أن أهل الدين أكثر آدابهم فى تهذيب النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات .

أمـا – أهـل التصـوف الـذين هـم أهـل الخصوصـية فـأكثر آدابهـم فـى طهـارة القلـب ومراعاة الأسرار والوفاء بـالعهود وحفظ الوقت وقلـة الإلتفـات إلـى الخـواطر وحسـن الأدب فى مواقف الطلب وإدمان الحضور .

التصوف وحقيقة النية

إن من النقاط الهامة الوثيقة التى يعالجها التصوف وهى وثيقة الصلـة بالحيـاة الباطنيـة حقيقـة النيـة وحقيقـة جمـع الهـم أو جمـع الهمـة وهـم ينفـون كـون مجـرد التفكيـر أو الخاطرانية وينكرون عدم أهمية العمل إذا لم يركز الإنتباه على النية .

يقول : العاملى قد يسمع الجاهل ما ذكره أصحاب القلوب من المبالغة والتأكيد فى أمر النية وأن العمل بدونها لا طائل تحته فيظن هذا المسكين أن قولـه عند تسبيحه أو تدريسـه أصبح قربـة لله تعـالى محضـرا معنـى هـذه الألفـاظ علـى خـاطره هـو النيـة وهيهات إنما ذلك تحريك لسان وحديث نفس أو فكر وإنتقال من خـاطر إلـى خـاطر والنية عن جميع ذلك بمعزل ، إنما النية إنبعاث النفس وإنعطافها وميلها وتوجهها إلـى فعـــل مـــا فيـــه غرضـــها وبغيتهـــا إمـــا عـــاجلا وإمـــا آجـــلا

المزايا الأخلاقية للتصوف

توجد فى الصوفية عناصر أخلاقية كثيرة نؤمن بفاعليتها فى مجال التطبيق على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة وأهم هذه المزايا : -

أولا – النهـوض بأعبـاء المسـئولية دون التعلـل بـالغير أو الإعتمـاد علـى تقصـيرات الآخرين

ثانيـا – إجتمـاع الهمـة ونركيـز العزيمـة وتوحيـدها والإلحـاح مـع الإصـرار علـى الوصول للهدف

ثالثا – ضرورة تطبيق العمل على العلم فالعلم وحده قد يكون وسيلة ضارة خطيره

رابعا – من كنوز السعادة لسان صادق وقلب راض وبدن صابر

خامسـا – التكافـل الإجتمـاعى وتنميـة علاقـات المـودة والإخـاء والتفـانى فـى الفـداء والإيثار

سادسا – ثبات الشخصية وعدم تزعزعها مهما راعت الكوارث وأفزعت النوائب

سابعا – مجافاة كل أسباب الفرقة والإختلاف والتركيز على الإصلاح الداخلى للفرد بإعتباره لبنة أخلاقية ذات قيمة فى البناء الإجتماعى

ثامنا – ضرورة تخليص الفرد والمجتمع من الدعاوى والتصنع

تاسعا – إستعمال الوقت وإستغلاله فيما هو أولـى وأحق أما بالنسبة للنهوض بأعباء المسئولية وإنجاز ها وما وكل إلى الإنسان من عمل أتمه على وجه الإتقان والكمال .

وإن كتب الصوفية مليئـة بتأكيدها وإظهـار أهميتها فالصـوفى فى نظر الإمـام الجنيد إنسـان بـرز لـه العلم وانتصـب لـه الطلـب فقام للعمل بكليتـه وهو لا يلتمس المعـاذير لنفسه فيما يجد من تقصير بعض الناس كما هو الشائع .

يقول : سهل التسترى لم يمر علـى وجه الأرض صديق إلا رأى فـى سره كأنـه ليس على وجه الأرض أحد غيره ولا يطالب الله أحدا بشىء من أمره ونهيه غيره فإذا رآه الله عزوجل علـى تلك الحـال تـولى أمره وكفـاه وكـلأه بـل إن الصـوفى يـرى إلتمـاس

المعاذير للناس بينما يشدد على نفسه ولا يقبل منها عذرا ولذا قيل إن الناس منه فى راحة وإن نفسه منه فى تعب .
أما – جمع الهمة وتركيز العزيمة
فيتحقق بحضور العقل وتوجيه إهتمامه إلى ما بصدده الإنسان وقد سئل أبو العالية ما يفتح على الفكر فقال : إجتماع الهم لأن العبد إذا إجتمع همه تفكر وإذا تفكر نظر وإذا نظر أبصر ويكفى ما نلقاه من أضرار وخسائر نتيجة شتات الذهن وتفرق الهم وتوزع الأهواء والنزعات وحتمية تطبيق العلم ومقتضياته تؤكد ثمرة العلم وقيمته وإلا أصبح مضيعة للوقت بل كما يرى التصوف وسيلة من وسائل الخداع فلا يعتبر التصوف العلم فضيلة فى حد ذاته وإنما يعتبره كذلك فى حدود ما يؤهل الإنسان لحياة أفضل على المستوى الإنسانى وبمقدار ما يظهر المرء من نتائجه وثمراته وقد بلغ من تقدير الصوفية لقيمة العمل بمقتضى العلم حد السخرية بالعلماء الذين لا يعملون بعلمهم وتحتفظ كتب الصوفية بتسجيل الحرب الجدلية بين الصوفية وطوائف كثيرة من العلماء والفقهاء وتتركز هذه المؤاخذات التى يلاحظها الصوفية على العلماء فى عدم التطابق بين علم هؤلاء وعملهم .
أما – فيما يمس الثلاثة التى نراها إذا توفرت فى إنسان مهما كانت مهنته فهى كما قلنا الصدق والرضا والصبر وتحققت فى معاقل الإنتاج ولنرى ما يمكن أن تؤدى إليه زيادة الإنتاج ودقته وجودته مع المحافظة على المشاعر الإنسانية .

الروح الصوفية

لا شك فى أن تنمية أواصر الألفة والمودة من العوامل الهامة فى تماسك بناء المجتمع وصموده للعاديات من الزمن وتفيض كتب الصوفية بالقصص التى تصور فى وضوح الروح الصوفية الخالصة والمفعمة بالتسامح والود وتنص بعض كتب الصوفية على أن من أخلاقهم إدخال السرور على غيرهم والإعراض عن أذاهم وأن للقبيح عندهم وجوها من المعاذير وليس للحسن عندهم كبير موقع يعظمونك به أى أنهم لا يفسدون مكرمتك بالمبالغة فيها حت لا تقع فى الزهو والخيلاء فيحبط عملك .
أما - ثبات الشخصية وصمودها فنعلم من أقوال الصوفية أنهم لا يرضون بأنصاف الحلول وقد يفرضون على أنفسهم عقوبات صارمة إذا تلكأت فى تنفيذ طاعة أو تراخت فى أداء واجب كما أنهم كانوا مثابة للناس وأمنا إبان الفزع والرعب فلم يؤثر عن صوفى محق أنه جبن أو تراخى أو تزعزعت عقيدته أو دعاة الحرص على الحياة الدنيا إلى التخاذل ولا جدال فى أننا نحتاج إلى هذه المتانة الأخلاقية النابعة من عمق الإيمان والثقة بالله تعالى والنفس المطمئنة وكما إمتدحنا ثبات الشخصية وتماسكها ووحدة الأمة ورصانة بنيانها فإننا نؤمن بضرورة القضاء على أسباب الفرقة والإختلاف بأن نسترد الخارج عن المصلحة العامة والمجانب لطريق الحق إلى إجتماع الأمة والجماعة ويجب أن يتم ذلك بوعى وحصافة وفهم دقيق لأيباب الخلاف وعلاجها علاجا حاسما وذلك قد يتطلب التعرف على مثثيرى الفرقة ومشعلى نار الخلاف وعزلهم وتجريدهم من أسلحتهم الفتاكة .
يقول : الإمام الغزالى عن عادة الصوفية إزاء ظاهرة الفرقة

أى وقت ظهرت من أحدهم أثر التفرقة نافروه لأن التفرقة تظهر بظهور النفوس وظهور النفوس من تضييع الوقت فأى وقت ظهرت نفس الفقير علموا خروجه من دائرة الجماعة وحكموا له بتضييع الوقت وإهمال السياسة وحسن الرعاية فيعاد بالمناقشة إلى دائرة الجماعة .

ظهور النفوس يقصد به المطامع الشخصية

ومن أخلاق التصوف رفض الدعاوى وأوجه النفاق وأن ملاك الأمر وزمامه هو مراقبة الله تعالى والتعامل معه وهذا هو روح التصوف .

الأخلاق ومراحل الطريق إلى الله تعالى

كان التصوف فى القرنين الثالث والرابع الهجرى علما للأخلاق الدينية أساسا ومن الطبيعى أن ترتبط الناحية الأخلاقية للتصوف لهذ العهد بالكلام فى النفس الإنسانية وتتصنيف قواها وبيان آفاتها وأمراضها وطريق الخلاص منها فالأخلاق عند الصوفية قائمة على أساس تحليل النفس الإنسانية لمعرفة أخلاقها الذميمة والتكمل الخلقى عندهم يكون بإحلال الأخلاق المحمودة محل الأخلاق الذميمة

يقول : القشيرى فى رسالته إنما أرادوا أى الصوفية بالنفس ما كان معلولا من أوصاف العبد ومذموما من أخلاقه وأفعاله ثم إن المعلولات من أوصاف العبد على ضربين : -

أحدهما – يكون كسب له كمعاصيه ومخالفاته

الثانى – أخلاقه الدنيئة الفطرية فهى فى نفسها مذمومة فإذا عالجها العبد ونازلها تنتفى عنه بالمجاهدة لتلك الأخلاق

الإرتباط الوثيق بين علم الأخلاق وعلم النفس عند الصوفية

قد بين لنا السهروردى البغدادى فى كتابه عوارف المعارف ذلك الإرتباط الوثيق بين علم الأخلاق وعلم النفس عند الصوفية

فيقول : إن الصوفية رزقوا سائر العلوم التى أشار إليها المتقدمون ومن أعز علومهم علم النفس ومعرفتها ومعرفة أخلاقها ويقول : الطوسى فى اللمع وللصوفية أيضا تخصيص فى معرفة النفس وأماراتها وخواطرها ودقائق الرياء والشهوة الخفية والشرك الخفى ويقول : الكلاباذى فى كتابه التعرف أول ما يلزم السالك لطريق الله عزوجل علم آفات النفس ومعرفتها ورياضتها وتهذيب أخلاقها . فأنت ترى من كل هذه الشواهد الإرتباط الوثيق بين التصوف كعلم للأخلاق وعلم النفس فكان المتقدمون من الصوفية يجعلون علم النفس مندرجا تحت الأخلاق أو التصوف وإن شئت قلت كان علم النفس عندهم علما غائبا يهدف إلى غاية أخلاقية وهى تهذيب النفس بتعويدها الفضائل الأخلاقية على إختلافها فلم يكن علم النفس عندهم إذا مستقلا أو موضوعيا كما هو شأنه فى العصر الحاضر إن الكلام فى الأخلاق ومعانيها كالمجاهدة والتوبة والصبر والرضا والتوكل والتقوى والرجاء والمحبة والذكر وغير ذلك والنفس وعللها والسلوك وآدابه ومراحله خط مشترك بين صوفية القرنين الثالث والرابع جميعا وكتب طبقاتهم حافلة بالشىء الكثير من أقوالهم ولعل من أوائل من

تكلموا فى هذه الناحية بشىء من التعمق الحارث بن أسد الله المحاسبى وهو أحد الصوفية الذين جمعوا بين العلم بالشريعة وعلوم الحقائق وهو بصرى الأصل توفى ببغداد عام 243 هجرية وصفه القشيرى بأنه كان عالما ورعا ذو معاملة حسنة ووصفه الشعرنى بقوله : هو من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر وعلوم الأصول وعلوم المعاملات له التصانيف المشهورة وهو أستاذ أكثر البغداديين وهو مؤسس مدرسة بغداد الصوفية التى إنتمى إليها الجنيد المتوفى سنة 398 هجرية وأبو حمزة البغدادى المتوفى سنة 295 هجرية والسرى السقطى المتوفى 253 هجرية وغيرهم ولقد سمى المحاسبى بهذا الإسم لمحاسبته نفسه وله عدة رسائل فى التصوف تدور حول تحليل الحياة الروحية إخضاع الأعمال والأفكار للنقد والإختبار لمعرفة مدى صدقها ومراعاة لحقوق الله وهذا هو هدفه من كتابه الرعاية لحقوق الله الذى يصفه ماسينون بأنه أجمل كتاب عن حياة الباطن أخرجه فى الإسلام . وينحو المحاسبى فى تصوفه إلى التحليل المنطقى يدلنا على ذلك قوله المحاسبة والموازنة فى أربعة مواطن فيما بين الإيمان والكفر وفيما بين الصدق والكذب وبين التوحيد والشرك وبين الأخلاق والرياء قوله قوله : فى تحليل معانى الحزن الحزن على وجوه حزن على فقد أمر يحب الإنسان وجوده وحزن مخافة أمر مستقبل وحزن لما أحب الظفر بأمر فيتأخر مراده وحزن يتذكر من نفسه مخالفات الحق فيحزن لذلك وهذا التقسيم للحزن يعتمد ولا شك على منهج الإستبطان للنفس الإنسانية ووصف أحوالها الشعورية وللمحاسبى كلام فى مقامات الطريق إلى الله تعالى وأحواله فيه عمق التحليل فمن ذلك ما رواه العطار فى تذكرة الأولياء أساس العبادة الورع وأساس الورع التقوى وأساس التقوى محاسبة النفس وأساس المحاسبة الخوف والرجاء والخوف والرجاء يرجعان إلى العلم بالوعد والوعيد وفهم الوعد والوعيد يرجع إلى تذكر الجزاء ويرجع إلى الفكر والإعتبار وهكذا يشير المحاشبى بالعقل من حيث أنه قادر على إدراك حكمة الأوامر والنواهى ولكن لا بد أن يقترن هذا العقل بالتخلق هذا فيما يبدوا معنى قوله : لكل شىء جوهر وجوهر الإنسان العقل وجوهر العقل الصبر ويفرق المحاسبى أيضا بين العمل الظاهر بحركات الجوارح وعمل القلوب قائلا : العمل بحركات القلوب فى مطالعات الغيوب أشرف من العمل بحركات الجوارح ولقد كان لكلام المحاسبى فى النفس والسلوك ومقاماته وأحواله أثر على من جداء بعده من الصوفية كالغزالى الذى أفاد من كتابه االرعاية عند كتابة الإحياء وكالشاذلية الذين ينصحوا مريديهم بقراءة كتاب الرعاية وقد لخصه أحد شيبوخهم وهو عز الدين المقدسى ومن الصوفية الذين غلب عليهم الكلام فى الأخلاق والنفس وآدابها وآداب السلوك السرى السقطى وكان تلميذ لمعروف الكرخى وهو أول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال وهو إمام البغداديين توفى سنة 257 هجرية

ومن أقواله : فى السلوك وتربية النفس أقوى القوة أن تغلب نفسك ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز وكان يقول : أيضا ما رأيت شيئا أحبط للأعمال ولا أفسد للقلوب ولا أسرع فى هلاك العبد ولا أدوم للأحزان ولا أقرب للمقت ولا ألزم لمحبة الرياء والعجب من قلة معرفة العبد لنفسه ونظره فى عيوب الناس ومن أقواله : فى التخلق أربع من أخلاق الأبدال إستقصاء الورع وتصحيح الإرادة وسلامة

الصدر للخلق والنصيحة لهم وقوله : أشياء لا يسكن فى القلب معها غيرها الخوف من الله وحده والرجاء لله وحده والحب لله وحده والأنس بالله وحده ويعتبر السرى السقطى صاحب مدرسة فى التصوف وكان لع تلاميذ حملوا مذاهب صوفية البغداديين إلى مواطن كثيرة من العالم الإسلامى فحملها موسى الأنصارى والذى توفى سنة 320 هجرية إلى خراسان وحملها أبو على الروزبادى المتوفى بالفسطاط سنة 322 هجرية بمصر وحملها أبو يزيد البسطامى المتوفى سنة 341 هجرية إلى جزيرة العرب

أبو سعيد الخراز

يعتبر أبو سعيد الخراز من الصوفية المعنيين بالكلام فى مقامات الطريق إلى الله وأحواله ويتجلى لنا بوضوح من كتابه الطريق إلى الله أو كتاب الصدق الذى عرض فيه لمقامات الإخلاص والصبر والورع والزهد والتوكل والخوف والحياء والشكر والرضا والشوق والأنس وقد توفى سنة 279 هجرية

سهل التسترى

الذى وصفه السلمى بأنه أحد أئمة القوم وعلمائهم والمتكلمين فى علوم الرياضات والإخلاص وعيوب الأفعال والواقع أن القرنين الثالث والرابع قد شدا قواعد السلوك الصوفى

ما ذكره نيكولسون فى تنظيم رسوم الطريق الصوفى

أشار نيكولسون بقوله : أما تقعيد القواعد وتنظيم رسوم الطريق الصوفى فإنك تلمحها واضحين كل الوضوح فى أقوال ومشايخ ذلك العصر أينما قرأتها فإنهم قسموا الطريق إلى سلسلة من المراحل بل ميزوا بين أنواع مختلفة من الطرق وأصبحت كلمة طريقة عند صوفية القرنين الثالث والرابع المذكورين فى الرسالة القشيرية تشير إلى مجموعة الآراء والأخلاق التى يتمسك بها طائفة الصوفية ويجعل القشيرى طريقة التصوف مقابلة لطريقة أرباب العقل والفكر ويذكر أيضا كلمة طريقة بمعنى منهج الإرشاد النفسى والخلقى الذى يربى به الشيخ مريده .

الجانب الأخلاقى للتصوف

ورد فى الرسالة القشيرية ما يوضح لنا أو أوائل الصوفية كانوا يستخدمون إلى جانب إصطلاح الطريق والطريقة إصطلاح السلوك أى السير فى الطريق وهذه الإصطلحات كلها تعبر عندهم عن الجانب الأخلاقى فى التصوف الذى يتمثل فى تصور الطريق إلى الله تعالى مكونا من مراحل هى المقامات والأحوال فالمقامات كالتوبة والصبر والرضا واليقين والمحبة والتوكل وما إليها والأحوال كالقبض والبسط والفناء والبقاء والهيبة والأنس وما إليها وهذه كلها فضائل وأحوال نفسية وأخلاقية تأتى ثمرة مجاهدة النفس يترقى فيها السالك للطريق حتى يصل إلى مقام التوحيد أو المعرفة وهو آخر مقامات الطريق ولعله مما له فى هذا الصدد أن صاحب كتاب قوت القلوب وهو أبى طالب المكى المتوفى سنة 386 هجرية وهو أحد كبار الصوفية الأوائل قد جعل عنوان كتابه فى الأصل طريق المريد الموصل إلى مقام التوحيد ويجعل المكى إسم الطريق دلالة على معانى الشريعة الإسلامية والسنة

النبوية الشريفة ويجعله مرادفا للطريق والسنة والصراط المستقيم والمحجة والمنهاج والسبل

الإتجاه إلى السلوك الصوفى له مؤثراته الداخلية البحتة

إن الإتجاه الصوفى له مؤثراته الداخلية البحتة وهى مؤثرات تتصل بالفرد من الناحية الداخلية أكثر من أن تتصل بعامل خارجى لا بد إذا من أن يكون الإستعداد الشخصى الفردى الفطرى موجودا مهيئا ويكفى لأن يسلك عمليا هذا الطريق كلمة أو فكرة أو إشارة أو حادثة من الحوادث فيأخذ فعلا فى سيره نحو الله تعالى (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ) **الصافات 99**

هذا العوم المصمم الذى يتمثل فى هذه غالآية الكريمة لا بد له من الإستعداد الفطرى الذى لا يغنى عنه .

التصوف ذوق ومشاهدة

إن الإمام الغزالى قد قرأ كتب الصوفية أنفسهم ويحدثنا بذلك فيقول : فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبى طالب المكى رحمه الله تعالى وكتب الحارث المحاسبى والمتفرقات المأثورة عن الإمام الجنيد والشبلى وأبى يزيد البسطامى قدس الله أرواحهم وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى إطلعت على كنه مقاصدهم العلمية وحصلت على ما يمكن أن يحصل عن طريقتهم بالتعلم والسماع .ويعلق فضيلة الإمام الدكتور:عبد الحليم محمود على كلام الإمام الغزالى فيقول : ولكن ذلك لم يجعل منه صوفيا ولم يكن الإمام الغزالى بهذه الكتب ولا بمطالعتها لفلسفة اليونان ودراسته لها دراسة عميقة صوفيا ولكن تبين أن أخص خواصهم على حد تعبيره كا لا يمكن الوصول إليه بالتعليم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات فليس التصوف ثقافة كسبية تتأثر بهذا الإتجاه أو ذاك وإنما هو ذوق ومشاهدة يصل الإنسان إليها عن طريق الخلوة والرياضة والمجاهدة والإشتياق بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب بذكر الله تعالى .

التصوف وتحقيق العبودية

إن من الحقائق التى لا ىمرية فيها أن الإنسان لا يتأتى له أن يلج بدرب الله تعالى أو يسير فى الطريق إليه إلا بالعبودية الخالصة لله تعالى وحده لا شريك له فإذا تمخضت العبودية لله تعالى وأصبح الإنسان من عباد الله المخلصين وحقق بذلك (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) **الفاتحة 5**

فإن الله سبحانه وتعالى لا يجعل للشيطان عليه من سبيل وإذا ما حقق الإنسان العبودية فإن الله تعالى يتولاه بالإمداد بالمعرفة يقول : سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام وفتاه (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) **الكهف 65**

إنه حقق العبودية فكان ثمرة ذلك أن يغمره الله تعالى بالرحمة وأن يفيض عليه بالعلم وليست المعرفة وحدها هى ثمرة التحقق بالعبودية بل إن للتحقق بالعبودية ثمارا كثيرة سامية ولقد حقق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العبودية كاملة تامة

حققها بأكملها فى ذروتها فكانت صلاته ونسكه وكانت حياته بأكملها وكان وموته لله رب العالمين لا شريك له (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) **الأنعام 162 – 163**

ولقد حققها موفورة تامة فأتاه الله عزوجل الدنيا والآخرة .

التصوف وعلم الخواطر والقلوب

إن الأمر الذى لا شك فيه أن المسلمين الأولين قد قد طفقوا منذ فجر الإسلام يتأملون فى المثل القرآنية العليا ليتخذوا منها نبراسا يضيئون به أعماق قلوبهم ليستكشفوا فى دخائلها عناصر الأحوال الروحية التى شاهدوها ممثلة فى نبيهم صلى الله عليه وسلم بعد أن ظفرت بالرضا الإلهى العميق وقد ركزوا جهودهم الشخصية فى هذا التأمل حتى بلغ عندهم من العمق حددا لم تظفر بمثله كافة المسلمين وهذا الذى سماه الحسن البصرى فيما بعد علم الخواطر والقلوب ومما لا سبيل إلى الريب فيه بأى وجه من الوجوه أن المصدر الأول الذى أرشد المسلمين إلى هذا الصراط السوى وأنار لهم طريق العروج إلى رب العالمين هو القرآن الكريم والأحاديث القدسية وأن المصدر الثانى هو أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأفعاله الظاهرة وأحواله الباطنة التى كانوا يرونها ببصائرهم ويستشفونها بقلوبهم فيتخذون منها مثلهم العليا ونماذجهم الرفيعة وشموسهم الساطعة التى تضىء لهم سبل الحياة

ومن – هنا يتضح أن السنة المحمدية عند هؤلاء الأتقياء ليست هى الإحاطة بالأوامر الظاهرية والأفغعال الخارجية وإتباعها فحسب ولكنها أيضا تطبيق أصول الفضائل الأخلاقية الباطنية فالكتاب والسنة وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم تطبيق نموذجى للتجربة الدينية بجميع أبعادها ومن أهم الأسس التى يقوم عليها التصوف الإسلامى .

الكشف والإطلاع عند الصوفية

يقول : ابن خلدون إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالبا كف حجاب الحس والإطلاع على عوالم من أمر الله تعالى ليس لصاحب الحس إدراك شىء منها والروح من تلك العوالم وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوة وأعان على ذلك الذكر فإنه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال فى نمو وتزايد إلى أن يصير شهودا بعد أن كان علما ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذى لها من ذاتها وهو عين الإدراك فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهى وتقترب ذاته فى تحقيق حقيقتها من الأفق الأعلى ، وهذا الكشف كثيرا ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم وكذلك يدركون كثيرا من الوقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم فى الموجودات وتصير طوع إرادتهم ولا يستطيع مؤمن إيمانا صحيحا الإعتراض على هؤلاء وقد إنتهلوا جميع العناصر الأولية لتنسكهم من الكتاب الكريم والأحاديث القدسية والنبوية والسنة الغراء فاغترفوا من هذه المنابع السامية أصول الإيمان ومبادىء التقوى وعناصر الذكر والفكر وقواعد التطهر البانى وقوانين السلوك العلمى .

عقيدة أهل التصوف

يعتقد الكثير من الناس المعاصرين ويتهمون الصوفية بأن لهم عقائد مخالفة لعقائد المسلمين أهل السنة والجماعة وهذه عقائد الصوفية ومعتقداتهم كما بينها الصوفى الكبير الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى كتابه الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية ومنها يتبين أنها مطابقة تماما لمعتقد أهل السنة والجماعة الموافقة لكتاب الله تعالى والسنة النبوية الشريفة وعقيدة السلف الصالح رضوان الله تعالى عنهم

اعلم – يا أخى أن القوم أجمعوا على أن الله تعالى إله واحد لا ثانى له منزه عن الصاحبة والولد مالك الملك لا شريك له صانعه لا مدبر معه موجود بذاته من غير إفتقار إلى موجود فى وجوده فالعالم كله موجود به وهو تعالى موجود بذاته لا إفتتاح لوجوده ولا نهاية لبقائه بل وجوده مطلق مستمر قائم بنفسه ليس بجوهر فيقدر له المكان ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء مقدس عن الجهة والأقطار مرئى بالقلوب والأبصار إستوى تعالى على عرشه كما قال كما أن العرش وما حواه به إستوى له الآخرة والأولى ليس له مثل معقول ولا دلت عليه العقول لا يحده زمان ولا يقله مكان وهو الآن على ما عليه كان خلق المتمكن والمكان وأنشأ الزمان وقال أنا الواحد الحى الذى لا يؤوده حفظ المخلوقات ولا ترجع إليه صفة لم يكن عليها ولا تلحقه صفة من صفات المصنوعات تعالى أن تحله الحوادث أو يحلها أو تكون قبله أو يكون قبلها بل يقال كان ولا شىء معه لأن القبل والبعد من صيغ الزمان الذى أبدعه فلا نطلق عليه تعالى ما لم يطلقه على نفسه فإنه أطلق على نفسه الأول والآخر والظاهر والباطن لا القبل ولا البعد فهو القيوم الذى لا ينام والقهار الذى لا يرام ليس كمثله شىء وهو السميع البصير خلق العرش وجعله حد الإستواء أنشأ الكرسى وأوسعه الأرض والسماء إخترع اللوح والقلم الأعلى وأجراه كاتبا فى خلقه إلى يوم الفصل والقضاء أبدع العالم كله على غير مثال سابق وخلق وأخلق ما خلق أنزل الأرواح إلى الإشباح أمنا وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح فى الأرض خلقا وسخر لها مافى السموات وما فى والأرض جميعا منه فلا تتحرك ذرة إلا عنه خلق الكل من غير حاجة إليهم له ولا موجب أوجب ذلك عليه لكن علمه بذلك سبق فلا بد أن يخلق ما خلق فهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا يعلم السر وأخفى يعلم خاتئنة الأعين وما تخفى الصدور كيف لا يعلم شيئا خلقه ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير علم الأشياء قبل وجودها ثم أوجدها على حد ما علمها فلم يزل عالما بالأشياء لم يتجدد له علم عند تجرد الأشياء وأحكمها بعلمه يعلم الكليات والجزئيات على الإطلاق فهو عالم الغيب والشهادة فتعالى الله عما يشركون فعال لما يريد فهو المريد للكائنات فى عالم الأرض والسموات لم تتعلق قدرته تعالى بإيجاد شىء حتى أداه كما أنه سبحانه وتعالى ما أوجده حتى علمه أو يستحيل أن يريد سبحانه وتعالى ما لم يعلم أو يفعل المختار من ذلك الفعل ما لا يريده كما يستحيل أن توجد هذه الحقائق من غير حى كما يستحيل أن تقوم الصفات بغير ذات موصوفة بها فما فى الوجود طاعة ولا عصيان ولا ربح ولا خسران ولا عبد ولا حر ولا حياة ولا موت ولا حصول ولا فوت ولا نهار ولا ليل ولا إعتدال ولا ميل ولا بر ولا بحر ولا شفع

ولا وتر ولا جوهر ولا عرض ولا صحة ولا مرض ولا فرح ولا رتح ولا روح ولا سبح ولا ظلمة ولا ضياء ولا أرض ولا سماء ولا تركيب ولا تحليل ولا كثير ولا قليل ولا غداة ولا أصيل ولا بياض ولا سواد ولا سهاد ولا رقاد ولا ظاهر ولا باطن ولا متحرك ولا ساكن ولا رطب ولا يابس ولا قشر ولا لب ولا شىء من جميع المتضادات المختلفة والمتماثلات إلا وهو مراد للحق تعالى وكيف لا يكون مرادا له وهو أوجده فكيف يوجد المختار ما لا يريد لا راد لأمره ولا معقب لحكمه يؤتى الملك من يشاء ويضل من يشاء ويهدى من يشاء ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لو إجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئا لم يرد الله تعالى لهم أن يريدوه ما أرادوه أو أن يفعلوا شيئا لم يرد الله تعالى إيجاده وأرادوه ما فعلوه ولا إستطاعوا ولا أقدرهم عليه فالكفر والإيمان والطاعة والعصيان من مشيئته وحكمته وإرادته ولم يزل سبحانه وتعالى موصوفا بهذه الإرادة أولا والعالم معدوم ثم أوجد العالم من غير تفكير ولا تدبر بل أوجده على العلم السابق وتعيين الإرادة المنزهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجده عليه من زمان ومكان وأكوان وألوان فلا مريد فى الوجود على الحقيقة سواه إذ هو القائل سبحانه (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) **الإنسان 30**

وأنه تعالى كما علم ما خلق وأراد فخص وقدر فأوجد كذلك سمع ورأى ما تحرك وسكن ونطق فى الورى من العالم الأسفل والأعلى ولا يحجب سمعه البعد فهوالقريب ولا يحد بصره القرب فهو البعيد يسمع كلام النفسفى النفس وصوت المماسة الخفية عند اللمس يرى سبحانه السواد فى الظلماء والماء فى الماء لا يحجبه الإمتزاج ولا الظلمات ولا النور ولا الحرور وهو السميع البصير تكلم سبحانه لا عن عى صمت متقدم ولا سكوت متوهم بكلام قديم أزلى كسائر صفاته من علمه وإرادته وقدرته كلم به موسى عليه السلام سماه التنزيل والزبور والتوراة والإنجيل والقرآن من غير تشبيه ولا تكييف إذ كلامه تعالى من غير لهاة ولا لسان كما أن سمعه من غير أصمخة ولا أذان كما أن بصره من غير أعين ولا أجفان كما أن إرادته من غير قلب ولا جنان كما أن علمه من غير إضطرار ولا نظر فى برهان كما أن لا تقبل الزيادة والنقصان فسبحانه سبحانه من بعيد دان عظيم السلطان عميم الإحسان جسيم الإمتنان كل ما سواه فهو عن وجوده فائض وفضله وعدله الباسط القابض أكمل صنع العالم وأبدعه حين أوجده وإخترعه لا شريك له فى ملكه ولا مدبر معه فيه إن أنعم فنعم العبد فذلك فضله وإن أبلى فعذب فذلك عدله لم يتصرف فى ملك غيره فينسب إلى الجور والحيف ولا يتوجه عليه سواه حكم فيتصف بالجبر لذلك والخوف كل ما سواه فهو تحت سلطان قهره ومتصرف عن إرادته فهو الملهم لنفوس المكلفين للتقوى والفجور أى لتعمل بالتقوى وتتجنب الفجور أو تقوم عليه الحجة بالعلم بما تفعل فهو المتجاوز عن سيئات من يشاء وفى يوم النشور لا يحكم عدله فى فضله ولا فضله فى عدله لقدم صفاته كلها وتنزهها عن الحدوث أخرج العالم قبضتين وأوجد لهم منزلتين فقال هؤلاء للجنة ولا أبالى وهؤلاء للنار ولا أبالى ولم يعترض عليه معترض هناك إذ لا موجود كان ثم سواه فالكل تحت تصرف أسماء أسماء آلائه لو أراد سبحانه أن يكون العالم كله سعيدا لكان أو شقيا لما كان فى ذلك من شأن لكنه سبحانه لم يرد ذلك

فكان كما أراد فمنهم الشقى ومنهم السعيد هنا وفى يوم الميعاد فلا سبيل إلى تبديل ما حكم عليه القدم وقد قال : تعالى فى حديث فرض الصلاة هى خمس وهى خمسون (مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) **ق29**

لتصرفى فى ملكى وإنفاذ مشيئتى فى ملكى وذلك لحقيقة غابت عنها البصائر ولم تعبر عنها الأفكار ولا الضمائر إلا بوهب إلهى ووجود رحمانى لمن اعتنى الله تعالى به من عباده وسبق له ذلك فى حضرة إشهاده فعلم حين أعلم أن الألوهية أعطت هذا التقسيم وإنها من دقائق القديم فسبحان من لا فاعل سواهلا ولا موجود بذاته إلا إياه

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) **الصافات 96**

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) **الأنبياء 23**

(قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) **الأنعام 149**

وكما شهدنا لله تعالى بالوحدانية وما يستحقه من الصفات العلية كذلك نشهد لسيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة إلى جميع الناس كافة بشيرا ونذيرا (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا) **الأحزاب 46**

وأنه صلى الله عليه وسلم بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه وأدى أمانته وأنه صلى الله عليه وسلم وقف فى حجة الوداع على كل من حضره من الأتباع فخطب وذكر وخوف وأنذر ووعد وأوعد وأمطر وما خص بذلك التذكير أحدا دون أحد عن إذن الوواحد الصمد ثم قال : ألا هل بلغت فقالوا جميعا نعم قد بلغت يا رسول الله فقال : صلى الله عليه وسلم اللهم فاشهد ونؤمن بكل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم مما علمنا وما لم نعلم فمما علمنا وتحققنا مما جاء به وقرر أن الموت عن أجل مسمى عند الله إذ جاء أجلهم لا يؤخر فنحن مؤمنين بهذا إيمانا لا ريب فيه ولا شك كما آمنا وأقررنا وصدقنا سؤال منكر ونكير فى القبورحق وأن عذاب القبرحق والبعث من القبور حق والعرض على الله تعالى حق والحوض حق والميزان حق وتطاير الصحف حق والصراط والجنة حق والنار حق وفريقا فى الجنة وفريقا فى السعير حق وأن شفاعة المصطفى صلى الله عليه وسلم حق وأن كرب ذلك اليوم على طائفة حق وطائفة أخرى حق لا يحزنهم الفزع الأكبر حق وشفاعة أرحم الراحمين حق فتشفع أسمائه من الحنان والرحمة عند أسماء الجبروت والنقمة والعدل حق ، وكذلك نؤمن بأن إيمان أهل النار كفرعون وغيره غير مقبول ولا نافع وأن جماعة من أهل الكبائر من الموحدين يدخلون جهنم ثم يخرجون بالشفاعة حق وأن كل مما أتت به الكتب السماوية والرسل من عند الله تعالى حق كذلك نؤمن بأن التأبيد للمؤمنين فى النعيم المقيم حق والتأبيد للكافرين والمشركين والمجرمين فى النار حق فهذه هى عقيدة القوم أجمعين وعقيدة عليها حيينا وعليها نموت .

تلك عقيدة أهل التصوف كما بينها الصوفى الكبير الشيخ عبد الوهاب الشعراى وهى عندما يتدبرها المنصف يراها تماما مطابقة بل هى نفس عقيدة السواد الأعظم أهل السنة والجماعة التى تحدث عنها الإمام الطحاوى والغزالى وأخيرا الإمام عبد الله بن علوى الحضرمى

الإسلام ينكر مذهب وحدة الوجود والحلول

إن الإسلام ينكر من تلك المذاهب مذهبين منتشرين فى الصوفية على عمومها ينكر مذهب الحلول كما ينكر المذهب القائل بوحدة الوجود فلا يقر الإسلام مذهبا يقول : بحلول الله عزوجل فى جسد إنسان ولا يقر مذهب القائلين بفناء الذات الإنسانية فى الذات الإلهية وإذا تحدث الصوفى عن الفناء فسره بفناء الشهوات أو فناء الأنانية وحلول محبة الله عزوجل محلها من القلوب والأرواح ولا يقر الإسلام مذهبا يقول : بوحدة الوجود أو يقول بأن الله عزوجل هو مجموعة هذه الموجودات وأن الكون كله بسمائه وأرضه ومخلوقاته العلوية والسفلية هو الله عزوجل . وإذا أجاز المتصوف المسلم معنى من معانى الوحدة الوجودية فهى عنده وحدة الفضائل الإلهية ووحدة التوحيد فالمسلم الصوفى يوفق بين الظاهر والباطن يقول : إن الشريعة من غير الحقيقة رياء وكذب وإن الحقيقة من غير الشريعة إباحة وفسوق

المتصوفون يبرأون من القول بالحلول ووحدة الوجود

ظل المتصوفون والمنتسبون إلى الطرق الصوفية من المتأخرين يبرأون من القول بالحلول ووحدة الوجود واسقاط التكاليف ويعتزلون من يقول بها على وجوهها المنقولة من الديانات الوثنية ولوحظ ذلك فى القانون الذى أستشير فيه شيوخهم وصدر فى الديار المصرية بلائحة الطرق الصوفية سنة 1320 هجرية / 1903 ميلادية وتقرر المادة الثانية من بابه الخامس أن كل من يقول بالحلول أو الإتحاد أو سقوط التكليف يطرد من الطرق الصوفية كافة وهذا هو الفارق بين الصوفية الإسلامية والصوفية الدخيلة وليس من الإنصاف أن نحمل على التصوف أوزار الأدعياء واللصقاء الذين يندسون فى صفوفه نفاقا وإحتيالا أو جهلا وفضولا فإنه ما من نحلة فى القديم والحديث سلمت من أوزار اللصقاء الذين ينتمون إليها من غير أهلها

التصوف على حقيقته الكاملة

إن التصوف على حقيقته الكاملة هو حرية الضمير فى الإيمان بالله تعالى على الحب والمعرفة وبلوغ هذه المرتبة هو فضيلة الإسلام الذى أطلق ضمير الفرد من عقال السيطرة الروحية ويسر له أن يلوذ بسريرته هذا الملاذ الأمين الذى لا يداخله فيه حسيبه أو رقيبه غير حسيبه ورقيبه بين يدى الله عزوجل ولا غنى عن مثل هذا الملاذ فى زمن من الأزمنة ولا فى جماعة من الجماعات ولا سيما الأزمنة التى تبتلى فيها الضمائر الصوفية بالقلق بين الجماعات المضللة عن سوئها جهلا بحقيقة الدين أو جمودا على المألوف من بقايا الأقدمين ففى مثل هذه الأزمنة لا يستغنى ضمير الإنسان عن ملاذ يعتصم به ويأوى إليه بين جماعته وهو عامل فيها حريص على هدايتها غير معتزل لشئونها ولا حاجة بالمسلم فى أمثال هذه الأحوال إلى إبتداع شىء فى أصول دينه فإن أصول دينه الأولى قائمة على حرية الضمير تنهاه أن يستسلم لما يأباه رغبة أو رهبة أو مجاراة لعرف الأكثرين إذا كان الأكثرون لا يعلمون والمجتمع الإسلامى أحق المجتمعات بالتصوف وأولاه بحرية الضمير التى يسمو إليها الإنسان كلما آثر لنفسه الإيمان بالله تعالى على الحب والمعرفى ولم يقنع

بحظ الثواب والعقاب. لأن الإسلام يأبى له الرهبانية التى اعتصم بها أناس فى العصر القديم ولا يرضى له بعض المذاهب الوجودية فى عصره الحاضر

رأى الأئمة الأربعة فى التصوف والصوفيين

حقيقة وخلافا لما يكتب ويقال عن موقف الأئمة الأربعة أثبت العارف بالله الشيخ أحمد العلوى المستغانمى فى كتاب رسالة الناصر معروف فى الذب عن التصوف أما جمهور الأئمة وأكابر الملة فجميعهم مطبقون على أن التصوف هو زبدة الدين والغاية القصوى من سنن الموحدين وكفاه فضلا أنه عبارة عن السير فى مقام

الإحسان الذى هو أحد أركان الدين الثلاثة المصرح بها فى حديث جبريل فقال : وماذا عسى أن تقول الأئمة ومن لهم إطلاع على أحوال قوم وهبوا أنفسهم لله وبذلوا جهدهم فى طاعة الله أسسوا قوائم مجدهم على تقوى الله إلى أن عرفوا بين الخصوص والعموم بأنهم أهل الله وخاصته من خلقه دانوا إلى الله بخالص التوجه فدانت لهم العباد وأشرقت بأنوار هداهم النواحى والبلاد وها أنا أذكر لكم ما صح نقله عن المجتهدين وأئمة الدين وغيرهم من الكتاب المطلعين من جهة ما يرجع للتصوف وإحترام أهله من عهد التابعين إلى يومنا هذا وبذلك تدركون كون مذهب الصوفية مجمعا على إعظامه وإحترامه بين سائر طبقات الأمة إلا من شذ والنادر لا حكم له

رأى الإمام حسن البصرى

جاء عن الحسن البصرى الذى إتفق أكثر المحققين من مؤرخى الإسلام على أنه أول من فتح الكلام فغى مذهب التصوف وأول متصدر لنشر تعاليمه بالخصوص وهذا مما علم بالتواتر بين علماء السنة

قال : العلامة ابن الحاج فى جزئه الثانى من مدخله ما نصه إن الحسن البصرى رضى الله عنه أول من فتح الكلام فى طريق القوم وهو رضيع إحدى زوجات النبى صلى الله عليه وسلم وهى بالسيدة أم سلمة رضى الله عنها وقد قيل : إن المذهب كانت تعرف رجاله بإسم المتصوفة فى عهده وكان الحسن يجل ويحترم المنتمين لذلك الجانب ويشهد لهذا ما أخرجه عبد الله بن على الطوسى فى كتاب اللمع قال : حاكيا عن الحسن البصرى إنى رأيت صوفيا فى الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه **وقال :** معى أربعة دوانق فيكفينى ما معى وكان الحسن يذكر ذلك على سبيل الإعجاب بحال ذلك الصوفى ولا نجهل مكانة الحسن البصرى فى الإسلام ومنزلته بين التابعين وجاء عن الطوسى عن التجيبى مما نقل عن ابن عجيبة مما يشهد لعظمة المتصوفة والتصوف فى نظر السلف ما يروى عن سفيان الثورى وهو أعظم أئمة القرن الثانى ومجتهديه قوله : لولا أبو هشام الصوفى ما عرفنا دقيق الرياء

ومن ذلك ما ذكره ابن القيم الجوزية فى شرحه على منازل السائرين أنه كان يقول : أعز الخلق خمسة أنفس عالم زاهد وفقيه صوفى وغنى متواضع وفقير شاكر وشريف سنى

رأى الإمام مالك

قال : من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن جمع بينهما فقد تحقق نقله عنه التتائى فى شرحه على مقدمة ابن رشد وكذلك الشيخ زروق ففى القاعدة الرابعة من قواعده قال : ونحن حيث تلقينا هاته المقولة عن الإمام مالك من أوثق المصادر إتضح عندنا يقينا أنه رحمه الله تعالى كان صوفيا لا محبا للصوفية فقط ، وهذه الصراحة من الإمام كافية فى إعظامه لمذهب التصوف وكفى أنه جعله قرينا للفقه وأن الفقه بدونه عاطل كما أن التصوف دون الفقه باطل

وخلاصة القول : أن الإمام مالك كان جامعا بين التصوف والفقه وهذا لا يستبعد من مقام الإمام ما دام التصوف عبارة عن صدق التوجه إلى الله عزوجل

الإمام أبى حنيفة النعمان

أما ما ينقل عن الإمام أبى حنيفة النعمان فى التصوف فليس بأقل من ذلك ذكر صاحب كتاب التبصرة النبوية وكذلك صاحب كتاب أهل الفتوحات والأذواق أن الإمام أبى حنيفة رحمه الله كان محبا للصوفية محترما لمكانتهم ولربما يوجد له من التساهل معهم ما لم يوجد لغيره من الأئمة وكما ذكر أنه سئل عما يفعله الصوفيه وما يتظاهرون به أهم صادقون فى ذلك ؟ فأجاب إن لله رجالا يدخلون الجنة بدفوفهم ومزاميرهم وما قال هذا إلا سدا لذريعة الإعتراض على المنتسبين إلى الله تعالى والله أعلم ولا تفهم أى الأخ أن غايتنا فى إثبات هذا النقل الإنتصار لشبهة الدفوف والمزامير مما يفعله بعض المنتسبين بالقوم أنما الغرض هو أن نذكر لك كيغف كان تساهل الإمام مع المنتسبين للتصوف ولو مع إرتكابهم لبعض المشتبهات وهذا ما يخص الإمام أبى حنيفة بإختصار

الإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل

أما ما جاء عن الإمام الشافعى رضى الله عنه فيزيد على ذلك بكثير حسبما نقل عنه فى غير كتاب ما وممن تتبع ذلك الإمام الشعرانى فقال : نقلا عن الأمام الشافعى إستفدت من مجالسهم أمرين لم أستفدهما من مشايخ العلم قولهم الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك وقولهم : إشغل نفسك بالخير فإن لم تشغلها بالخير شغلتك بالباطل . وقد ذكره الإمام النووى فى شرح المهذب

وقال : الإمام الشعرانى كثيرا ما كان الشافعى يوصى الإمام أحمد بن حنبل بإحترامهم ومجالستهم .ويشهد لذلك ما جاء فى كتاب مجالس الصوفية وكانا يحضران معهم فى مجالس ذكرهم فقيل لهما ما لكما تترددان إلى مثل هؤلاء فقالا : لهم إن هؤلاء عندهم رأس الأمر كله وهو تقوى الله ومحبته وكان الإمام الشعرانى يقول : كفى مدحا إذعان الإمام الشافعى لشيبان الراعى وكان لذلك قصة معروفة . وكذلك ذكر الإمام الشعرانى إذعان الإمام أحمد له بعد ما ذكر عدة حكايات جرت بينهما فى مسائل علمية فلتراجعوا تلك المظان إن كانت لكم سعة من الوقت وطلبتم سعة من العلم والوضوح وبالجملة إن إذعان أئمة الإجتهاد لرجال التصوف كان مشتهرا فى ذلك العصر وعلى الأخص منهم الإمام الشافعى رحمه الله تعالى . وقد ذكر الشيخ المختار الكنتى فى كتابه جذوة الأنوار أن الإمام الشافعى كان كثير الإلتجاء للأولياء متفانيا فى حبهم وكان يقول : هم أصلى وفصلى وإليهم يحن قلبى إلا أن رماه بعض المعتزلة بالرفض فقال : مجيبا لهم

قالوا ترفضت غير شك

ما الرفض دينى ولا إعتقادى

لكنى توليت من غير شك

خير إمام وخير هاد

إن كان حب الولى رفضا

فإننى أرفض العباد

وقال : من أحب أهل البيت نظير ذلك معلنا إجلاله لهم

إن كان رفضا حب آل محمد

فليشهد الثقلان أن رافضى

ومن المعلوم أن أئمة الصوفية معظمهم من أهل البيتفهم دعاة وهداة إلى الحق لقول : رسول الله صلى الله عليه وسلم تركت فيكم من إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وعترتى أهل بيتى .
وفى رواية " تركت فيكم ثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبدا أما الثقل الأكبر فهو كتاب الله تعالى حبل ممدود بين السماء والأرض طرفه بيد الله وطرفه الآخر بأيديكم وأما الثقل الثانى فعترتى أهل بيتى فقد أنبأنى اللطيف الخبير بأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض يوم القيامة " . **رواه الإمام أحمد والترمذى والحاكم وغيرهم**

كبار أهل التصوف هم الأئمة من أهل البيت

بدءا من الإمام جعفر الصادق ومن بعده الإمام الجنيد وكان يسمى بسيد الطائفة ثم الإمام الرفاعى فعبد القادر الجيلانى وكان الشيخ ابن تيمية يجله بقوله : قدس الله تعالى سره إذا ذكره ويقدره ويستشهد بحاله فى مكانه العلماء الأجلاء فى الإسلام كما كان يستشهد بأقواله فى إستقامة أهل التصوف السنى كما يجل الإمام الجنيد سيد الطائفتين الفقهاء والصوفية ومعروف الكرخى والحارث المحاسبى والسرى السقطى وغيرهم ولمن أراد أن يتأكد عليه مراجعة المجلد العاشر والحادى عشر من فتاوى ابن تيمية ففيهما تفصيل واسع والشيخ ابن القيم الجوزية من الصوفية لسيرتهما وإنصافهما منهج التصوف الحق وأهله .

شهادات الأئمة وأكابر العلماء والحفاظ من
السلف وآراؤهم حول التصوف

إن للعلامة المحقق الشيخ عبد القادر عيسى كتاب سماه حقائق عن التصوف نقل فيه شهادات وآراء أكابر العلماء والحفاظ حول التصوف والمتصوفة والصوفية ننقل بعضا منها هنا : -

أولا – طريقة الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت توفى سنة 150 هجرية نقل الفقيه الحصفكى صاحب كتاب الدر المختار

إن أبا على الدقاق رحمه الله تعالى قال : أنا أخذت التصوف من الشبلى وهو من السرى السقطى وهو من داود الطائى وهو أخذ العلم والطريقة من الإمام أبى حنيفة وكل منهم أثنى عليه وأقر بفضله .

يقول : ابن عابدين فى حاشيته على الدر المختار عن الإمام أبى حنيفة رحمه الله تعالى وهو فارس فى هذا الميدان فإنه بنى علم الحقيقة على العلم والعمل وتصفية النفس وقد وصفه بذلك عامة السلف

وقال : الشيخ عبد القادر عيسى لعلك تستغرب عندما تسمع إن الإمام الكبير أبا حنيفة النعمان رحمه الله تعالى يعطى الطريقة لأمثال هؤلاء الأكابر من الأولياء والصالحين من الصوفية فهل تأسى الفقهاء بهذا الإمام وساروا على نهجه وجمعوا بين الشريعة ولحقيقة لينفع الله تعالى بعلمهم كما نفع بإمامهم الأعظم الإمام الكبير معدن التقوى والورع أبى حنيفة رحمه الله تعالى

ثانيا – الإمام مالك بن أنس توفى سنة 179 هجرية

يقول : الإمام مالك رحمه الله تعالى من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق

نقلا عن حاشية العلامة العدوى وشرح عين العلم للملا القارى

ثالثا – الإمام الشافعى توفى سنة 204 هجرية

ذكر الحافظ عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى رحمه الله فى كتابه تأييد الحقيقة العلمية أن الإمام الشافعى رحمه الله تعالى قال : صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى ثلاث كلمات قولهم الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك وقولهم نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل وقولهم العدم عصمة

وذكر العجلونى فى كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما أشتهر من الأحاديث بين الناس أن الإمام الشافعى رحمه الله تعالى قال : حبب إلى من دنياكم ثلاث ترك التكلف وعشرة الخلق بالتلطف والإقتداء بطريق أهل التصوف

رابعا – الإمام أحمد بن حنبل توفى سنة 241 هجرية

نقل الشيخ أمين الكردى عن الإمام أحمد فى كتابه تنوير القلوب أنه كان يقول : لولده عبد الله قبل مصاحبة الصوفية يا ولدى عليك بالحديث وإياك ومجالسة هؤلاء الصوفية فإنهم ربما كان أحدهم جاهلا بأحكام دينه فلما صحب أبا حمزة البغدادى الصوفى وعرف أحوال القوم أصبح يقول : لولده يا ولدى عليك بمجالسة هؤلاء القوم فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة .

ونقل العلامة محمد السفارينى الحنبلى رحمه الله

أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قال عن الصوفية لا أعلم أقواما أفضل منهم فقيل : له إنهم يستمعون ويتواجدون قال : دعوهم يفرحوا مع الله تعالى ساعة قيل : فمنهم من يموت ومنهم من يغشى عليه قال : (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) **الزمر 47**

خامسا – عبد القاهر البغدادى توفى سنة 429 هجرية الإمام الكبير حجة المتكلمين عبد القاهر البغدادى رحمه الله صنف فى مقدمة كتابه الفرق بين الفرق أهل السنة والجماعة إلى ثمانية أصناف فقال : عن الصوفية والصنف السادس منهم الذين أبصروا فأقصروا وأختبروا فاعتبروا ورضوا بالمقدور وقنعوا بالميسور وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك مسئول عن الخير والشر ومحاسب على مثاقيل الذر فأعدوا خير الإعداد ليوم الميعاد وجرى كلامهم فى طريقتى العبادة والإشارة على سمت أهل الحديث دون من يشترى لهو الحديث لا يعلمونه رياء ولا يتركونه حياء دينهم التوحيد ونفى التشبيه ومذهبهم التفويض إلى الله تعالى والتوكل عليه والتسليم لأمره والقناعة بما رزقوا والإعراض عن الإعتراض عليه (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) **الجمعة 4**

سادسا- الإمام الغزالى توفى سنة 505 هجرية

حجة الإسلام أبو حامد الغزالى رحمه الله قال : فى كتابه المنقذ من الضلال ولقد علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق

سابعا – الإمام فخر الدين الرازى توفى سنة 606 هجرية العلامة الكبير روالمفسر الشهير الإمام الرازى قال : فى كتابه إعتقادات فرق المسلمين والمتصوفة قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس من العلائق الجسمانية ويجتهدون أن لا يخلو سرهم وبالهم عن ذكر الله تعالى فى سائر تصرفاتهم منطبعون على كمال الآداب مع الله عزوجل وهؤلاء هم خير فرق الآدميين .

ثامنا – العزبن عبد السلام توفى سنة 660 هجرية سلطان العلماء قال : رحمه الله تعالى قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التى لا تنهدم دنيا وآخرة وقعد غيرهم على الرسوم وله كتاب فى التصوف كله عن التصوف وكيف يكون الإنسان خليفة الله فى أرضه

تاسعا – الإمام النووى توفى سنة 676 هجرية الإمام محيى الدين يحيى بن شرف النووى رحمه الله تعالى قال : فى رسالته المقاصد أصول التصوف خمسة تقوى الله فى السر والعلانية وإتباع السنة فى الأقوال والأفعال والإعراض عن الخلق فى الإقبال والإدبار والرضى عن الله تعالى فى القليل والكثير
والرجوع إلى الله تعالى فى السراء والضراء

عاشرا - تاج تالدين السبكى توفى سنة 771 هجرية الإمام تاج الدين عبد الوهاب السبكى رحمه الله قال : فى كتاب مفيض النعم ومبيد النقم تحت عنوان الصوفية بعد شرح مستفيض وحديث عن تعاريف الصوفية

الحاصل أنهم أهل الله تعالى وخاصته ترتجى الرحمة بذكرهم ويستنزل الغيث بدعائهخم فرضى الله عنهم وعنى بهم

الحادى عشر – جلال الدين السيوطى توفى سنة 911 هجرية العلامة الشهير جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى رحمه الله قال : فى كتابه تأييد الحقيقة العلية

إن التصوف فى حقيقته علم شريف مداره إتباع السنة وترك البدع والتبرى من النفس وعوائدها وحظوظها وأغراضها وإرادتها وإختياراتها والتسليم لله تعالى والرضى بقضائه وإحتقار ما سواه

الثالث عشر – ابن تيمية

يقول : ابن تيمية عن تمسك الصوفية بالكتاب والسنة فى قسم علم السلوك من فتواه ما نصه والشيخ عبد القادر الجيلانى رحمه الله ونحوه من مشايخ زمانهم أمروا بالإلتزام للشرع والأمر والنهى وتقديمه على الذوق والقدر وهو من أعظم المشايخ أمر بترك الهوى والإرادة النفسية فإن الخطأ فى الإرادة من حيث هى إنما تقع من هذه الجهة فهو يأمر السالك أن لا تكون له إرادة من جهته أصلا بل يريد ما يريد الرب عزوجل إما إرادة شرعية إن تبين له ذلك وإلا جرى مع الإرادة القدرية فهو إما مع الرب وإما مع خلقه وهوسبحانه له الخلق والأمر وهذه طريقة شرعية صحيحة

ذكر أقوال بعض كبار العلماء فى التصوف

قال: الشيخ عبد القادر البغدادى وقد إشتمل كتاب تاريخ الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى على زهاء ألف شيخ من الصوفية

قال : أحمد بن زروق حد التصوف رسم وفسر بوجوه تبلغ نحو ألفين ترجع كلها إلى لصدق التوجه إلى الله تعالى وإنما هى وجوه فيه وصدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى ولا يضع مشروط بدون شرط (وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) . **الزمر 7**

فلزوم العمل بالإسلام فلا تصوف إلا بفقه إذ لا تعرف أحكام الله تعالى الظاهرة إلا منه ولا فقه إلا بتصوف إذ لا عمل إلا بصدق التوجه إلى الله تعالى ومنه قول الإمام مالك رحمه الله

وقال : الإمام عبد الوهاب الشعرانى إن طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة ومبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء وهى لا تكون مذمومة إلا إذا خالفت صريح القرآن أو السنة أو الأحكام لا غير وأما إذا لم تخالف فغاية الكلام أنه فهم أوتيه رجل مسلم فمن شاء فليعمل به ومن شاء تركه وما بقى فى باب الإنكار إلا سوء الظن بهم وحملهم على الرياء وذلك لا يجوز شرعا ىفمن دقق النظر علم أنه لا يخرج شىء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة وكيف تخرج علومهم عن الشريعة والشريعة هى وصلتهم إلى الله عزوجل فى كل لحظة ولكن أصل إستغراب من لا إلمام له بأهل الطريق أن علم التصوف من عين الشريعة وكونه لم يتبحر فى علم الشريعة ولذلك قال الجنيد رحمه الله علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة ردا على من توهم خروجه عنهما فى ذلك الزمان أوغيره وقد إجمع القوم على أنه لتا يصلجح للتصدر فى طريق الله عزوجل إلا من تبحر فى علم تاالشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها وتبحر فى لغة العرب حتى عرف مجازاتها وإستعاراتها وغير ذلك فكل صوفى فقيه ولا عكس وبالجملة فما أنكر أحوال الصوفية إلا من جهل حالهم

قال : الإمام القشيرى رحمه الله

لم يكن عصر فى مدة الإسلام وفيه شيخ لهذه الطائفة إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له وتبركوا به ولولا مزية وخصوصية القوم لكان الأمر بالعكس

قال : محمد أمين الكردى النقشبندى فحد التصوف علم يعرف به أحوال لنفس محمودها ومذمومها وكيفية تطهيرها من المذموم منها وتحليتها بالإتصاف بمحمودها وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى والفرار إليه (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) **الذاريات 50**

وثمرته تهذيب القلوب ومعرفة علام الغيوب ذوقا ووجدانا والنجاة فى الآخرة والفوز برضا الله تعالى ونيل السعادة الأبدية وتنوير القلب وصفاؤه بحيث تنكشف له أمور جليلة ويشهد أحوالا عجيبة ويعاين ما عميت عنه بصيرة غيره .

فصل

رأى علماء الإسلام المعاصرين فى التصوف

دار الإفتاء المصرية

سؤال ورد إلى فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمد سيد طنطاوى وكان حينئذ مفتى الديار المصرية

والسؤال – ما مدى مشروعية التصوف ؟

ثانيا – ما هو رأى العلماء فى السادة الصوفية الأوائل أمثال الجنيد والبغداددى وبشر بن الحارث والمحاسبى والكرخى والشيخ عبد القادر الجيلانى والسيد أحمد البدوى وغيرهم من أعلام الأمة ؟

ثالثا – ما حكم من يكفر جميع الصوفية أو ينسبهم إلى الشرك

رابعا – هل للصوفية عقيدة خاصة تخالف عقيدة أهل السنة والجماعة ؟

خامسا – ما حكم التشهير بهم ؟

رد دار الإفتاء المصرية

الجواب - التصوف الحقيقى معناه الحرص التام على الإكثار من ذكر الله تعالى وعلى آداء التكاليف التى كلف بها سبحانه بها عباده وعلى تصفية الروح والقلب من كل ما يتنافى مع آداب الإسلام وعقائده مع التقيد التام بقوله : تعالى (وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

القصص 77

ورأى العلماء فى السادة الصوفية الأوائل أمثال الجنيد البغدادى وبشر بن الحارث والحارث المحاسبى وغيرهم أنهم كما قرأنا عنهم رجال صالحون حافظوا على فرائض الله تعالى وعلى التحلى بمكارم الأخلاق وبذلوا ما بذلوا من جهود فى سبيل نشر دعوة الحق وتذكير الناس بما يجب عليهم نحو خالقهم ونحو أنفسهم ونحو غيرهم وبنوا حياتهم على قوله : تعالى (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

المائدة 2

وعلى قوله : تعالى (الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) **الرعد 28**

وقد عاشوا حياتهم لنشر العلم والمعرفة على حسب فهمهم واجتهادهم وحكم من يكفر جميع الصوفية أو ينسبهم للشرك أنه إنسان مخطىء وآثم لأن تكفير من ينطق بالشهادتين ومن لم ينكر أمرا ثبت من الدين بالضرورة لا يجوز ولا يليق بعاقل وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال المسلم لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه

وفى الصحيح أيضا عن أبى ذر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من دعا رجلا بالكفر أو قال يا عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه "

وفى حديث ثالث " بحسب إمرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم "

لا نعرف للصوفية الحقيقية التى هى بمعنى تطهير النفس وتزكيتها عقيدة خاصة تخالف وتجافى عقيدة أهل السنة والجماعة لأن الدعوة لتطهير النفس وتزكيتها من أركان عقيدة أهل السنة والجماعة وإذا وجد أناس ينسبون أنفسهم إلى الصوفية ولكنهم

يقولون أو يفعلون ما يخالف عقيدة الإسلام وآدابه فالصوفية الحقيقية بريئة منهم وهم برءاء منها لا يصح التشهير بالمنتسبين إلى الطرق الصوفية الذين يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والذين يحرصون على الإقتداء بالنبى صلى اله عليه وسلم فى قوله وفعله والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر والذين يجتمعون ععلى طاعة الله تعالى وذكره ومن يشهر بهؤلاء وحالهم فإنه يكون آثما ومرتكبا لجرم عظيم يستحق عليه العقاب من الله تعالى والشأن فى المسلم الصادق أنه يبنى حياته مع أخيه المسلم على حسن الظن لا على سوء الظن وصدق الله العظيم إذ يقول : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

الحجرات 12

كما أن من شأن المسلم الصادق أيضا أن ينصح غيره بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يجادله فيما يختلفان فيه من أمور بالطريقة المهذبة والتى ترضى الله تعالى هذا وبالله التوفيق

الإمام محمد عبده ورحلته مع التصوف

ورد هذا الحديث فى مجلة الهلال سنو 1985 وقد خصص جزءا عن التصوف

ما زال التصوف منذ عرفه المسلمون يعلو صوته فى كل المناسبات الدينية بعد أن عاش فى المجتمع الإسلامى من الأندلس إلى الهند مئات السنين وأثر فى هذا المجتمع

المترامى الأطراف أثرا لا يجادل أحد فى عنقه وما زال الجدل دائرا حوله حتى اليوم كان من بين موضوعات هذا الجزء مقال للأستاذ مصطفى نبيل رئيس تحرير مجلة الهلال عن الإمام محمد عبده ورحلته مع التصوف

يقول : الكاتب فى مقدمة المقال

الإمام محمد عبده أحد أبرز العقول العربية التى ظهرت فى الفكر العربى المعاصر وأحد أعلام الإصلاح وما زالت كتاباته تمثل إضافات مهمة فى حياتنا الثقافية فهى تلح فى إعمال العقل واللحاق بالعصروقد حدد الإمام رسالته فى أمرين : -

أولهما – الدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد

ثانيهما – التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .

ورحلة الأستاذ الإمام مع الطرق الصوفية رحلة غنية بالتجربة وهى ذاتها رحلة الوجدان المصرى معها وهو يدعوا إلى التصوف بمعنى الزهد ومجاهدة النفس وكأسلوب أمثل فى التربية ويرفض فى نفس الوقت شطحات الصوفية والإنسحاب من معركة الحياة ، والتصوف هو الحقيقة الكبرى فى حياة مصر والعديد من دول الشرق وآثاره واضحة على كافة مجالات الحياة وللطرق الصوفية مكان بارز فى تاريخ ووجدان الشعب المصرى ويكفى أن نعرف أن أول ظهور للصوفية كان على أرض مصر حوالى سنة 200 هجرية – 800 ميلادية كما ذكر الكندى ونقله المقريزى بقوله : ظهرت فى الأسكندرية طائفة يسمون الصوفية يأمرون بالمعروف ويعارضون السلطان وترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى وانتقل الصوفية بعد إلى بغداد

الإمام ورحلته مع التصوف

كان موضوع أول كتاب نشر له وعاش فى هذه الفترة حياة تقشف وزهد حتى وصفه صاحب المنار السيد رشيد رضا بقوله : إنه صادف تربية صوفية نقية بقية زهدته فى الشهوات والجاه الدنيوى وكان التصوف عنده رياضة نفسية وفكرية ، لذلك كان فى هذه الفترة حرب على البدع والخرافات وانصرف إلى أمور التربية ، وكان التصوف أحد إهتماماته وعالج فى كتاباته الكثير فى شئونه كما تناول عقائد العامة التى يرى أنها ألفاظ لا تمت إلى الدين بسبب فهى عند الجمهور عودة إلى العقائد الجبرية التى تذهب إلى أنه لا حرية ولا إختيار للإنسان فيما يفعل كذلك ويتسنا سوق الفرق بين الجوهرى وغير الجوهرى وأخذوا ينظرون إلى تفاصيل المجتمع الإسلامى الأول كما لوكانت من قواعد الإيمان يقتضى لهم طاعتها مما اعتبروه نوعا من التصوف فى التمسك بظواهر الشريعة ويحلل الكثير بقوله : قد اشتبه على بعض الباحثين فى تاريخ الإسلام ما حدث فيه من البدع والحالات التى شوهت جماله والسبب سقوط المسلمين فى الجهل بدينهم وبعدهم عن التوحيد الخالص الذى هو أس النجاة ومدار حجة الأعمال وليس الأمر كما ظنوا فقد ظهر التصضوف فى القرون الأولى للإسلام فكان له شأن عظيم ، وكان المقصود منه تقويم الأخلاق وتهذيب النفوس وترويضها بأعمال الدين وجذبها إليه وجعله وجدانا لها وتعريفها بحكمه وأسراره بالتدريج وكان الفقهاء ينكرون عليهم معرفة أسرار الدين ويرمونهم بالزيغ والإلحاد وكانت السلطة

للفقهاء لحاجة الأمراء والسلاطين إليهم فاضطر الصوفية إخفاء أمرهم ووضع الرموز والإصطلاحات الخاصة بهم وعدم قبول أحد إلا بشروط وإختبار طويل وأن يكون أولا طالبا فمريدا فسالكا وبعد السلوك إما أن يصل وإما أن ينقطع وأخذ الأمر بقول الفقهاء فيهم فأولئك يكفرون وهؤلاء يعذبون ويقتلون ، وهذا هو سبب ظهورهم بغير مظهر طائفتهم ولجوئهم إلى الإختفاء وكلامهم فى الطريق وما يحصل لهم من الذوق والوجدان بالرمز والإشارة ثم يواصل رئيس تحرير الهلال حديثه قائلا : وقد لمس الأستاذالإمام بمبضعه أهم الإنتقاضات التى توجه إلى الطرق الصوفيه وهو العزلة عن الحياة العامة وقدم تخليله قائلا : إن الفقهاء لبعدهم عن التصوف جهلوا سياسة وقتهم وحاله ولجهلهم بالسياسة لم يعرفوا كيف يمكن تنفيذ الأحكام الشرعية وإذا عرفوا الحكم لا يعرفون كيف يجعلون الأمراء والحكام يلتزمون هذا الحكم ولهذا ضاع الدين والسياسة فاحتقرهم الأمراء والسلاطين فى أنفسهم واستخدموهم لأغراضهم التى تؤيد سلطتهم ونفوذهم وحملوهم على الفتوى بما يؤيد رغائبهم ولا يوافق الشرع فدققوا النظر واستنبطوا لهم ما يطلبون وأفتوهم فى كتب الفقه على أنها أحكام شرعية نعم ظهر عند الصوفية كلام ما كان ينبغى أن يظهر ولا أن يكتب ومنه ما يوهم الحلول ولو كنت سلطانا لضربت عنق من يقول به وأنا لا أنكر أن لهم أذواقا خاصة وعلما وجدانيا بل ربما حصل شيء من ذلك وقتا ما لكن هذا خاص بمن يحصل له ولا يصح أن ينقله لغيره بالعبارة ولا أن يكتبه ويدونه علما . إن هذا يحصل للإنسان فى حالة غير طبيعية ولكونه خروجا عن الحالة الطبيعية لا ينبغى أن يخاطب به المتقيد بالنواميس الطبيعية

تربية المريدين بالعلم والعمل

كان غرض صوفية المسلمين تربية المريدين بالعلم والعمل الذى غايته أن يكون الدين وجدانا فى أنفسهم تصدر عنه الأعمال الصالحة ولا تؤثر فيه الشبهات العارضة ثم يختتم رئيس تحرير الهلال مقاله مؤكدا على أن الأستاذ الإمام قد حافظ على طبيعة الصوفى الذى يستخف بالدنيا ولا يتهالك عليها ورأى فى التصوف أفضل أسلوب للتربية فبالرياضة والمجاهدة وذكر الله تعالى يتحرر الإنسان وترتقى معارفه ولا بد أن نتوقف عند قوله : من يرد خيرا للبلاد فلا يسعى إلا فى إتقان التربية وبعد ذلك يأتى له جميع ما يطلبه .

فصل

رأى علماء السادة الصوفيون فى بعض الشبهات التى تثار حولهم الصوفية والرمزية فى التعبير

إن من أبرز ما يميز التصوف إستخدام الرمز فى التعبير عن حقائق التصوف ويظهر لنا الإمام القشيرى فى الرسالة على تلك الدوافع التى دفعت أولئك الصوفية إلى اصطناع الرمزية فى التعبير قائلا : اعلم – أن من المعلوم أن كل طائفة من العلماء لهم ألفظ يستعملونها انفردوا بها عمن سواهم وتواطئوا عليها لأغراض لهم فيها تقريب الفهم على المخاطبين بها أو تسهيل على أهل تلك الصنعة فى الوقوف على معانيهم بإطلاقها وهذه الطائفة الصوفية مستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم والإجماع والستر على من باينهم فى طريقهم لتكون معانى ألفاظهم مستبهمة على الأجانب غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع فى غير أهلها إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف أو مجلوبة بضرب تصرف بل هى معان أودعها الله تعالى فى قلوب قوم واستخلص لحقائقها أسرار قوم

تعد الرمزية فى التعبير لغة اصطلاحية

يتبين من كلام الإمام القشيرى أنه أصبحت للصوفية لغة اصطلاحية خاصة إتفقوا عليها فيما بينهم بحيث يفهمونها هم ولا يفهمها غيرهم بل إنها مبهمة على من ليس بصوفى لأن هذه اللغة تعبر عن أسرار وحقائق ذوقية وهبها الله تعالى للصوفية وهم يخشون أن تشيع هذه الحقائق والأسرار بين من ليسوا أهلا لها .

معنى الرمز عند الصوفية

ويبين لنا الطوسى فى اللمع معنى الرمز عند الصوفية قائلا : الرمز معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهله وقد يطلق الرمز عند الصوفية الإشارة فى مقابل العبارة فالإشارة عندهم ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارات للطافته وهى كناية وتلويح وإيماء لا تصريح

إشتراط الصوفية قبل التعبير عن حقائق التصوف عرضها على القرآن والسنة

قال : الصوفى رويم أصح الحقائق ما قارن العلم

وأشار الإمام الجنيد إلى ذلك بقوله : الصواب كل نطق عن إذن وهذا الإذن عند إشارة إلى قوله : تعالى (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) **النبأ 38**

وذلك التمييز راجع أساسا إلى أنهم حاولوا أن ينقلوا تجربة نفسية فائقة إلى الغير من لغة الأشياء المحسوسة ولذلك كانت كل كلمة عندهم رمزا أستخدم لا لغرضه المألوف وإنما للتعبير عن حقيقة تفوق الحس وألفاظ للغة موضوعة أصلا لمحسوسات ومن هنا بدأ كلامهم غربيا على السامعين ومن هنا جاء الإنكار عليهم من خصومهم

يقول : الكلاباذى – اصطلحت هذه الطائفة على ألفاظ فى علومها تعارفوها بينهم ورمزوتا إليها فأدركه صاحبه وخفى على السامع الذى لم يحل مقامه فإما أن يحسن ظنه بالقائل فيقبله ويرجع إلى نفسه فيحكم عليها بقصور فهمه عنه أو بسوء ظنه به فيهوس قائله وينسبه إلى الهذيان .

اصطلاحات الصوفية ورموزهم
ليست مجرد ألفاظ بل هى معانى

إنه لا ينبغى النظر إلى اصطلاحات الصوفية أو رموزهم على أنها مجرد ألفاظ بل هى تدل على المعانى التى وضعت لها فى حالة حركية وتصور اتجاه الإنفعالات والأفكار التى تعتلج بها نفس المتصوف تصويرا حيا فهى بمثابة أدوات توقظ مشاعر سامعيها بمعنى الكلمة بشرط أن يكونوا من أهل الذوق لها وهذه الخاصية وهى تعذر التعبير عن حقائق التصوف بألفاظ اللغة موجودة فى كل أنواع التصوف ، وقد درس الأستاذ إستيس هذه المسألة بتعمق فى كتابه التصوف والفلسفة ذلك فى فصل خاص عنوانه التصوف واللغة وهو يعرض فيه للنظريات المختلفة التى قيلت فى تفسير ذلك .

تعذر التعبير عن حقائق التصوف
بألفاظ اللغة يرجع أساسا أن اللغة
مصبوبة فى العقل

يرى استيس - أن تعذر التعبير عن حقائق التصوف بألفاظ اللغة راجع أساسا إلى أن اللغة مصبوبة فى قوالب العقل والصوفى بالضرورة يعيش فى العالم المكانى الزمانى حيث قوانين المنطق ولما كانت تجربته تنتمى إلى عالم آخر هو عالم الواحد لا الكثير فهو حين ينتهى من تجربته ويريد أ، ينقل مضمونها إلى الغير من خلال عملية تذكر لها تخرج الكلمات من فمه فيدهش حين يجد نفسه يتحدث بالمتناقضات وهنا يتهم اللغة بالقصور ويعلم أن تجربته مما لا يمكن التعبير عنها .

الفناء

مفهوم الفناء عند الصوفية : إن المتأمل فيما يذكره أولئك الصوفية عن الفناء له أكثر من معنى فهو يشير عندهم أحيانا إلى معنى أخلاقى يعرفونه بأنه فناء النفس أو أنه سقوط الأوصاف المذمومة فمن فنى عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة .

وقيل : أيضا إن الفناء يعنى الفناء عن حظوظ النفس وهم يعنون أيضا بالفناء فتاء الإنسان عن إرادته وبقائه بإرادة الله تعالى وإلى هذا أشار الطوسى بقوله : الفناء هو فناء رؤيا العبد فى أفعاله لأفعاله بقيام الله تعالى له فى ذلك ويشير الإمام القشيرى إليه بقوله : ومن شاهد جريان القدرة فى تصاريف الأحكام يقال فنى عن حسبان الحدثان من الخلق وهذا الفناء الذى سماه المتأخرون من الصوفية بالفناء عن إرادة السوى

معانى الفناء

إن من معانى الفناء عندهم أيضا الفناء عن رؤية الأغيار أو بعبارة أخرى الفناء عن شهود الخلق وإلى هذا يشير القشيرى بقوله : إذا فنى أى الصوفى عن توهم الآثار من الأغيار بقى بصفات الحق ومن إستولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عينا ولا أثرا ولا رسما ولا طللا يقال أنه فنى عن الخلق وبقى بالحق وهناك خاصية معنية للفناء الصوفى من الناحية السيكولوجية يذكرها الصوفية وهى ذهاب الحس والوعى فلا يعود الصوفى يحس بشىء من جوارحه ولا بنفسه ولا بالعالم الخارجى ويمكن القول : بلغة علم النفس الحديث إن حالة الفناء هى الحالة الوجدانية التى يفقد فيها الشخص مؤقتا شعوره بالأنا وهى فى اصطلاح الصوفية أيضا عدم شعور الشخص بنفسه ولا بشىء من لوازمها ويحاول الإمام القشيرى تقريب حال الفناء إلى الأذهان فيقول : وقد نرى الرجل يدخل على ذى سلطان أو

محتشم فيذهل عن نفسه وعن أهل مجلسه وربما يذهل عن ذلك المحتشم حتى إذا سئل بعد خروجه من عنده عن أهل مجلسه لا يمكنه الإخبار بشىء

الدليل من القرآن الكريم

يستدل على هذا الحال من القرآن الكريم قائلا : قال : تعالى (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) **يوسف 31**

أى لم يجدن النساء عند لقاء يوسف عليه السلام على الوهلة ألم قطع الأيدى وهن أضعف الناس (وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا) **يوسف 31**

ولقد كان بشرا وقلن (إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) **يوسف 31**

ولم يكن ملكا فهذا تغافل مخلوق عن أحواله عند لقاء مخلوق فما ظنك بمن تكاشف بشهود الحق سبحانه فلو تغافل بإحساسه عن نفسه وأبناء جنسه فأى أعجوبة فى ذلك

الفناء عند الصوفية حالا عارضا

لا يدوم

يعتبر الفناء عند الصوفية حلا عارضا لا يدوم للصوفى لأنه لو دام لتعارض مع آدائه لفروض الشرع قال : الكلاباذى فى كتابه التعرف وحالة الفناء لا تكون على الدوام لأن دوامها يوجب تعطيل الجوارح عن آداء المفروضات وعن حركاتها من أمور معاشها والفناء عند الصوفية فضل من الله تعالى وموهبة العبد وليس من الأفعال المكتسبة وينفى الكلاباذى عن الفناء الصوفى أيضا أنه حالة مرضية فيقول : وليس للفانى بالصعق ولا المعتوه ولا الزائل عنه صفات البشرية فيصير ملكا أو روحانيا ولكنه فنى عن شهود حظوظه .

مفهوم الإتحاد والحلول

أ- الحلول

يقول : الإمام الغزالى المفهوم من الحلول أمران : -

الأول - النسبة التى بين الجسم وبين مكانه الذى يكون فيه وذلك لا يكون إلا بين جسمين فالبرىء عن معنى الجسمية يستحيل فى حقه ذلك

الثانى - النسبة التى بين العرض والجوهر فإن العرض يكون قوامه بنفسه وإن كل قوامه بنفسه يستحيل أن يحل فيما قوامه بغيره إلا بطريق المجاورة الواقعة بين الأجسام فلا يتصور الحلول بين عبدين فكيف يتصور بين العبد والرب تعالى

ب - الإتحاد

أما الإتحاد فذلك أيضا أظهر بطلانا لأن قول: القائل إن العبد صار هو الرب كلام متناقض فى نفسه بل ينبغى تنزه الرب سبحانه عن أن يجرى إنسان فى حقه بأمثال هذه المحاولات ويقول : قولا مطلقا إن قول : القائل أن شيئا صار شيئا آخر محال على الإطلاق لأننا نقول : إذا عقل زيد وحده وعمرو وحده ثم قيل إن زيد صار عمرا واتحد به فلا يخلوا الإتحاد إما أن يكون كلاهما موجودين أو كلاهما معدومين أو زيد موجودا وعمرو معدوما أو بالعكس ولا يمكن قسم وراء هذه الأربعة فإن كانا موجودين فلم يصير أحدهما عين الآخر بل عين كل واحد منهما موجود وإنما الغية أن يتحد مكانهما وذلك لا يوجب الإتحاد فإن العلم والإرادة والقدرة قد تجتمع فى ذات

واحدة ولا يتباين محلها ولا تكون القدرة هى العلم ولا الإرادة ولا يكون قد اتحد بعضها البعض وإن كان معدومين فما اتحدا بل عدما ولعل الحادث شىء وإن كان أحدهما معدوما والآخر موجودا فلا اتحاد إذ لا يتحد موجود بمعدوم فالإتحاد بين الشيئين مطلقا محال وهذا جار فى الذوات المتماثلة فضلا عن المختلفة فالقول : فى حق الله تعالى بذلك ضلال وغفلة .

ما ذكره الإمام أحمد الرفاعى نافيا

الوحدة والإتحاد والحلول

والله يا هذا ما تم اتصال ولا حلول ولا إنتقال ولا حركة ولا زوال

ويقول اتبع ولا تبتدع كل حقيقة خالفت الشريعة فهى زندقة

ما ذكره الإمام أحمد الرفاعى فى كتابه

البرهان المؤيد

يقول : الطريق واضح صلاة وصوم وحج وزكاة والتوحيد والشهادة برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم أول الأركان وإجتناب المحرمات

ويقول : رضى الله عنه

الفقير (أى الصوفى) على الطريق ما دام على السنة فمن حاد عنها زل عن الطريق

ويقول : رضى الله عنه

كونوا مع الشرع فى آدابكم كلها ظاهرا وباطنا فإن من كان مع الشرع ظاهرا وباطنا كان الله تعالى حظه ونصيبه ومن كان الله تعالى حظه ونصيبه كان من أهل مقعد صدق عند مليك مقتدر

ويقول : الحارث المحاسبى وأبو يزيد البسطامى وهما من أكابر الصوفية رضى الله عنهم الشرع لا ينقص ولا يزيد

وقال : الإمام الشافعى والإمام مالك

إن الشرع يهدى لأنجح الطرق وأقرب المسالك شيدوا دعائم الشريعة بالعلم والعمل وبعدها ارفعوا الهمة للغوامض من أحكام العلم والعمل

ما ذكره الشيخ محمد زكى إبراهيم رائد العشيرة المحمدية فى كتابه العقائد المنحرفة

نقرر أننا تبرأ إلى الله تعالى من القول بإتحاد العبد بالرب بمعنى حلول الرب فى العبد أو فناء العبد فى الرب ونبرأ إليه من القول بوحدة الوجود التى تجعل الكون هو الله والله هو الكون ونبرأ إليه من القول بالحقيقة المحمدية بمعنى أن محمد هو الله أو هو الكون فالأمر منه وإليه ونبرأ إلى الله من القول بمخالفة الشريعة للحقيقة ومن كل فكر أو قول أو عمل يخالف ظاهر الشرع الشريف ونستغفر الله العظيم ونتوب إليه .

الباب الخامس

التصوف فى القرن الخامس الهجرى

إتخذ التصوف فى القرن الخامس الهجرى اتجاها إصلاحيا واضحا على أساس تمسك التصوف بالكتاب والسنة ويعتبر الإمام القشيرى والسهروردى من أبرز صوفية هذا القرن الذين نحو بالتصوف هذا المنحنى وسينهج نهجهم فى الإصلاح الإمام الغزالى

الإمام الغزالى والتصوف السنى

يعتبر الإمام الغزالى أكبر مدافع فى الإسلام عن التصوف السنى وهو التصوف القائم على عقيدة أهل السنة والجماعة وعلى الزهد والتقشف وتربية النفس وإصلاحها ويتفق الإمام الغزالى فى هذا مع صوفية القرنين الثالث والرابع الهجرى والذين أشرنا إليهم ومع الإمام القشيرى والسهروردى وغيرهم من السابقين عليهم الذين ينتمون إلى نفس الإتجاه على أن الإمام الغزالى أعظم هؤلاء جميعا من ناحية شخصيته وثقافته وتصوفه وعلمع وهو يعد بحق من أعظم صوفية الإسلام وأثره على التصوف من بعده كبير للغاية

تصوف الإمام الغزالى

قد فحص الإمام الغزالى مذاهب المتكلمين والفلاسفة والباطنية انتهى إلى إيثار التصوف واعتبر الصوفية وحدهم أرباب الحق ويضيف الإمام الغزالى طريقة الصوفية بأنها تتم بعلم وعمل وحاصل علمهم التخلق وكان طلبة لعلم الصوفية من كتبهم أيسر عليه بكثير من العمل ثم ظهر له بعد ذلك أن أخص خواص الصوفية ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحل وتبدل الصفات فالتصوف فى رأى الإمام الغزالى تجربة ومعاناة حقيقية فالصوفية على حد تعبيره أرباب أحوال لا أصحاب أقوال والمتأمل فى كتب الإمام الغزالى عن التصوف يرى أنه جعل منه علما بمعنى الكلمة فهو يكتب فيه بإسهاب وعمق ويحدد قواعده فى دقة منهجية ويضع آدابه فى صورة مفصلة ولا نجد لها مثيل ويمكننا القول : بأن الإمام الغزالى يتصور طريقا إلى الله تعالى بدايته مجاهدة النفس ثن تترقى النفس بالمجاهدة فى مقامات هذا الطريق وأحواله لتصل فى النهاية إلى الفناء والتوحيد والمعرفة والسعادة وفيما يلى بيان ذلك

أولا – السعادة

لقد وصف الإمام الغزالى طريق التصوف قى كتابه الإحياء لعلم الدين بحيث يمكن القول : أن هذا الكتاب كله على ضخامته وصف طريق السالك إلى الله تعالى من حيث بدايته ومراحله المختلفة و نهايته ويقول : الإمام الغزالى إن طريق الصوفية راجع إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ثم استعداد وانتظار للمعرفة وبهذا يتبين أن الإمام الغزالى يرى غاية الطريق الصوفى الترقى الخلقى بالمجاهدة واحلال الأخلاق المحمودة محل المذمومة حتى يصل السالك إلى المعرفة بالله تعالى فمدار الطريق إذن على الخلق

رياضة النفس أخلاقيا طب القلوب

يضيف الإمام الغزالى رياضة النفس أخلاقيا بأنها طب القلوب وهو مقدم عنده على طب الأبدان لأن أمراض الأبدان تؤدى فقط إلى فوت هذه الحياة أما أمراض القلوب فتفوت على الإنسان حياة الأبد هذا النوع من طب القوب واجب تعلمه على كل ذى لب إذ لا يخلوا قلبا من القلوب عن أقسام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت فيحتاج العبد إلى تأنق فى معرفة عللها وأسبابها ثم إلى تشميرها وعلاجها واصلاحها فمعالجتها هو المراد بقوله : تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) **الشمس 9**

وإهمالها هو المراد بقوله : تعالى (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) **الشمس 10**

الوسائل العملية للرياضة الصوفية

إن الإمام الغزالى يظهرنا على الوسائل العملية للرياضة الصوفية فمنها ضرورة إلتزام السالك بالأخذ عن شيخ فيقول : عن ذلك فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل فإن سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه وليتمسك بشيخه تمسك الأعمى على شاطىء النهر بالقائد بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ولا يخالفه

لا بد للشيخ المربى أن يراعى الفروق الفردية بين المريدين

يقول : الإمام الغزالى فكذلك اشيخ المتبوع الذى يطبب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغى أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص وفى طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمت قلوبهم بل ينبغى أن ينظر فى مرض المريد وفى حاله وفى سنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبنى على ذلك رياضته اصلاح القلب بإلتزام الخلوة والصمت والسهرويشير الإمام الغزالى على المريد السالك بإلتزام الخلوة والصمت والسهر وهذا من أجل اصلاح قلبه ليشاهد به ربه تعالى وفائدة الخلوة تفريغ القلب عن الشواغل الدنيوية التى تشكل العقبات الرئيسية فى الطريق إذ ليس سلوك الطريق إلا قطع العقبات ولا عقبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب التى سببها الإلتفات إلى الدنيا ويشير الإمام الغزالى إلى أن اصطناع الخلوة مردود إلى إعتزال النبى صلى الله عليه وسلم فى غار حراء وأما الصمت ففهو أيضا ذو فائدة للسالك من الناحية الروحية لأن الكلام يشغل القلب وشره القلوب إلى الكلام عظيم فالصمت كما يقول : الإمام الغزالى يلقح العقل ويجلب الورع ويعلم التقوى لكن الإمام الغزالى لا يعتى بالصمت الإمتناع عن الكلام نهائيا وإنما يعنى عنده ألا يتكلم المريد إلا بقدر الضرورة وأما عن الجوع ففائدته للسالك تنوير القلب وهو جوع يتدرج فيه السالك وهو يهذب الشهوات ، وأما عن السهر فإنه يجلو القلب ويصفيه وينوره فيضاف إلى ذلك الصفاء الذى حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدرى والمرآة المجلوة فيلوح فيه جمال الحق والسهر نتيجة الجوع فإن السهر مع الشبع غير ممكن والنوم يقسى القلب ويميته إلا إذا كان بقدر الضرورة

تأثرصوفية الطرق بقواعد السلوك التى وضعها الإمام الغزالى

قد تأثر صوفية الطرق فيما بعد بقواعد السلوك التى وضعها الإمام الغزالى فى هذا الصدد وبهذا يكون :-

أولا - أثر الإمام الغزالى فيمن جاء بعده غير قاصر على نظريات التصوف وإنما هو يتجاوزها إلى آدابه العلمية

ثانيا – المعرفة

يتميز الإمام الغزالى عمن سبقه من الصوفية بأن جعل التصوف طريقا إلى المعرفة بالله تعالى واضح المعالم والحدود وهو قد أفاض فى مصنفاته المختلفة فى التصوف وأبرزها إحياء علوم الدين عن المعرفة الصوفية من حيث أدائها ومنهجها

وموضوعاتها وغايتها مقارنا بينها وبين معرفة غير الصوفية والإمام الغزالى فى هذا كله يستخدم ثقافاته المتنوعة ومن هنا يمكن إعتبار نظريته فى المعرفة نظرية متكاملة إذا قورنت بما خلفه السابقون عليه فيها من أقوال متفرقة كما أعتبرت هذه النظرية تطورا ملحوظا فى التصوف الإسلامى ويرى الإمام الغزالى أن آداة المعرفة الصوفية هى القلب وليست الحواس ولا العقل والقلب عنده ليس تلك اللحمانية المعروفة المودعة فى الجانب الأيسر من صدر الإنسان وإنما هو اللطيفة الربانية الروحانية التى هى حقيقة الإنسان وقد يكون لها بالقلب الجسمانى تعلق إلا أن عقول الناس تحيرت فى إدراك وجه العلاقة بينهما وهو يرى أى القلب كالمرآة والعلم هو إنطباع صورة الحقائق فى هذه المرآة فإذا كانت مرآة القلب غير مجلوة فإنها لا تستطيع أن تعكس حقائق العلوم والذى يجعل مرآة القلب تصدأ فى رأى الإمام الغزالى هو شهوات البدن وأن الإقبال على طاعة الله تعالى والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذى يجلو القلب ويصفيه ويرى الإمام الغزالى أن المعرفة بالله تعالى فطرية وهى مركوزة فى القلب فكل قلب فهو صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر ربانى شريف وهو محل الأمانة التى حملها الله تعالى له وهى المعرفة والتوحيد ، ويعطينا الإمام الغزالى صورة أخرى للمعرفة فى القلب فيذكر أنها كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود وقد يتأخر وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفا وواضح أن منهج المعرفة عنده وعند غيره من الصوفية يغاير منهج المتكلمين والفلاسفة وقد أفاض الإمام الغزالى فى المقارنة بين المنهجين وهويرى أن منهج المعرفة الصوفية هو الكشف والمنهج الذى اصطنعه الصوفية ويعرف عننده‌م بالكشف منهج ذوقى خاص وهو إدراك وجدانى مباشر يختلف عن الإدراك الحسى المباشروالإدراك العقلى المباشر أو الحدث . ويعرفه الطوسى بأنه الكشف لبيان ما يستتر على الفهم فيكشف عنه العبد كأنه رأى عين

ثالثا ـ الكشف المباشر عند الإمام الغزالى يقابله الإستدلال العقلى

إن الكشف المباشر عند الإمام الغزالى يقابله الإستدلال العقلى الذى ينتقل فيه الذهن من معنى إلى معنى أو من مقدمة إلى نتائج عند المتكلمين والفلاسفة فالمعرفة قد تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهى على سبيل المبادأة والمكاشفة ولبعضهم بتعلم وإكتساب فالصوفية انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه على الله تعالى فمن كان لله كان الله له وكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهى بطريق الكشف والإلهام ويضيف الإمام الغزالى أن الكشف أحيانا بالنور على ما جاء فى وصفه لبيان كيفية وصوله إلى اليقين بعد الشك ولمم يكن ذلك بظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة .

رابعا ـ الإمام الغزالى يعتبر الكشف أرقى مناهج المعرفة

يعتبر الكشف عند الإمام الغزالى أرقى مناهج المعرفة وهو يقسم العارفين من حيث معرفتهم ومناهجهم فيها إلى ثلاثة أقسام فهناك إنسان عامى منهجه فى المعرفة التقليد

المحض وعناك المتكلم الذى منهجه الإستدلال العقلى ودرجته فى رأى الإمام الغزالى قريبة من درجة العامى وهناك بعد هذا وذاك العارف الصوفى الذى منهجه المشاهدة بنور اليقين . وعلى هذا فإيمان الصوفية ينطوى فيه إيمان العوام والمتكلمين ثم يتميز بعد ذلك بمزية إستحالة الخطأ لأن مشاهدتهم توجب اليقين .

خامسا ـ الإمام الغزالى ميز بين كشف الصوفية ووحى الأنبياء

حرص الإمام الغزالى على أن يميز بين كشف الصوفية ووحى الأنبياء حتى لا يخلط الناس بينهما فيقول فى كتابه إحياء علوم الدين ما نصه

اعلم – أن العلوم ليست ضرورية وإنما تحصل فى القلب بعض الأحوال تختلف الحال فى حصولها فتارة تهجم على القلب كأنها ألقيت فيه من حيث لا يدرى وتارة تكتسب بطريق الإستدلال والتعلم فالذى يكتسب بطريق الدليل وحيلة الإكتساب يسمى إلهاما والذى لا يحصل بالإستدلال يسمى إعتبارا وإستبصارا ثم الواقع فى القلب بغير حيلة وإجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدرى العبد كيف حصل له ومن أين حصل وإلى ما يطلع معه على السبب الذى منه إستفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك ، والأول يسمى إلهاما ونفثا فى الروع والثانى يسمى وحيا ويختص به الأنبياء والأول يختص به الأولياء والأصفياء والذى قبله وهو المكتسب بطريق الإستدلال يختص به العلماء .

أهل التصوف يميلون إلى العلوم الإلهية دون التعليمية لتقديمهم طريق المجاهدة وقطع العلائق

اعلم – أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهية دون العلوم التعليمية فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلل وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة ومهما حصل من ذلك كان الله تعالى هو المتوولى لقلب العبد والمتكمل له بتنويره بأنواع العلم

أشرف أنواع العلوم هو العلم بالله تعالى

يرى الإمام الغزالى أن موضوع المعرفة الصوفية لله تعالى وصفاته وأفعاله وهو أسمى موضوع لأسمى معرفة فيقول : وأشرف أنواع العلوم هو العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله فيه كمال الإنسان زوفى كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال وغايات المعرفة عند الإمام الغزالى هى التخلق والحب لله تعالى والفناء فيه سبحانه والسعادة . ذلك أن المعرفة عنده وعند من تقدمه من الصوفية كالإمام القشيرى تهدف إلى غاية متوقفة على طهارة القلب ونقائه والمعرفى علامة الهداية يقول : الإمام الغزالى كلما زادت المعرفة زاد التخلق والصفاء

حب الله تعالى ثمرة لمعرفته

يجعل الإمام الغزالى حب الله تعالى ثمرة لمعرفته إذ لا يتصور محبة إلا بمعرفة وإدراك إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ولا يستحق المحبة الحقيقية إلا الله سبحانه ومن أحب غير الله تعالى لا من حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله فى وقصوره فى معرفة الله سبحانه وتعالى وفيما يلى نتحدث بشىء من التفصيل عن الغايتين الأخرتين وهما السعادة والفناء

الفناء فى التوحيد أو علم المكاشفة

يظهر لنا الإمام الغزالى على أن العارف لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره ويعلم أنه ليس فى الوجود إلا هو وأفعاله ومن هذا حاله لا ينظر فى شىء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن القعل من حيث أنه سماء وأرض وحيوان وشجر بل ينظر إلى ذلك كله من حيث أنه صنع الواحد الحق فكل العالم إذا تصنيف الله سبحانه وتعالى فمن ينظر إليه من حيث أنه فعل الله تعالى وعرفه من حيث أنه فعل الله وأحبه من حيث فعل الله تعالى لم يكن ناظرا إلا فى الله تعالى ولا عارفا إلا الله تعالى ولا محبا إلا لله تعالى ومن هذا حاله هو الموحد الحق الذى لا يرى إلا الله تعالى بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث أنه عبد الله فهذا هو الذى يقال فيه إنه فنى عن التوحيد وأنه فنى عن نفسه وإليه الإشارة بقول : من قال : كنا بنا ففنيناعنا فبقينا بلا نحن .

بهذا الوضوح يصف الإمام الغزالى تجربة الفناء فى التوحيد الذى هو ثمرة المعرفة ويعيب على غيره ممن لم يحسن التعبير عنها قائلا : فهذه أمور أى الأمور المتعلقة بالفناء معلومة عند ذوى البصائر أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام أو بإشتغالهم بأنفسهم وإعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم . فهذا هو السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى على أن الإمام الغزالى من ناحية أخرى يرى أن التعبير عن حقائق التوحيد التى لا تنكشف حال الفناء بألفاظ اللغة يوقع صاحبه فى إشكالات لا حصر لها فيؤثر لذلك الإمساك عن الخوض فيها .

علوم التصوف

يقسم الإمام الغزالى علوم التصوف إلى قسمين : -

الأول – التصوف كعلم للمعاملة .

وهذا ما دونه فى الإحياء

الثانى – التصوف كعلم المكاشفة .

وهذا لا رخصة فى إيداعه الكتب ويرى الإمام الغزالى أن الواصل إلى المكاشفة قد خاض لجة الحقائق وعبر ساحل الأصول والأعمال واتحد بصفاء التوحيد وتحقق بمحض الإخلاص فلا يبق فيه منه شىء أصلا بل خمدت بشريته وفنى إلتفاته إلى صفاته البشرية بالكلية وليس المقصود فناء جسده وإنما فناء قلبه وليس المقصود بالقلب ذلك اللحم والدم بل السر اللطيف وهذا الفناء مقام من مقامات علوم المكاشفة منه نشأ خيال الحلول والإتحاد .

حقيقة التوحيد

يعقد الإمام الغزالى فى الإحياء فصلا عن حقيقة التوحيد يعرض فيه نظريته فى هذا الصدد وهو يقسم التوحيد إلى أربعة مراتب : -

الأولى – أن يقول الإنسان لا إله إلا الله بلسانه وقلبه غافل عن معنى قوله وهذا توحيد المنافقين

الثانى – أن يصدق بمعنى اللفظ كما صدق به عموم المسلمين وهذا أمر إعتقاد العوام

الثالث – أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها صادرة عن الواحد القهار .
رابعا – أن لا يرى فى الوجود إلا الله وهى مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء فى التوحيد .
ويرى الإمام الغزالى هذه المرتبة الرابعة أعلى المراتب لأن الموحد هنا لم يحضره فى شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث أنه كثير بل من حيث أنه واحد وهذه عى الغاية القصوى فى التوحيد .
يتبين مما سبق أن الإمام الغزالى حريص كل الحرص على الملائمة بين الفناء والعقيدة الإسلامية فى التوحيد فهو لا ينطلق كأصحاب وحدة الوجود وإنما يجعل الوحدة التى تتم فى حالة الشهود غير منافية للكثرة ويميز بين وجود الله سبحانه ووجود العالم .

ما ذكره نيكولسون عن نظرية الإمام الغزالى

يرى نيكولسون أنه أوصد بنظريته فى التوحيد الباب أمام وحدة الوجود فيقول : أما الغزالى نفسه فقد تشبث بنقطتين جوهرتين لم تخرج من أجلهما عقيدته فى الإسلام :-
الأولى – تقديسه للشرع
الثانية – وجهة نظره فى الإلهوية . فإنه أول من أوصد الباب فى وجه مذهب وحدة الوجود وذلك بقوله مع أهل السنة أن الله تعالى ذات واحدة مخالفة للحوادث وأنه بمقدار ما يتحقق فى النفس الإنسانية من صفات الكمال الإلهية يكون استعدادها لمعرفة الله وأن العبد عبد والرب رب ولن يصير أحدهما الآخر ألبتة .

ما ذكره استيس حول حقيقة هذه النظرية

يشير الأستاذ استيس إلى حقيقة نظرية الفناء فى الله عند الغزالى فهو يذكر أن الغزالى فى هدوء فلسفى ينكر تفسير هذه التجربة على أنها تقتضى الوحدة مع الله ويراها بالتأكيد متفقة مع اللاتينية dualism ومذهبه فى الفناء ذا طابع سيكولوجى .
ويرى ستيس أن الوصف السيكولوجى للفناء لا يقتضى من تلقاء نفسه أى نظرية منطقية أو وجودية فى الوحدة أو الكثرة لأن كلا النظرتين تتسق معه وهو أن الغزالى يذكر أن الفناء غيبة الوجود الفردى للذات فقط .

التعبير علم المكاشفة

يتفق الغزالى مع غيره من الصوفية فى أن التعبير عن جقائق التوحيد صعب للغاية ولا تصلح له اللغة العادية ومع أن أسلوب الغزالى بوجه عام واصح إلا أن ذلك فى نطاق علم المعاملة أما علم المكاشفة فليس إلى تدوينه من سبيل وإذا اضطر الصوفى إلى التعبير عنه لم يعبر إلا رمزا وفى ذلك يقول : الغزالى علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة التى لا رخصة فى ايداعها الكتب وإن كانت هى غاية مقصد الطالبين ومطمح نظر الصديقين وعلم المعاملة طريق إليه ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا فى علم الطريق والإشارة إليه . وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيحاء على سبيل التمثيل والإجمال علما منهم بقصور أفهام الخلق عن الإحتمال والعلماء ورثة الأنبياء فما لهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسى والإقتداء .

علم المكاشفة علم خفى لا يعلمه إلا أهل

العلم بالله تعالى

يرى الغزالى أن علم المكاشفة علم خفى لا يعلمه إلا أهل العلم بالله تعالى ولذلك فإن أصحابه يستخدمون رموزا خاصة ولا ينبغى التحددث فيه خارج نطاق أهله ويقول : الغزالى وأمثال هذه المعارف التى إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيه ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شىء من ذلك لمن لم ينكشف له .

السعادة

تعتبر السعادة غاية نهاية الطريق الصوفى عند الغزالى وهى ثمرة المعرفة بالله تعالى وقد خصص الغزالى رسالة لنظرية السعادة هى رسالة كيمياء السعادة كما عرض لهذه النظرية بالتفصيل أيضا فى مواضع متفرقة من الإحياء ويميز الغزالى عمن سبقه من الصوفية بأن جعل من السعادة نظرية متكاملة ولم يكن من قبله قد تناولوها بالتفصيل وإنما تحدثوا عنها من خلال حالى الطمأنينة والرضا

طريق السعادة هو العلم والعمل

يرى الغزالى أن طريق السعادة هو العلم والعمل به وإلى ذلك الإشارة بقوله : إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذا فى نفسه فيكون مطلوبا بذاته ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولا يتوصل إليه إلا به وأعظم الأشياء رتبة فى حق الآدمى السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل فأصل السعادة فى الدنيا والآخرة هو العلم .

نظرية السعادة عند الغزالى قائمة على التحليل النفسى

إن نظرية السعادة عند الغزالى قائمة على نوع من التحليل النفسى وهو يرتب على كل نوع من أنواع المعرفة نوعا من اللذة أو السعادة وسعادة كل شىء فى رأيه هى لذته وراحته ولذلك تكون بمقتضى طبعه وطبع كل شىء ما خلق له هذا الشىء فلذة العين النظر فى الصورة الحسنة ولذة الأذن فى سماع الأصوات الحسنة وهكذا الشأن فى سائر الجوارح كل جارحة منها لذة معينة ولذة القلب الخاصة معرفة الله تعالى وهو مخلوق لها واللذة ثمرة المعرفة لأن الإنسان إذا عرف شيئا لم يعرفه من قبل فرح به

أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى

يرى الغزالى أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى ولا يتصور أن يؤثر الإنسان عليها لذة أخرى إلا إذا حرم من هذه اللذة وذلك لأنه إذا كان المعروف أجل كانت المعرفة أكبر وإذا كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر فيقول : عن ذلك وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى لأن شرف كل موجود به ومنه وكل عجائب العالم آثار صنيعته فلا معرفة أعز من معرفته ولا لذة ألذ من لذة معرفته وليس منظر أحسن من منظر حضرته ويضاف إلى ما تقدم أن اللذات المتعلقة بالجوارح الظاهرة تبطل بالموت ولا تبطل بالموت اللذة أو السعادة الحاصلة من معرفة الله تعالى بل إنها فى الموت تكون أثوى لخروج الإنسان من الظلمات إلى النور والإنسان لا ينعم فقط بمعرفة الله تعالى حال الموت وإنما هو يتنعم

أيضا بها فى حال اليقظة حين يصبح قادرا على أن يبصر فى النوم فيشاهد الحقائق العليا وينكشف له عالم الملكوت وذلك لا يتهيأ له إلا بالإنصراف عن شواغل المادة والحس واللذات الفانية

الكيمياء الحقيقة فى خزائن الله
ومحلها قلوب العارفين

إن الكيمياء الحقيقة فى خزائن الله ومحلها قلوب الأولياء العارفين ولا تتحقق إلا بأن ترجع من الدنيا إلى الله تعالى وسبيلها الإقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم وكل من يطلبها من غير هذا الطريق فقد ضل وتوهم أنه غنى وهو مفلس .

فصل

التصوف الفلسفى

التصوف الفلسفى فى الإسلام تصوف آخر يختلف فى الطابع عن التصوف السنى الذى رأيناه عند الإمام الغزالى وعند غيره ممن تقدمه من الصوفية السنيين. ما هو المقصود بالتصوف الفلسفى ؟

المقصود بالتصوف الفلسفى التصوف الذى يعتمد أصحابه إلى مزج أذواقهم الصوفية بأنظارهم العقلية مستخدمين فى التعبير عنه مصطلحا فلسفيا إستمدوه من مصادر متعددة وقد ظهر التصوف الفلسفى فى الإسلام بوضوح منذ القرنين السادس والسابع الهجرى وهما القرنان اللذان شهدا ظهور أقطابه واستمر بعد ذلك عند أفراد متفلسفة الصوفية حتى عصر ليس ببعيد ولما كان هذا اللون من التصوف ممزوجا بالفلسفة فإنه قد سربت إليه بذلك فلسفات أجنبية متعددة يونانية وفارسية وهندية ومسيحية وذلك لا ينفى أصالته لأن صوفيته تمثلوا هذه الثقافات وحافظوا فى نفس الوقت على استقلاليتهم فى مذاهبهم بإعتبارهم مسلمين وهذا يفسر لنا جهودهم فى الملائمة بين المذاهب الأجنبية عنهم والإسلام وهى جهود واضحة فى مصنفاتهم كما يفسر لنا أيضا وجود تلك المصطلحات الفلسفية الأجنبية فى مصنفاتهم والتى غيروا كثيرا فى معانيها الأصلية بما يتلائم ومذاهبهم الصوفية الإسلامية وثمة طابع عام يطبع هذا التصوف الفلسفى وهو أنه تصوف غامض ذو لغة اصطلاحية خاصة ويحتاج فهم مسائله إلى جهد غير عادى ولا يمكن إعتباره فلسفة حيث أنه قائم على الذوق كما لا يمكن إعتباره تصوفا خالصا لأنه يختلف عن التصوف الخالص فى أنه معبر عنه بلغة فلسفية وينمو إلى وضع مذاهب فى الوجود وقد عرف متفلسفة الصوفية الفلسفة اليونانية ومذاهبها كمذاهب سقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقية كما عرفوا الفلسفة الأفلاطونية المحدثة ونظريتها فى الفيض أو الصدور ووقفوا على الفلسفات الشرقية القديمة فارسية وهندية وعلى فلاسفة الإسلام كالفارابى وابن سينا وغيرهم وتأثروا بمذاهب غلاة الشيعة من الإسماعلية الباطنية وبرسائل إخوان الصفا وهذا كله إلى جانب علمهم الواسع بالعلوم الشرعية من فقه وكلام وحجيث وتفسير فهو إذن ذو طابع موسوعى وثقافتهم ذات مكونات متعددة متباينة أحيانا وقد استهدف متفلسفة الصوفية فى الإسلام لهجوم الفقهاء لما أعلنوه من وحدة الوجود ونظرية القطبية ووحدة الأديان وما يترتب على ذلك من آراء ونتائج إرتأى الفقهاء أنها مخالفة للعقيدة الإسلامية .

موضوعات التصوف الفلسفى وخصائصه

حصر ابن خلدون فة مقدمته أربع موضوعات رئيسية عنى بها هؤلاء المتفلسفة من المتأخرين : -

أولا – المجاهدات وما يحصل عنها من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال

ثانيا – الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسسى والملائكة والوحى والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد

ثالثا – التصرفات فى العالم والأكوان بأنواع الكرامات أو خوارق العادات

رابعا – صدور الألفاظ الموهمة الظاهرة والتى تعرف بالشطحات وهى العبارات التى تستشكل ظواهرها والناس بالنسبة لها بين منكر ومستحسن ومتأول

فأما – عن المجاهدات والأذواق الحاصلة عنها كالمقامات والأحوال فيتفق فيها أولئك الصوفية مع غيرهم ممن تقدمهم وهى على حد تعبير ابن خلدون أمر لا مدفع فيه لأحد وأذواقهم فيه صحيحة والتحقق بهل عين السعادة .

وأما – الكشف وحقائق الوجود المدركة عنه فيذكر ابن خلدون أن أولئك الصوفية من المتفلسفة اصطنعوا فيه الرياضة بإماتة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس إدراكها الذى لها من ذاتها فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر فى مداركهم وأنهم كشفوا حقائق الوجود كله . ويتحفظ ابن خلدون هنا فيقول : إن مثل هذا الكشف لا بد وأن يكون ناشئا عن الإستقامة والإستقامة للنفس كالإنبساط للمرآة فيما ينطبع فيها من الأحوال وذكر أن المتأخرين من المتفلسفة لما عنوا بهذا النوع من الكشف تكلموا فى حقائق الموجودات العلوية والسفلية إلا أنهم أغمضوا للغاية لأن كلامهم أولا من قبيل الأذواق والمواجيد بحيث أن لم يشاركهم طريقتهم لا يفهم شيئا من مرامى كلامهم وهذه الأذواق بطبيعتها غير خاضعة للدليل والبرهان فهى وجدانيات ولأنهم تعمدوا الألغاز بإستخدام اصطلاحات فلسفية لا يشاركهم فيها غيرهم وكلامهم بوجه عام لا يقتدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه . ويضرب ابن خلدون أمثلة لمذاهبهم فى الوجود وصدوره عن موجده وترتيبه والحقيقة المحمدية وتالوحدة الوجودية المطلقة والإصطلاحات المستخدمة فيها . ويعارضهم ابن خلدون فى قولهم : بالوحدة مبينا أنها مترتبة عندهم على تفسير خاطىء للفناء فيقول : وهم فى هذا يفرون من التراكيب والكثرة بوجه من الوجوه وإنما أوجبها أى الوحدة عندهم الوهم والخيال مع أن المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون إن المريد عند الكشف ربما يعرض له توهم لهذه الوحدة ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع ثم يترقى عنه إلى التمييز بين الموجودات ويعبرون عن ذلك بمقام الفرق وهو مقام العارف المحقق ولأن ولأن للمريد عندهم من عقبة الجمع وهى عقبة صعبة لأننه يخشى من وقوفه عندها فتخسر صنعته

ابن خلدون يخطىء صوفية الوحدة

وواضح أن ابن خلدون هنا بعبارة أهل السنة يخطىء صوفية الوحدة لأنهم قالوا بها انطلاقا من حال الفناء والجمع وهو متفق فى نقده لهم مع الغزالى وغيره من متصوفة أهل السنة .

أما ما يذكره متفلسفة الصوفية من التصرف فى عالم الأكوان بالكرامات فيميل ابن خلدون إلى إقرارهم عليه فالكرامات كالأخبار بالمغيبات والتصرف فى الكائنات أمر صحيح غير منكر وإن مال بعض العلماء كأبى اسحاق الإسفرايينى إلى إنكارها وليس فى رأيه من الحق . لكن المتفلسفة من الصوفية يعتبرون التصرف فى الأكوان مبتيا على علم خاص عندهم وهو علم الأسماء والحروف وقد ألف فيه ابن عربى وابن سبعين وغيرهما .

الفرق بين متفلسفة الصوفية والصوفية السنيين

إن الفرق بين متفلسفة الصوفية والصوفية السنيين كبير كالشاذلية فابن عطاء الله السكندرى مثلا يضع مذهبا فى الزهد والكرامات ويعتبر أنها غير دالة على كمال التصوف ولذلك نجد ابن خلدون نفسه يمتدح رجال الرسالة القشيرية من ذوى الإتجاه السنى من هذه الناحية لإقتدائهم بالصحابة قائلا : وقد وقع للصحابة رضى الله عنهم وأكابر السلف كثير من ذلك أى الكرامات وهو معلوم مشهور وسلف المتصوفة من

أهل الرسالة يقصد الرسالة القشيرية أعلام الملة لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الإدراك الخارق إنما همهم الإتباع والإقتداء ما استطاعوا ومن عرض سسله شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به بل يفرون منه ويرون أنه من العوائق والمحن .

رأى ابن خلون فى العبارات الشكلة التى
تصدر عن متفلسفة الصوفية

يقول : أما الألفاظ الموهمة التى يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع **فاعلم** – أن الإنصاف فى شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطلقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن علم منهم فضله وإقتداءه حمل كلامهم على القصد الجميل فإن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها . (يقصد أن الصوفى لا يكون فى حالة وعيه ليضع عبارته فى صورة مرتبة) وخمن لم يعلم فضله ولا أشتهر بالإقتداء فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك إذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر فى حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضا .

مقارنة ابن خلدون بين متفلسفة الصوفية والإسماعيلية من الشيعة

يقارن ابن خلدون فى مقدمته أيضا بين أولئك المتأخرين من الصوفيةى المتفلسفين والإسماعيلية من الشيعة القائلين بالحلول وألهية الأئمة ويرى أن وجه الشبه بين الفريقين ظاهر خصوصا فى مسألة القول بالقطب الذى هو رأس العارفين عندهم والأبدال فهذا فى رأيه مشابه لما يقوله الإسماعيلية فى الإمام والنقباء وكذلك لباس خرقة التصوف الذى يجعله أولئك الصوفية أصلا لطريقتهم والمرفوع عندهم إلى الإمام على كرم الله وجهه فهذا فى رأيه أثر من آثار التشيع ولعله قد تبين لنا الآن من كلام ابن خلدون أن التصوف الفلسفى له خصائص معينة منها أنه تصوف يعمد أصحابه كغيرهم من الصوفية إلى اصطناع المجاهدات النفسية من أجل الترقى الخلقى وهذا هو عين السعادة وأنه تصوف يجعل الكشف منهجا للمعرفة بالحقائق وأن أصحابه تحققوا بالفناء كما أنهم أغمضوا فى تعبيرهم عن حقائق هذا التصوف فهم رمزيون من هذه الناحية وهذه الخصائص العامة تصدق على تصوفهم كما تصدق على أى تصوف آخر إلا أن أولئك المتفلسفة زادوا على المتصوفة السنيين بأمور : -

أولها – أنهم أصحاب نظريات أو مواقف من الوجود بسطوها فى كتبهم أو أشعارهم ولا يمكن أن توصف عباراتهم فيها بأنهم من قبيل الشطح الذى لا يسأل عنه أصحابه
ثانيا – أنهم أسرفوا فر الرمزية إسرافا إلى حد بدا كلامهم غير مفهوم للغير
ثالثا – إعتدادهم الشديد بأنفسهم وعلومهم وهو اعتداد إن لم يلازمهم كلهم فقد لازم أكثرهم على الأقل

ولما كان أبرز مذهب فى التصوف الفلسفى المذهب المعروف بوحدة الوجود فسنقف فيما يلى على أبرز ممثل لها وهو ابن عربى

تصوف وحدة الوجود

لم يظهر مذهب وحدة الوجود فى صورته الكاملة فى التصوف الإسلامى إلا بمجىء الصوفى الأندلسى المتفلسف محيى الدين بن عربى المتوفى سنة 638 هجرية وتصوف وحدة الوجود هو التصوف المبنى على القول : بأن ثمة وجودا واحدا فقط هو وجود الله تعالى أما التكثر المشاهد فى العالم فهو وهم على التحقيق تحكم به العقول القاصرة فالوجود إذن واحد لا كثرة فيه على أن من أصحاب وحدة الوجود كابن عربى يفسح المجال للقول : بوجود الممكنات أو المخلوقات على نحو ما ومنهم من يطلق القول : بالوحدة ويمعن فى ذلك إلى الحد الذى يجعله لا يثبت إلا وجود الله تعالى فقط وهؤلاء هم أصحاب الوحدة المطلقة

وحدة الوجود عند ابن عربى

ابن عربى هو أبو بكر محمد بن على بن أحمد بن عبد الله كان من عظماء مفكرى الإسلام وقد تأثر به بعض مفكر أوروبا مثل دانتى كما أثبته المستشرق الأسبانى ميجل آسين بلاثيوس فى بحث له وقد تأثر بابن عربى جميع الصوفية الذين جاءوا بعده فى الشرق والغرب على السواء ويذكر عنه أنع ألف خمسمائة مصنف فى التصوف ذكر منها بروكمان فى تاريخ الأدب العربى أكثر من مائتين ومعظمها مخطوط وأشهر كتبه الفتوحات المكية وهو موسوعة ضخمة فى التصوف وفصوص الحكم الذى نشره مع تعليقات مستفيضة المرحوم الدكتور : أبو العلا عفيفى وترجمان الأشواق وهو ديوان شعر فى الحب الإلهى وأسلوب ابن عربى فى مصنفاته بوجه عام رمزى شديد الخفاء من حيث المعنى وقد عرف ابن عربى لعلو مكانته بالشيخ الأكبر وعرفه بعض المدرسين فى أوروبا مثل ريمون لل وابن عربى كما سبق هو أول واضع لمذهب وحدة الوجود فى التصوف الإسلامى وهو مذهب يقوم على دعائم ذوقية أساسا وهو يقول : معبرا عن مذهبه هذا بإختصار سبحان من خلق الأشياء وهو عينها وذلك أن القائلين بوحدة الوجود ومنهم ابن عربى لا يؤمنون بالخلق من العدم فى زمان وهو ما يعرف عنه غير أصحاب وحدة الوجود بخلق العالم ويؤمن ابن عربى فى نظريته فى الوجود بالفيض وهو يعنى بالفيض أن أبرز الأشياء من وجود علمى إلى وجود عينى ويفسر ابن عربى الموجودات بالتجلى الإلهى الدائم الذى لم يزل ولا يزال وظهور الحق فى كل آن فيما لا يحصى عدده من الصور يعنى الممكن بمعنى الموجود المتغير الحادث والذى إذا نظر إليه من حيث هو كان عدما والممكن هو ما كان وجوده بغير ويتصور فيه الوجود والعدم وذلك على الرغم مما يسميه بالأعيان الثابتة الموجودات الممكنة لأن هذه الأعيان الثابتة ذاتها ضرورة بمعنى أنها موجودات بالقوة لأن لها من أجل أن توجد بالفعل وهى ما يسميه الفلاسفة بوجود الغير واجب الوجود بالغير مرتبة وسط بين الممكن والواجب وهى التى يكون وجودها ضروريا . وبهذا يقول : ابن عربى بوجود مرتبتين هما الضرورى والممتنع وفى هذا الصدد متسق مع منطق مذهبه لأنه إذا أعتبر العالم ممكنا ترتب عليه أن العالم وجد فى زمان وأنه غير موجوده وكان هذا مخالف لمذهبه الذى يقرر فيه أن الوجود واحد فى الحقيقة متكثر تكثرا وهميا .

ويقول : أيضا – ثم السر الذى فوق هذه المسألة أن الممكنات على أصلها من العدم وليس وجود إلا وجود الحق بصورة هى عليه الممكنات أنفسها وأعيانها .

الحكمة من خلق الخلق

يبين ابن عربى الحكمة من خلق الخلق فيفسر الحديث القدسى كنت كنزا مخفيا لم أعرف فخلقت الخلق فبه عرفونى إن الحق تعالى شاء أن يظهر الخلق عامة والإنسان خاصة ليعرف وليرى نفسه فى صورة تتجلى فيها صفاته وأسمائه أو بعبارات أخرى شاء الحق أن يرى تعينات أسمائه فى مرآة العالم أو الوجود الخارجى فظهر فى الوجود ما ظهر وعلى النحو الذى عليه وكشف بذلك عن الكنز المخفى الذى هو الذات المطلقة المجردة عن العلاقات والنسب ولكنه لم يكشف عنها فى اطلاقها وتجرده بل فى تقييدها وتعيينها

الحقيقة الوجودية عند ابن عربى واحدة

إن الحقيقة الوجودية عند ابن عربى واحدة والتفرقة بين الذات ةالممكنات تفرقة اعتبارية والعقل القاصر هو الذى يفرق بينهما تفرقة حقيقية يقوال : ابن عربى فرق وجمع فإن العين واحدة وهى الكثيرة لا تبقى ولا تذر

خلاصة القول : أن وجود الممكنات فى رأى ابن عربى هو عين وجود الله تعالى وليس تعدد الموجودات وكثرتها إلا وليدة الحواس الظاهرة والعقل الإنسانى القاصر هو الذى يعجز عن إدراك الوحدة الذاتية للأشياء فالحقيقة الوجودية واحدة فى جوهرها وذاتها متكثرة بصفاتها وأسمائها لا تعدد فيها إلا بالإعتبارات والنسب والإضافات وإذا نظرت إليها من حيث ذاتها قلت هى الحق وإذا نظرت إليها من حيث صفاتها قلت هى الخلق

الإنسان الكامل أو الحقيقة المحمدية

لابن عربى نظرية فى الإنسان الكامل أو الحقيقة المحمدية تقوم على أساس من مذهبه فى وحدة الوجود فالإنسان الكامل عنده هو الكون الجامع فلما شاء الله تعالى أن يرى عينه فى كون جامع يحصر الأمر كله لكونه متصفا بالوجود ويظهر به سره إليه ظهر الإنسان الكامل الذى هو عين جلاء مرآة العالم ويفرق ابن عربى فى الإنسان الكامل بين ناحيتين : -

الأولى – بإعتباره أزليا أبديا ولذلك يصف ابن عربى الإنسان الكامل قائلا : هو الأزلى والنشىء الدائم الأبدى

الثانية – خاصة بإعتباره إنسانا حادثا . يرى ابن عربى أن قيام العالم بالإنسان الكامل ولا يزال العالم محفوظا ما دام فيه هذا الإنسان الكامل .

الإنسان الكامل أو الحقيقة المحمدية هى مصدر جميع الشرائع والنبوات

إن الإنسان الكامل أو الحقيقة المحمدية بتعبير آخر هى مصدر الشرائع والنبوات ومصدر جميع الأولياء أو أفراد الإنسان الكامل الذين هم الأولياء من الصوفية . وواضح هنا أنه متأثر بفكرة الحلاج عن قدم النور المحمدى ولا نعرف أن أحدا تحدث فيها فى التصوف قبل الحلاج

وحدة الأديان

يذهب ابن عربى بعد ذلك إلى القول : بوحدة الأديان كنتيجة مترتبة على قوله بالإنسان الكامل أو الحقيقة المحمدية إذ مصدر الأديان عنده كما رأينا واحد وهو الحقيقة المحمدية فالدين كله واحد وهو لله تعالى والعارف على التحقيق هو من عند

الله تعالى فى كل مجلى من مجاليه وإن شئت قلت العبادة الصحيحة هى أن ينظر العبد إلى جميع الصور على أنها مجال لحقيقة ذاتية واحدة هى الله عزوجل يقول : ابن عربى معبرا فى أبيات عن نظريته

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى
إذا لم يكن دينى إلى دينه
لقد صار قلبى قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب دينى وإيمانى

ويقول : كذلك

عقد الخلائق فى الإله عقائدا
وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

وهذا من الغلو الذى لا مبرر له فالعقائد والديانات متباينة فمنها الصحيح والفاسد فكيف يعلن جمعه لهذه المتناقضات فى عقيدة واحدة وقد كان أثر ابن عربى على من جاء من بعده من الصوفية عموما عظيما وكان له مدرسة فى التصوف من أبرز تلاميذه فيها صدر الدين القونى المتوفى سنة 672 هجرية والذى أصبحت له بعد ابن عربى مكانة بارزة فى طريقة شيخه المعروفة بالأكبرية وهو قائل : أيضا كأستاذه بوحدة الوجود وعنى ابن تيمية بالرد عليه كما رد على مذهب شيخه . ومن متأخرى وحدة الوجود المتأثرين بابن عربى عبد الكريم ابن إبراهيم الجيلى المتوفى سنة 832 هجرية وهو صاحب ظرية فى الإنسان الكامل أو الكلمة الإلهية شبيهة بنظرية الحلاج فى قدم المور المحمدى ونظرية القطبية عند ابن عربى ولقد عرض لها فى مصنفاته وأبرزها الإنسان الكامل فى معرفة الأوائل والأواخر وقد امتد أثر ابن عرلبى كذلك إلى تصوف كثير من شعراء الصوفية من الفرس أمثال فخر الدين العراقى المتوفى سنة 696 هجرية وأوحدا الدين الكرمانى المتوفى سنة 797هجرية وعبد الرحمن الجامى المتوفى سنة 898 هجرية ويعد عبد الغنى النابلسى المتوفى سنة 1143 هجرية من تلاميذ ابن عربى المتأخرين وشراحه المعجبين به وهو صاحب ديوان الحقائق ومجموع الرقائق ويعتبر الأمير عبد القادر الجزائرى المتوفى سنة 1883 هجرية مؤلف كتاب المواقف من تلاميذ ابن عربى كما يبدو من كتابه هذا .

فصل

شعراء الحب الإلهى

كان شعراء الصوفية وسيلة من وسائل التعبير لدى الصوفية عن أحوالهم ومواجيدهم وقد روى بعض الزهاد فى القرنين الأول والثانى وصوفية القرن الثالث والرابع فى كتب التراجم والتصوف والأدب والحب الإلهى فى الحقيقة لم يصبح موضوعا رئيسيا للشعر إلا من عصر رابعة العدوية فقد تغنى الصوفية بعدها به واعتبروه مقاما من

مقامات السلوك أو حالا من الأحوال ومن هؤلاء يحيى بن معاذ الرازى المتوفى سنة 258 هجرية والذى قال : عنه ماسينون أنه أول من أعلن حبه لله فى شعر صريح الأسلوب والحلاج المتوفى سنة 309 هجرية الذى ترك فى مسألة الحب الإلهى آثارا بعضها منظوم وبعضها منثور على أن بعض المتأخرين من متفلسفة الصوفية غلبت عليهم عاطفة الحب الإلهى وعبروا عنه فى أشعارهم تعبيرا فلسفى الطابع وأدى بهم الحب إلى شهود الوحدة فى الوجود شهودا ذقتيا كما يعتبر جلال الدين الرومى من أبرز شعراء الحب فى التراث الصوفى الفارسى ويعتبر عمر بن الفارض من أبرز صوفية العرب فى هذا الميدان وهو لم يعبر عنه إلا شعرا وهما لم يقصدا بالشعر الصناعة الشعرية من حيث هى وإنما وجداه وسيلة أكثر ملائمة للتعبير عن حقائقهم تعبيرا عاطفيا وشعرهما رمزى الطابع وهما إن استخدما ألفاظ الغزليين فى الحب الإلهى إلا أن هذه الألفاظ عندهما وعند غيرهما من شعراء الحب الإلهى من العرب أو الفرس رموزا وإشارات إلى حقائق صوفية تدق على أفهام من ليسوا من أهل الذوق والمشاهدة

ابن الفارض أبرز شعرء الحب الإلهى

يعتبر شرف الدين عمر بن أبى الحسن على المعروف بابن الفارض من أبرز صوفية الحب الإلهى فى تاريخ الإسلام لأنه وهب حياته لهذا الحب وجعله المحور الأساسى والرئيسى لأشعار ديوانه الذى خلفه لنا ومن هنا عرف بسلطان العاشقين ولد شاعرنا بالقاهرة سنة 576 هجرية بعد قدوم والده إليها من حماة وتوليته نيابة الحكم بها وقيل إنه عرض على والده منصب قاضى القضاه فامتنع عن توليه وزهد بعد ذلك فى المناصب فاعتزلها وآثر الإنقطاع إلى العبادة فى قاعة الخطابة بالجامع الأزهر وظل كذلك إلى أن توفى ويحدثنا ابن العماد فى شذرات الذهب أن ابن الفارض نشأ تحت رعاية أبيه فى عفاف وصيانة وعبادة وديانة بل زهد وقناعة وأنه أخذ العلم عن ابن عساكر والحافظ المنذرى ثم حبب إليه بعد ذلك سلوك طريق الصوفية فتزهد وتجرد واتجه ابن الفارض بعد ذلك إلى حياة العبادة والتأمل وكان من أبرز وسائلها عنده السياحة وتعنى السياحة عند الصوفية الخروج إلى الأماكن النائية والعودة منها مرة أخرى إلى المدينة فهى بمثابة الرحلات التى يقصد منها تهذيب النفس وتكميل الروح بعيدا عن ضجيج المجتمع . وقد غادر ابن الفارض مصر إلى الحجاز سنة 613 هجرية وقضى بها جمس عشرة سنة كان يحيا فيها حياة روحية خالصة أساسها الزهد والسياحة والطواف بالحرم والصلاة فيه وظل سلطان العاشقين فى مكة حتى سنة 628 هجرية ثم عاد إلى مصر ولم يقض ابن الفارض فى مصر بعد عودته من مكة أكثر من أربع سنوات إذ توفى سنة 632 هجرية ودفن بالقرافة بسفح المقطم تحت المسجد المعروف بالفارض ولا يزال ضريحه إلى الآن أما المسجدد الحالى الذى به الضريح فيرجع تاريخه إلى سنة 1889 ميلادية .

حب ابن الفارض لله تعالى ثمرة معاناة حقيقية

كان حب ابن الفارض لله عزوجل ثمرة معاناة حقيقية يقول : الصوفية من ذاق عرف ويعنون بذلك أن معارفهم وآسرارهم ومقاماتهم وأحوالهم ذوق خالص ولا بد لمن يريد الحكم عليها من تجربة صادقة يقول : ابن الفارض

لا يعرف الشوق إلا من كابده
ولا الصبابة إلا من يعانيها

إن الحب الإلهى لبس فى رأينا شطحا أو خيالا وإنما هو ثمرة حقيقية للإيمان القوى والتدين العميق وينعكس آثاره على حياة الفرد تهذيبا وعلى حياة المجتمع إرتقاءا

الحب المتبادل بين الله تعالى والعبد

ذكر الله تعالى الحب المتبادل بين بين الله تعالى والعبد فى قوله : تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) **المائدة 54**

ويربط الله عزوجل بين الحب وقوة الإيمان فى قوله : تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) **البقرة 165**

ويربط الله تعالى بينه وبين حب الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته في قوله : تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) **آل عمران 31**

الحب لله تعالى عين الحياة

وقد اعتبر ابن الفارض الحب لله تعالى عين الحياة فيقول :

إن الغرام هو الحياة فمت به
صبا فحقك أن تموت وتعذرا
وعش خاليا فالحب راحته عنا
أوله سقم وآخره قتل
ولكن لدى الموت فيه صبابة
حياة لمن أهوى على بها الفضل
نصحتك علما بالهوى والذى أرى
مخالفتى فاختر لنفسك ما يحلو
إن شئت أن تحيا سعيدا فمت به
شهيدا وإلا فالغرام له أهل
فمن لم يمت فى حبه لم يعش به
ودون إجتناء النحل ما جنت النحل

وعلى ذلك فالموت بالحب حياة والحياة بدون حب موت ولعل ما يقصده ابن الفارض من أن حب الله تعالى هو الحياة إن هذا الحب الإلهى هو أسمى عاطفة فى الإنسان وكأنما خلق قلبه له وأن اتصال القلب بمحبوبه وهو الله تعالى حياة لهذا القلب وانقطاعه عنه موت له والحب الإلهى مصدر كل فضيلة إجتماعية على أن فائدة هذا الحب لا تقتصر على الإنسان كفرد وإنما هى تتعداه إلى المجتمع كله حين يصبح

الحب مصدرا لكل فضيلة إجتماعية أيضا وإن الحب الإلهى يستتبع محبة الرسول صلى الله عليه وسلم ومحبة الأسرة ومحبة المجتمع وهنا يشيع الحب فى المجتمع بدلا من الصراع ويسود التفاؤل بدلا من التشاؤم وبذلك يصبح الحب الإلهى بما يستتبع من أنواع الحب الأخرى بابا للخير كله فهو إذا حياة للفرد والمجتمع وكذلك الأمر إذا ساد الصراع وعم التشاؤم فى ذلك موت للفرد وللمجتمع معا

الحب الإلهى عند ابن الفارض يقترن بحال الفناء

إن شأن الحب الإلهى عند ابن الفارض وعند غيره من الصوفية أن يقترن بحال الفناء ويصور الصوفية حال الفناء بأنه الحال الذى يغيب فيه الصوفى عن إدراكه لذاته لفنائه فى المحبوب وهو الله تعالى ولا يعود فى هذه الحالة يشعر بنفسه ولا بشىء من لوازمها وقد أشار الغزالى إلى ذلك بقوله : وهذه الحالة إذا غلبت سميت بالإضافة إلى صاحب الحال فناء بل فناء فناء الفناء لأنه فنى عن نفسه وفنى عن فنائه فإنه ليس يشعر بنفسه فى تلك الحال ولا يعدم شعوره بنفسه ولو شعر بعدم شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه على أن الصوفى لا يستمر له الفناء بل يعود منه إلى الحال المقابل له وهو البقاء فيشعر بذاته وبالعالم الخارجى

تحقيق الحب بشهود محبوبه وهو الله تعالى

يرى ابن الفارض أن تحقيق الحب بشهود محبوبه وهو الله تعالى لا يكون إلا مع الفناء عما فى الحياة الدنيا من زخرف وجاه بل وعما فى الحياة الأخرى من جنة ونعيم وعن جميع أوصافه وأهوائه وأغراضه وعندئذ يكون خاشعا لله تعالى لا لشىء دونه يقول : ابن الفارض

فلم تهونى ما لم تكن فيا فانيا
ولم تفن ما لم تجتلى فيك صورتى
فدع عنك دعوى الحب وادع
لغيره فؤادك وادفع عنك غيك بالتى
وجانب جناب الوصل هيهات لم يكن
وها أنت حى إن تكن صادقا مت
هو الحب إن لم تقض لم تقضى مأربا
من الحب فاختر ذلك أو خل خلتى

ويعرف الفناء عند ابن الفارض وغيره من الصوفية بالفناء عن شهود السوى على أنه ينبغى التنبيه إلى أنهم لا يقصدون به فناء ما سوى الله تعالى فى الخارج وإنما هو عندهم فناء عن شهودهم له وما ذاك إلا لإستغراقهم فى ذكر المحبوب وشهوده فغابوا عما سواه بالكلية وثمة فناء آخر عند ابن الفارض يعرف بالفناء عن إرادة السوى زمعناه أن يفنى فى مراد محبوبه فلا يعود له إلتفات إلى مراده هو أو مراد غيره ويتخذ عندئذ مراده بمراد محبوبه

والمقصود هنا المراد الدينى الأمرى لا المرد الكونى وهو يشير إلى فناء إرادته فى إرادة المحبوب قائلا :

وكنت بها حيا فلما تركت ما

أريد أرادتنى لها وأحببت
ويصبح المحبوب فى هذه الحالة راضيا عن محبوبه تمام الرضا مسلما له قيادته فيخاطب محبوبه قائلا :
وعن مذهبى فى الحب مالى مذهب
وإن ملت يوما عنه فارقت منى
ولو خطرت بى سواك إرادة
على خاطرى سهوا قضيت بردتى
لك الحكم فى أمرى فما شئت
فاصنعى فلم تك إلا فيك لا عنك رغبتى
وفى هذا المعنى يقول :
ته دلالا فأنت أهل لذاكا
وتحكم فالحسن قد أعطاكا
ولك الأمر فاقض ما أنت قاض
فعلى الجمال قد ولاكا
وتلافى إن كان فيه إئتلافى
بل عجل جعلت فداكا
وبما شئت فى هواك اختبرنى
فاختبارى ما كان فيه رضاكا
ويرتب ابن الفارض على الفناء أو الجمع بالوحدة القائمة على الشهود والقول بالقطبية ووحدة الأديان
أما – قوله : بالوحدة ويعبر عنها بالإتحاد فلا يعنى أن موجودا خاصا اتحد بالوجود الحق الواحد ولكنه اتحاد بمعنى شهود هذا الوجود الحق الواحد المطلق وعلى هذا يكون الجمع عبارة عن هذه الحال الموجدة التى تزول فيها الكثرة ويشهد فيها السالك كل شيء بعين الوحدة وهذا الجمع هو الذى عناه أبو سعيدالحراز بقوله : هى الجمع أنه أوجدهم نفسه فى أنفسهم بل أعدمهم وجودهم لأنفسهم عند وجودهم له وهذا يعنى أنه أوجد نفسه فى أنفس السالكين وأفناهم بوجوده عن وجودهم ويعبر ابن الفارض على الإتحاد المترتب على الفناء بقوله :
وجاء حديث فى اتحادى ثابت
روايته فى النقل غير ضعيفة
يشير بحب الحق بعد تقرب
إليه بنقل أو أداء فريضة
وموضع تنبيه الإشارة ظاهر
لكنت له سمعا بنور الظهيرة
وهو بهذا يشير إلى الحديث القدسى " ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها "
وفى بداية الإتحاد يشهد ابن الفارض الله تعالى أولا متجليا فى كل مظاهر الوجود المتعددة فيقول :

جلت فى تجليها الوجود لناظرى

ففى كل مرائى آراها برؤية

هذه الوحدة التى أدركها ابن الفارض ليست من قبل وحدة الوجود عند ابن عربى وفى ذلك يقول : الدكتور : محمد مصطفى حلمى إن هذا المذهب مذهب ابن الفارض لم يكن اتحاديا بمعنى أن الإتحاد فيه عبارة عن وحدة الوجود كما زعم ابن تيمية ودى ماتيو وغيرهما من القدماء والمحدثين بل كان بمعنى أن الإتحاد فيه مرادف للشهود الذى هو حضور الذات وانكشافها لعين السالك وفرق ما بين وجود الوجود ووحدة الشهود كفرق بين الحقيقة الواقعة فى ذاتها مستقلة عن حس الإنسان فى شهوده وعقله وبين الحقيقة من حيث إدراكها فى حالة خاصة وتحت تأثير معين وابن الفارض لم يكن خارجا على الكتاب والسنة لأن فناءه الذى كان سبيله إلى إدراك الوحدة لم يكن فناء عن وجود السوى ولكنه فناء عن شهوده وإرادته

ابن الفارض ونظريته عن القطبية

يرى أن القطب هو الروح المحمدى أو الحقيقة المحمدية وهو قطب معنوى وهو مصدر كل علم وعرفان بالنسبة للأولياء والأقطاب ويتحدث ابن الفارض فى التائية بلسان الجمع مع الحقيقة المحمدية لا بلسانه قائلا :

وروحى للأرواح روح وكل ما ترى

حسنا فى الكون عن فيض طينتى

ويقول : كذلك

وكلهم عن سبق معناى دائر

بدائرتى أو وارد من شريعتى

وإنى وإن كنت ابن آدم صورة

فلى فيه معنى شاهد بأبوتى

وبذلك تكون الحقيقة المحمدية حقيقة قديمة جامعة وعنها تفيض الموجودات كلها

ويقول : أيضا

ولولاى لم يوجد وجود ولم يكن

شهود ولم تعهد عهود بذمة

فلا حى إلا عن حياتى حياته

وطوع مرادى كل نفس مريدة

ينتهى ابن الفارض منحبه وفنائه إلى القول : بأن الأديان مختلفة من حيث الظاهر أما من حيث حقيقتها وجوهريتها فهى واحدة ومهما اختلفت صور العبادة فيها فهى تدعوا إلى عبادة إله واحد وعنده أن الأديان الثلاثة وهى اليهودية والمسيحية والإسلام منتظمة فى سلك واحد ةهو سلك التنزيل الإلهى وكذلك المجوس أيضا عبدوا نور الذات الإلهية متوهمين أنه النار فيقول :

وإن نار بالتنزيل محراب مسجد

فما نار بالإنجيل هيكل بيعة

وأسفار توراة الكليم لقومه

يناجى بها الأحبار فى كل ليلة

وما زاغت الأبصار من كل ملة
وما زاغت الأفكار فى كل نحلة
وإن عبد النار المجوس وما انطلقت
كما جاء فى الأخبار فى ألف حجة
فما قصدوا غيرى وإن كان قصدهم
سواى وإن لم يظهروا عقد نيتى
رأوا ضوء نورى مرة فتوهموه
نارا فضلوا فى الهدى بالأشعة

على أن كلام ابن الفارض فى هذا الصدد وإن بدا أنه يعبر عن نزعة إنسانية فى الإرتفاع عن التعصب لدين معين إلا أننا لا نوافقه لمخالفته صراحة العقيدة الإسلامية فعباد الأصنام والنار وغيرهم من أصحاب الملل المخالفة للتوحيد لا يمكن أن ندرجهم فى عداد أصحاب الملل الصحيحة وتأويل ابن الفارض لمعتقداتهم مسرف

جلال الدين الرومى

يعتبر جلال الدين الرومى 604 – 672 هجرية أعظم شعراء الصوفية من الفرلاس صحيح أنه قد ظهر فى فارس شعراء صوفيون قبله وبعده ولكنه فاقهم جميعا من حيث شعره وما تضمنه من المعانى الصوفية العميقة

التعريف به وبآرائه

هو جلال الدين محمد بن محمد البلخى ثم القونى ولد فى بلخ ولقب بالرومى نسبة إلى أرض الروم حيث قضى بها حياته وكان أبوه محمد فقيها من أتباع المذهب الحنفى لقب لمكانته بسلطان العلماء ويعرف أيضا بسلطان ولد وقد ترك بلخ بصحبة أسرته عام 609 هجرية وتنقلت الأسرة من مدينة إلى مدينة وفى نيسابور إلتقت بفريد الدين العطار وتذكر بعض الروايات أنه أخذ الطفل جلال الدين بين ذراعيه وتنبأ له ببلوغ المرتبة العليا من التصوف ثم ذهبت الأسرة بعد ذلك إلى بغداد ثم مكة وانتقلت بعد ذلك إلى ملطية أقامت أربع سنين ثم إلى لارندا قرمان الآن حيث أقام سبع سنين ثن تركت لارندا إلى قونية التى كانت عاصمة للسلطان علاء الدين السلجوقى الذى كان من سلاجقة آسيا الصغرى

لقاؤه بشمس الدين التبريزى

كان إلتقاؤه بشمس الدين التبريزى وهو شاعر صوفى متجول سنة 642 هجرية نقطة تحول فى حياته أقبل بعدها على حياة الزهد والتصوف وقد نظم الرومى ديوانا يخلد فيه ذكرى أستاذه عنوانه شمس تبريز ويعتبر الرومى صاحب طريقة صوفية مشهورة تعرف بالجلالية أو المولوية ولا تزال موجوده فى تركيا وسوريا

آثار الرومى فى التصوف الإسلامى

يعتبر ديوان جلال الدين الرومى المعروف المثنوى أعظم آثاره وقد كتبت عليه شروح كثيرة فارسية وتركية وعربية وترجم المثنوى أو أجزاء منه إلى اللغات الأوروبية ويعتبر الرومى من الصوفية أصحاب الفناء الذى يؤديه إلى نظرة واحدية إلى الوجود ومن أقوال : الرومى فى هذا الفناء وما معنى علم التوحيد أن تحرق نفسك أمام الواحد فإذا كنت تريد أن تشرق مثل النهار فاحرق كيانك المظلم كالليل

واصهر وجودك فى وجود راعى الوجود كما ينصهر النحاس فى الإكسير إنك قد أحكمت قبضتك عن أنا ونحن وما كل هذا إلا من التثنية والصوفى فى حال الفناء يقول : أنا غير مشير بها إلى ذاته هو وفرق بين أن يشير الإنسان بقوله أنا مؤكدا ذاتيته الإنسانية وغروره وبين أن يقول أنا مشيرا إلى الذات الإلهية فقول أنا الأول لعنة وقول أنا الثانى رحمة إن قول أنا فى غير وقتها لعنة على قائلها وأما قولها فى وقتها فرحمة عليه

الفناء عند ابن الرومى

إن الفناء عند ابن الرومى يقتضى الفناء عن الإرادة يقول : ألستم أنتم الذن قلتم إن وجودنا الذاتى ضحية مبذولة للخالق ونحن الفانون أمام صفات البقاء ومهما نكن عقلاء أو مجانين فإنا سكارى 1لك الساقى وتلك الكأس وإنا لنحنى الرءوس لإرادته ومشيئته ونهب الأرواح الحلوة رهنا لمحبته . ويرتبط الفناء عنده بالمعرفة فهى ثمرته وهى معرفة مباشرة لا تعتمد على العقل النظرى والدراسة وإلى هذه الإشارة بقوله : مخاطبا علماء الكلام هل عرفتم أسماء بلا مسمى ، هل قطفتم وردا من الواو والراء والدال أنتم تسمون اسمه اذهبوا فابحثوا عن حقيقة المسمى لا تنظروا إلى القمر فى الماء بل إلى القمر فى السماء إن أردتم أن تترفعوا عن الأسماء والحروف فترفعوا أنتم عن الآنية أبدا تطهروا من جميع صفات النفس حتى تروا وجودكم النورانى نعم ترون فى قلوبكم علم النبى صلى الله عليه وسلم دون كتاب ودون معلم أو مرشد .

الفناء عند ابن الرومى يؤدى إلى شهود الوحدة

يؤدى الفناء عند ابن الرومى إلى شهود الوحدة واسقاط الكثرة فيعلن عن ذلك قائلا : وخلعت الأثنية ورأيت العالمين واحدا عن واحد أبحث وواحد أعرف وواحد أرى وواحد أنادى لقد انتشيت بجام الحب فالعالمين قد فنيا من إدراكى ولست مشغولا بغير تساقى الشراب ومناقلته

الحقيقة المحمدية

بلاحظ بعد ذلك أن جلال الدين الرومى يؤمن بالحقيقة المحمدية أو النور الأزلى الذى يستمد منه جميع الأنبياء والأولياء عرفانهم وهو يعبر عن ذلك فى المثنوى وديوان شمس تبريز تعبيرا عاطفيا فلسفيا .

يتبين مما سبق أن جلال الدين الرومى شاعر صوفى غلبت عليه عاطفة الحب فأدت به إلى الفناء وشهوده الوحدة فهو من هذه الناحية شبيه بابن الفارض ومهما كان فى شعره من تعمق فلسفى ومهما صدر منه عبارات تشعر بالوحدة إلا أن هذه الوحدة عنده ليست من قبيل وحدة الوجود عند ابن عربى التى توحد بين الحق والخلق أو بعبارة أخرى ترى الله تعالى عين كل شىء وقد نبه كل من نفيلد وهو أحد المتخصصين فى دراسة ابن الرومى ونيكولسون فيقول : نيكولسون وليس الغزالى المتكلم ولا جلال الدين الشاعر من القائلين بوحدة الوجود ونجد فى حديثنا عن ابن الفارض أن الصوفى عندما يصل إلى مقام الإتحاد يفنى عن نفسه ويشعر أن هويته هى هوية الوجود الشامل الذى هو الله تعالى وهكذا كان جلال الدين الرومى الذى يرى أن عينه عين كل شىء فيقول : أنا سرقة اللصوص أنا ألم العصا أنا السحاب

وأنا الغيث أنا الذى أمطرت فى المروج ولكن الإعتقادات فى مثل هذا الوجود الشامل لا يستلزم بالضرورة الإعتقاد فى وحدة الوجود القائلة بأن كل شىء هو الله تعالى أو أن الله تعالى عين كل شىء .

الباب السادس

تصوف أصحاب الطرق الصوفية

إذا كان التصوف الفلسفى قد إزدهر فى الإسلام كما رأينا إبان القرن السادس والسابع الهجرى فإن هذين القرنين قد شهدا أيضا استمرار التصوف السنى عند الغزالى وإزدهارا واسعا فى العالم الإسلامى على أيدى شيوخ الطرق الصوفية الكبار وأصبحت لفظة طريقة عند الصوفية المتأخرين تطلق على مجموعة أفراد من الصوفية ينتسبون إلى شيخ معين ويخضعون لنظام دقيق فى السلوك الروحى ويحيون حياة جماعية فى الزوايا والربط والخانقاوات أو يجتمعون إجتماعات دورية

فى مناسبات معينة ويعقدون مجالس العلم والذكر بإنتظام واختلفت أسماء الطرق فى العالم الإسلامى بإختلاف أسماء مؤسيسيها وهى فى حقيقة الأمر تهدف إلى غاية واحدة والخلافات كانت ولا تزال بين الطرق هى فى الرسوم العملية فقط كالزى والأوراد والأحزاب التى يرددها الأتباع وما إلى ذلك فهى أشبه بمدارس تتحد فى غاياتها فى التعليم الروحى وتختلف فى وسائلها العلمية فيه بإختلاف المعلم الذى يجتهد فى أن يضع لتلاميذه قواعد ورسوما خاصة يرى أنها أفعل فى تعليمهم

الغاية من الطرق الصوفية

الحقيقة أن الغاية القصوى من الطرق الصوفية عندهم جميعا كانت ولا تزال تتمثل فى غاية خلقية هى انكار الذات والصدق فى القول والعمل والصبر والشجاعة ومبة الغير والتوكل وغير ذلك من الفضائل التى دعا إليها الإسلام

الطريقة الجيلانية

ومن أبرز الطرق الصوفية فى القرنين السادس والسابع الهجرى الطريقة الجيلانية ومؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلانى وهو من كبار شيوخ الطرق الصوفية ولقد ولد فى جيلان سنة 470 هجرية ورحل إلى بغداد سنة 478 هجرية ودرس فقه الحنابلة وسلك طريق الصوفية واشتغل بالوعظ فى بغداد وحاز شهرة كبيرة وكان يرتدى زى العلماء وقد نشر تلاميذه طريقته فى بلدان إسلامية عدة كاليمن ومصر وسوريا وانتشرت فيما بعد ذلك فى الهند وفى تركيا وإفريقيا وأصبحت من الطرق الكبرى وقد ذكر ترمنجهام أن الشيخ عبد القادر الجيلانى ظل بطريقة فذة ملهما للملايين حتى يومنا هذا . ويشبه الشيخ عبد القادر الجيلانى الإمام الغزالى من حيث أنه كان فقيها عالما بالأصول والفروع يربط التصوف بالكتاب والسنة ولهذا امتدحه ابن تيمية وينسب للشيخ عبد القادر الجيلانى قوله : ما دمت تراعى نفسك فأنت محبوب من ربك وقوله : علامة حب الآخرة الزهد فى الدنيا وعلامة حب الله تعالى الزهد فيما سواه . ولقد وصف الشيخ على بن الهيتى طريقته فى التصوف فقال : كانت طريقته تجريد التوحيد مع الحضور فى موقف العبودية وذكر عدى بن مسافر عن خصائصها أيضا ما نصه . طريقته الذبول تحت مجارى الأقدار بموافقة القلب والروح واتحاد الباطن والظاهر وانسلاخه من صفات النفس . ومثل هذه الأقوال تشير إلى أن منهج القادرية خلقى فى أساسه

الطريقة الرفاعية

مؤسسها هو الشيخ أحمد الرفاعى وهو من كبار شيوخ العراق وكان معاصرا للشيخ عبد القادر الجيلانى والشيخ الرفاعى منسوب إلى بنى رفاعة وهم قبيلة من العرب وسكنأم عبيدة بأرض البطائح وبها توفى سنة 587 هجرية وانتشرت طريقته كالطريقة القادرية على نطاق واسع ولا تزال منتشرة إلا الآن فى مصر وبلدان إسلامية أخرى وقد دخلت الطريقة الرفاعية مصر أدخلها تلميذه أبو الفتوح الواسطى الذى أقام بالأسكندرية وتوفى ودفن بها سنة 580 هجرية وقد وصف ابن خلكان الإمام الرفاعى بأنه كان رجلا صالحا فقيها شافعى المذهب . وأشار الإمام الشعرانى إلى علو منزلته فى التصوف قائلا : انتهت إليه الرياسة فى الطرق وشرح أحوال القوم وكشف مشكلات منازلهم وتخرج بصحبته جماعة كثيرة وتتلمذ له خلائق لا

يحصون وأورد الإمام الشعرانى أقواله فى التصوف وفى الزهد قال :عن الزهد أساس الأحوال المرضية والمراتب الحسنة وهو أول قدم القاصدين إلى الله تعالى والمنقطعين إلى الله تعالى والراضين عن الله تعالى والمتوكلين على الله تعالى فمن لم يحكم أساسه فى الزهد لم يصح له شيء مما بعده ومن أقواله : فى المعرفة المشاهدة بمعنى القرب مقرون بعلم اليقين وحقائق حق اليقين وكان يقول : لسان المحبة يدعوا إلى الذوبان والهيمان ولسان المعرفة إلى الفناء والمحو وفى الحب الإلهى يذكر ابن خلكان أبياتا يقول : فيها

إذا جن ليلى هام قلبى بذكركم
أنوح كما ناح الحمام للطوق
وفوقى سحاب يمطر الهم والأسى
وتحتى بحار بالأسى تتدفق
سلوا أم عمر وكيف بات أسيرها
تفك الأسارى دونه وهو موثق
فلا هو مقتول ففى القتل راحة
ولا هو ممنون عليه فيطلق

الطريقة السهروردية

ترجع إلى مؤسسها الشيخ أبى نجيب السهروردى وابن أخيه شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردى البغدادى وهذا الأخير هو مؤلف كتاب عوارف المعارف وهو كتاب يتضمن آداب هذه الطريقة وهو يعتبر مؤسسها الحقيقى ويعتبر معلما عظيما امتد أثر تعاليمه ليس فقط إلى تلاميذه وإنما إلى كل شيوخ التصوف فى عصره وكان السهروردى البغدادى سنيا فى اتجاهه وتأثر به سعدى شيرازى من الفرس وقد عنى السهروردى فى كتابه بالكلام عن الرياضات العملية كحياة الربط والخلوة والسماع إلى جانب عنايته بالبحث فى المقامات والأحوال والمعرفة .

الطريقة الشاذلية

فى القرن السابع الهجرى نشطت الطرق فى العالم الإسلامى نشاطا ظاهرا فى المشرق والمغرب على السواء ففى المغرب ظهرت الطريقة الشاذلية وانتقلت إلى مصر ومن مصر إلى أقطار إسلامية عدة والطريقة الشاذلية هى المنسوبة إلى أبى الحسن الشاذلى وهو صوفى بارز سنى الإتجاه وأصله من شاذلة بتونس ووفد إلى مصر ومعه جملة من تلاميذه ومريديه واستوطنوا مدينة الأسكندرية وكان ذلك سنة 642 هجرية ثم كونوا مدرسة صوفية مشهورة بها وكان أبرز من وفد مع الشاذلى إلى مصر من تلاميذ الشيخ أبو العباس المرسى وهو الذى خلفه فى قيادة أتباع الطريقة فى حياته وبعد مماته وظل قائما عليها حتى توفى بالأسكندرية سنة 668 هجرية فخلفه عليها وكان أبرز من تلقى دعوته من تلاميذه المصريين ويعتنى به هو ابن عطاء الله السكندرى

تصوف الشيخ الشاذلى والمرسى وابن عطاء الله السكندرى

كان تصوف الشيخ الشاذلى والمرسى وابن عطاء الله السكندرى وهم أركان الشاذلية مبتعدا عن تيار مدرسة ابن عربى ومذهبها فى وحدة الوجود فلم يكن واحدا منهم قائلا بمذهبه وعلى قدر بعدهم من ابن عربى نجد قربهم من تصوف الإمام الغزالى المتقيد بالكتاب والسنة وتأثرهم به ويكفى أن نشير إلى بعض أقوال الشاذلى والمرسى التى يرويها ابن عطاء السكندرى فى لطائف المنن لنتبين منزلة الإمام الغزالى فى نفوسهم جميعا وأنهم كانوا يدعون مريديهم إلى الإقتداء به وانتهاج سنته وطريقته فكان الشاذلى يقول : لمريديه إذا عرضت لكم إلى الله تعالى حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبى حامد الغزالى ويقول : أيضا ناصحا كتاب الإحياء يورثك العلم وكتاب قوت القلوب للمكى يورثك النور وكان أبى العباس المرسى يقول : عن الإمام الغزالى إنا لنشهد له بالصديقية العظمى وقد ذكر ابن عطاء الله السكندرى الإمام الغزالى فى مواضع كثيرة من مصنفاته معظما له ومبجلا إقتداءا بشيخه كما تأثر به فى بعض نواحى مذهبه

تعاليم الطريقة الشاذلية

تتلخص فى أصول خمسة هى تقوى الله تعالى فى السر والعلانية واتباع السنة فى الأقوال والأفعال والإعراض عن الخلق فى السر والعلانية والإقبال والإدبار والرضا عن الله تعالى فى القليل والكثير والرجوع إلى الله تعالى فى السراء والضراء . وأبرز تعاليمها كذلك القول بإسقاط التدبير وهو الأصل الذى يبنى عليه الطريق كله وهو المبدأ الذى عمقه ابن عطاء الله وجعله مذهبا كاملا فى التصوف . ولم يترك الشاذلى مصنفات فى التصوف ولا تلميذه أبو العباس المرسى وكل ما خلفاه جملة أقوال فى التصوف وبعض الأدعية والأحزاب وكان ابن عطاء الله هو أول من جمع أقوالهما ووصاياهما وأدعيتهما وترجم لهما فحفظ بذلك تراث الطريقة الشاذلية ولولاه لضاع هذا التراث وقد كان للطريقة الشاذلية أثر كبير فى العالم الإسلامى فانتشرت فى كل اتجاه ووصلت إلى الأندلس وأبرز ممثليها عناك فى القرن الثامن الهجرى ابن عباد الرندى المتوفى سنة 790 هجرية شارح الحكم العطائية ووصلت شرقا إلى الملايو كما انتشرت فى الشمال الإفريقى فى غرب إفريقية ولا تزال واسعة الإنتشار فى مصر وغيرها من بلدان الغالم العربى الإسلامى

الطريقة الأحمدية

من الطرق الصوفية المعاصرة للشاذلة الطريقة الأحمدية التى أسسها الشيخ السيد أحمد البدوى ولد فى سنة 596 هجرية وتوفى فى سنة 675 هجرية والذى ارتحل من المغرب إلى مكة ثم منها إلى مصر وأقام بها منذ حوالى 624 هجرية فى طندتا طنطا حاليا يدعوا الناس إلى طريق الله تعالى ولما توفى خلفه على قيادة الطريقة تلميذه الشيخ عبد العال الأنصارى المتوفى سنة 733 هجرية وطريقة الشيخ السيد أحمد البدوى ملتزمة بالكتاب والسنة فقد قال : عن ذلك طرقتنا هذه فى التصوف مبنية على الكتاب والسنة والصدق والصفاء ويقول : أيضا أحسنكم أخلاقا أكثركم إيمانا بالله تعالى إذكر الله تعالى بقلب حاضر وإياك والغفلة عن الله تعالى فإنها تورث القسوة فى القلب ومن أجل أقواله : لتلاميذه من لم يكن عنده علم لم تكن له قيمة فى الدنيا ولا فى الآخرة ومن لم يكن عنده حلم لم ينفعه علم ومن لم يكن عنده سخاء لم يكن له من ماله

نصيب ومن لم تكن عنده شفقة على خلق الله تعالى لم تكن له شفاعة عند الله تعالى ومن لم يكن له صبر لم يكن له فى الأمور سلامة ومن لم تكن عنده تقوى لم تكن له منزلة عند الله تعالى ومن حرم هذه الخصال فليس له منزلة فى الجنة

وبذلك ينحو الشيخ السيد أحمد البدوى فى التصوف منحى أخلاقيا شأنه فى ذلك شأن أصحاب الطرق الأخرى وقد قدر لطريقته انتشارا واسعا فى مصر منذ عصره إلى الآن

ذكر ما وصفه به فولرز

وقد وصفه فولرز فى لمادة التى كتبها عنه بدائرة المعارف الإسلامية بأنه أكبرأولياء مصر ومحل تقديس أهلها منذ قرون

الطريقة البرهماتية

ثمة طريقة أخرى مصرية معاصرة للطريقة الأحمدية وحظيت أيضا فى مصر بإنتشار واسع هى الطريقة البرهماتية التى أسسها الشيخ إبراهيم الدسوقى القرشى توفى سنة 679 هجرية ودفن بمدينة دسوق وهو مصرى الأصل والمولد وقد ترجم له الإمام الشعرانى فى طبقاته ترجمة مطولة وانتشرت طريقته فى مصر وفى خارجها فى سوريا والحجاز واليمن

ضرورة الإلتزام فى التصوف بآداب الشريعة

كان الشيخ الدسوقى يؤكد على ضرورة الإلتزام فى التصوف بآداب الشريعة وفى ذلك يقول : الشريعة أصل والحقيقة فرع فالشريعة جامعة لكل علم مشروع والحقيقة جامعة لكل علم خفى وجميع المقامات مندرجة فيهما . والظاهر أنه كان من أصحاب الفناء عن شهود السوى يدلنا على ذلك قوله : توبة الخواص محو لكل ما سوى الله تعالى

شعره فى الحب الإلهى المؤدى إلى الفناء وشهود الوحدة

تجلى لى المحبوب فى كل وجهة
فشاهدته فى كل معنى وصورة
وخاطبنى منى بكشف سرائرى
فقال أتدرى من أنا قلت منيتى
فأنت مناى بل أنت دائما
إذا كنت أنت اليوم عين يقينى
فقال كذلك الأمر لكنه إذا
تعنيت الأشياء كنت نسختى
فأوصلت ذاتى بإتحادى بذاته
بغير حلول بل بتحقيق نسبتى
فصرت فناء فى بقاء مؤبد
لذات بديمومة سرمدية

إلى أن يقول : معبرا عن فكرة الحقيقة المحمدية أو القطبية

وما شهدت عينى سوى عين ذاتها
وأن سواها لا يلم بفكرتى

بذاتى تقوم الذات فى كل ذروة
أجدد فيها حلة بعد حلة
نعم نشأت فى الحب من قبل آدم
وسرى فى الأكوان من قبل نشأتى
أنا كنت فى العلياء مع نور أحمد
على الدرة البيضاء فى خلوتى
أنا كنت فى رؤيا الذبيح فداؤه
بلطف عنايات وعين حقيقة
أنا كنت مع إدريس لما أتى العلا
وأسكن الفردوس أنعم بقعة
أنا كنت مع عيسى على المهد ناطقا
وأعطيت داود حلاوة نغمة
أنا كنت مع نوح بما شهد الورى
بحارا وطوفانا على كف قدرة
أنا القطب شيخ الوقت فى كل حالة
أنا العبد إبراهيم شيخ الطريقة

فصل

ظهور وانتشار الطرق الصوفية فى
القرن الثامن فى العالم الإسلامى

قد ظهرت فى غير العالم العربى طرق صوفية كثيرة لا يتسع المجال للحديث عنها جميعا ففى فارس نشطت حركة تصوف الطرق أيضا إبان القرن السادس والسابع الهجرى فظهرت الطريقة الكبراوية المنسوبة إلى نجم الدين كبرى ولد فى سنة 540 هجرية وتوفى 648 هجرية وإليها ينسب فريد الددين العطار وتفرعت عنها فروع كثيرة فى القرون التالية وفى تركستان ظهر أحمد اليسوى صاحب الطريقة اليسوية

وتوفى سنة 562 هجرية وقد لعب دورا فى صبغ القبائل التركية بصبغة الإسلام كما يقول : ترمنجهام. وظهرت الطريقة الششتية فى وسك آسيا وكان لها تأثير كبير فى الهند ومؤسسها هو أبو معين الدين حسن ششنى ولد فى سجستان حوالى سنة 570 هجرية وتوفى سنة 633 هجرية واستمرت الطرق الصوفية فى الظهور والإنتشار فى العالم الإسلامى إبان القرون التالية ففى القرن الثامن ظهرت الطريقة النقشبندية لمؤسسها بهاء نقشيند البخارى 717 – 791 هجرية وقد انتشرت فى بلدان إسلامية عدة . والطريقة الخلوتية وهى طريقة فارسية فى سندها ونشرها فى مصر مصطفى كمال الدين البكرى المتوفى سنة 1162 هجرية وانتشرت فى تركيا الطريقة البكتاشية التى أسسها حاج بكتاشى المتوفى سنة 738 هجرية وهى فرع من اليسوية إلى جانب الطريقة المولوية المنسوبة لجلال الدين الرونى والتى ذكرناها ولا شك فى أن منهج الطرق فى التهذيب الروحى والخلقى ذو فاعلية قوية لأنه يتجه إلى وجدان الإنسان أساسا وكان الإمام محمد عبده مؤمنا بفاعلية هذا المنهج فى التربية والإصلاح الدينى والإجتماعى ولقد قال : يوما للسيد رشيد رضا إذا يئست من إصلاح الأزهر فإننى أنتقى عشرة من طلاب العلم وأجعل لهم مكانا عندى فى عين شمس أربيهم فيه تربية صوفية مع إكمال تعليمهم . وكان قد إقترح على السيد جمال الأفغانى هذا الإقتراح أيام كانا ينشئان العروة الوثقى فى باريس ويعقب السيد رشيد رضا على ذلك قائلا : ولو تم للإمام هذا على الوجه الذى يريده لكان أعظم أعماله فائدة

معالم المدرسة الصوفية الإسلامية

إن لكل مدرسة فكرية أو مذهبية معالم تبين منهجها وتوضح طريقتها وكذلك مدرسة التصوف الإسلامى منذ نشأتها وحتى يومنا هذا لها دعائم ومعالم قام عليها ووضعها علماء أجلاء من أهل التفسير والحديث والفقه من أمثال الحسن البصرى والجنيد والحارث المحاسبى والقشيرى وأبو حامد الغزالى والسهروردى وغيرهم من أهل العلم الذين شهد لهم أهل السنة بالفضل والفقه والأخلاق ومن الجرأة على الحق والتجنى على التاريخ الحكم على شىء ما قبل تصوره تصورا تاما فالوقوف على دراسة هذه المعالم يتبين لنا أن التصوف الإسلامى حق فى المصدر والمنشأ ولا علاقة له بمصادر وثنية أو يهودية أو نصرانية كما يزعم خصوم الصوفية وها هو حجة الإسلام الغزالى يقول : لقد انكشفت لى أثناء خلواتى وجلواتى مع ربى أمور وعلوم ومعارف لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ولكن القدر الذى أستطيع أن أذكره لينتفع به هو أنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريقة الله تعالى خاصة وأن سيرتهم من أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو أجمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وهذه هى أهم المعالم ليتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود وليهلك من هلك بينة ويحيى من حى عن بينة .

الدعوة الصوفية وتميزها

يعرف السيد عز الدين أبو العزائم الدعوة الصوفية وأهم ما يميزها عن غيرها أنها دعوة بعيدة عن تجسيم الله تعالى وتشبيهه بخلقه وبعيدة عن قتل وترويع المسلمين وبعيدة عن مسواة الأنبياء بالبشر وبعيدة عن استحلال أموال المسلمين وبعيدة عن السطحية والجمود والجهل وبعيدة عن التعصب وتفريق المسلمين وبعيدة عن البدع السيئة وبعيدة عن التواكل وبعيدة عن اتخاذ الإسلام كمظهر لا جوهر وبعيدة عن إختلاط الرجال بالنساء الأجانب . ومعنى هذا أن التصوف لا يعرف التطرف والغلو

ضرورة الشيخ عند الصوفية

يقول : الإمام على كرم الله تعالى وجهه

لا تخلوا الأرض من قائم لله تعالى بحجة إما ظاهرا مشهورا أو خائف مغمورا لئلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته أولئك والله الأقلون عددا الأعظمون عند الله تعالى قدرا هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون وآنوا بما استوحش منه الغافلون عاشوا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى أولئك خلفاء الله تعالى فى أرضه والدعاة إلى دينه عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل ومن رحمة الله تعالى بخلقه ولطفه بعباده أن جعل لهم فى كل عصر من العصور إماما من أئمة الهدى والدين ينقذهم من الضلال ويهديهم سبيل الرشاد ويأخذ بقلوبهم إلى حضرة الله تعالى الكبير المتعال ويفرق بين الحق والباطل والمحكم والمتشابه ويدلهم على الصراط المستقيم سر قول : النبى صلى الله عليه وسلم " إن الله تعالى يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها " **رواه أحمد وأبو داود**

وهذا الإمام لا بد أن يكون من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وجعلهم عدل القرآن الكريم كما أخبرنا بذلك المعصوم صلى الله عليه وسلم بقوله :

" إنى تارك فيكم كتاب الله عزوجل حبل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتى أهل بيتى وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض " **رواه الإمام أحمد**

وأخرج الحاكم عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه أنه قال : وهو آخذ بباب الكعبة من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أبو ذر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ألا إن مثل أهل بيتى فيكم مثل سفينة نوح من قومه من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق "

لقد أخبرنا صلى الله عليه وسلم بضرورة التمسك بالكتاب الكريم والعترة الطاهرة ولا يغنى أحدهما عن الأخر فمن قال حسبنا كتاب الله تعالى ولا شأن لنا بأهل البيت فقد ضل ضلالا مبينا وخسر خسرانا عظيما لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : فمن تمسك بهما لن يضل أبدا ففيهما الهداية الكاملة والرسول صلى الله عليه وسلم يبشرنا بأنهما لن يفترقا إلى يوم القيامة بقوله : حتى يردا على الحوض لذلك وجب على المؤمن أن يبحث عن هذا الإمام ويتعرف عليه ويدخل فى معيته .

وفى الأثر – من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية . والقرآن الكريم يؤكد على ذلك بقول : الله عزوجل

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) **التوبة 119**

ومن صعب عليه البحث عن الإمام فلا أقل من إتباع شيخ من الأشياخ الذين لهم سلسلة نسب برسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا شأنه شأن الطبيب فإذا كانت صحة الأبدان تطلب وجوده فكذلك صحة القلوب وسلامتها متوقفة على الأطباء الراسخين فى العلم بعلل النفوس وأمراض القلوب وإذا كان صاحب المرض العضوى ينتهى به المرض إلى الموت إذا أهمل نفسه ولم يسعى إلى الطبيب فإن صاحب القلب المريض والنفس الأمارة بالسوء ينتهى به مرضه إلى الهلاك الأبدى فكان طلب العافية للقلوب أشد من طلبه للأبدان والله تبارك وتعالى يقول : (الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا) **الفرقان 59**

العلم والعمل لا يغنيان عن الشيخ

ربما يسأل سائل ألا يكفى العلم ويغنى العمل هم هذا الإمام أو الشيخ ؟

والجواب – لا ينبغى للعالم ولو تبحر فى العلم حتى صار فريدا عصره وواحد زمانه أن يقتصر على علمه وإنما الواجب عليه الإجتماع بأهل الطريق ليدلوه على الطريق المستقيم حتى يكون مع قوم يحدثهم الحق فى سرائرهم من شدة صفاء باطنهم ويخلصهم من الأدناس وأن يجتنب ما شاب علمه من كدورات الهوى وحظوظ نفسه الأمارة بالسوء حتى يستعد لفيضان العلوم اللدنية على قلبه والإقتباس من مشكاة أنوار التبوة ولا يتيسر ذلك عادة إلا على يد شيخ كامل عالم بعلاج أمراض النفوس وتطهيرها من النجاسات المعنوية وحنكة معاملاتها علما وذوقا ليخرجه من رعونات نفسه ودسائسها الخفية فلا غنى عن الشيخ الدال على الله تعالى والمؤدب للنفس والمعالج للقلب وإذا كان الأمر كذلك فما هى أوصاف الشيخ فلي كل من ادعى المشيخة يكون شيخا فما أكثر أصحاب الدعاوى الكاذبة الذيم يخدعون الناس بزخرف القول والإستعانة بالجن والحيل الشيطانية وهؤلاء لصوص وقطاع طرق وسبة فى جبين التصوف فلا يغرنك كثرة أتباعهم أو خوارقهم التى موهوا بها على الناس فاحذرهم وحذر منهم فمن لم تتوفر فيه الأوصاف والشروط اللازمة للمشيخة لا يرجى من وراء اتباعه خيرا قط ولعل هذا من أسباب ابتعاد كثير من الشباب عن ساحة التصوف الإسلامى فالشيخ الذى يطلبه المريد لطريق الله عزوجل والسير إليه بالقلب له علامات يستدل بها على استحقاقه المشيخة والتربية فإذا لم تحصل له تلك العلامات بأجمعها بحيث يكون متصفا بها ومتحققا بها فما هو يسرى فى ادعائه التربية بمقالة أو حالة بجلوسه للتربية إلا فى ليالى الهوى لأنه لما لم يكن مستحقا ولا مؤهلا لها وعلم عنده لا بالشريعة ولا بالطريقة فابعده من دائرة المشيخة ففاقد الشىء لا يعطيه وكيف يقربك من حضرة الله تعالى من هو بعيد عن الله تعالى فلا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله تعالى مقاله فالشيوخ ثلاثة يقول : الشيخ أبو العباس زروق الشيخ ثلاثة : -

الأول – شيخ تعليم . وشروطه ثلاثة تحصيل عقد الباب المتكلم فيه والقدرة على الإلقاء بلا تقصير والإنصاف فى الرد والقبول

ثانيا – شيخ تربية . وشروطه ثلاثة علم المعاملة ظاهرا وباطنا والبصيرة الناقدة والتجربة الحاصلة

ثالثا – شيخ ترقية وشروطه ثلاثة

البصيرة الناقدة والنور التام والهمة العالية فبالبصيرة يميز وبالنور يمد وبالهمة يرفع

الشيخ من تحقق بخمس

كما اتفق الصوفية على أن الشيخ من تحقق بخمسة أشياء

الأول – ذوق صريح

الثانى – علم صريح

الثالث – همة عالية

الرابع – حالة ممرضية

الخامس – بصيرة نافذة

هذه هى أهم أوصاف الشيخ الدال على طريق الله عزوجل .

وصية الشيوخ العارفين بالعلم

هل يمكن عبادة الله تعالى التى هى حقه على العباد كلهم إلا بالعلم ثم شرائع الإسلام واجبة على كل مسلم ولا مكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها والله تعالى أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا

" طلب العلم فريضة على كل مسلم" **حديث شريف رواه ابن ماجة**

وأنه من لم يطلب العلم لم يفلح حتى كان العلماء والفقهاء والشيوخ يعدون من لا علم له من السفلة . وقد سئل ذو النون عن السفلة قال : فقال : من لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ولا يتعرفه .

فصل

العهد عند الصوفية مشروع

ورد هذا السؤال إلى فضيلة الدكتور : على جمعة مفتى جمهورية مصر العربية وقد تفضل فضيلته بالإجابة وهذا نص السؤال

سمعنا أنه يوجد عند الصوفية ما يسمى بالعهد ؟ فماذا يقصدون به ؟

وهل بهذا العهد وجهة شرعية أو تخريج على أصول الشرع ؟ أم أنه بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ؟

الجواب – بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله وصحبه ومن ولاه وبعد

فقد شاع بين الصوفية مصطلحات تدل على عمق العلاقة بين الشيخ والمريد فسموا بداية الرباط بالعهد البيعة التحكيم إلباس الخرفة الطريق وهى ألفاظ لها دلالات تربوية سلوكية عميقة تعنى بحسب الظاهر إبتداء الرابطة بين المريد السالك والشيخ الكامل وبحسب الحقيقة والباطن ربط المريد بالمراد سبحانه . ويرجع العهد فى اللغة إلى عدة معان منها الوصية والضمان والأمر والرؤية والمنزل فكل ما عوهد الله عليه وكل ما بين العباد من المواثيق هو عهد وأمر اليتيم من العهد كذلك كل ما أمر الله به ونهى عنه وفى حديث الدعاء " وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت "

أخرجه البخارى

وأما العهد فى العرف الصوفى فيقول : السهروردى هو ارتباط بين الشيخ والمريد وتحكيم من المريد للشيخ فى نفسه لمصالح دينه ودنياه يرشده ويهديه ويبصره بآفات النفوس وفساد الأعمال ومداخل العدو الشيطان وفى معنى العهد أيضا البيعة فهى مدخل الصحبة المباركة بين الشيخ والمرشد ومريد الوصول إلى معرفة الحق تبارك وتعالى وبها يسرى تأثير الشيخ فى مريده بالحال والمقال ويتحقق الرباط الوثيق الذى يستهدف تزكية النفس الإنسانية وصلاح القلب والروح وذلك لأنه لا يكفى عند الصوفية فى سلوكهم إلى طريق الله عزوجل مجرد العلم فمجرد قراءة كتب التصوف عندهم بلا معاناة يعد متعة ذهنية وثقافية عقلية قد تشارك فيها النفس الأمارة بالسوء فتكون طريقا إلى الضلالة طردا أو عكسا . أما المنح الروحية من الله تعالى فهى نتيجة الجهود والأعمال فالصوفية أرباب أحوال لا أصحاب أقوال وعندهم لم ينل المشاهدة من ترك المجاهدة فالسائر فى طريق الله سبحانه لا بد له من ترك المرغوبات والمألوفات ومراعاة الأنفاس ثم لا بد له من زاد وهو التقوى وسلاح يتقوى به على عدوه اللدود وهو الذكر ومركوب يقصر عليه وعثاء السفر وهو الهمة ولا يستقيم السير مع كل هذا إلا بدليل وهو الأستاذ الكامل المربى الفاضل وقد اشتهرت عباراتهم من لا شيخ له فالشيطان شيخه فمن أراد السلوك إلى الله على يد بعض الواصلين وقد يسر الله له من هو كذلك فعليه أن يلزم نفسه طاعته والدخول تحت أوامره ونواهيه فإن المرشد يتعهد السائر إلى الله بالتوجيه ويرشده إلى الطريق الحق ويضىء له ما أظلم من جوانب نفسه حتى يعبد الله تعالى على بصيرة وهدى ويقين فإن المريد يبايع المرشد ويعاهده على السير معه فى طريق التخلى عن العيوب والتحلى بالصفات الحسنة والتحقق بركن الإحسان والترقى فى مقاماته وحفظ العهد هو الوقوف عند ما حده الله تعالى لعباده فلا يفقد حيث أمر ولا يوجد حيث نهى وحفظ عهد الربوبية والعبودية هو ألا ينسب كمالا إلا إلى الرب ولا نقصانا إلا إلى العبد . فالعهد فى حقيقته عهد الله واليد يد الله (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) **الفتح 10**

ومن هنا كان التحذير من عاقبة النكوص والمخالفة ونقض العهد (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) **الفتح 10**

فالعهد الظاهر عهد الشيخ والعهد الباطن الحقيقى هو عهد الله عزوجل فإن اتضح معنى العهد الصوفى وفى عرف الصوفيون بقى سؤال وهو وهل لهذا العهد الصوفى توجيه شرعى وتجريج يجعله منسجما مع أصول الشرع الشريف ؟

والجواب – نعم له تخريج شرعى من نصوص الكتاب والسنة فأما القرآن فقد قال : الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) **الفتح 10**

نقل تفسير روح البيان عن الشيخ إسماعيل بن سودكين قوله : المبايعون ثلاثة الرسل والشيوخ الورثة والسلاطين والمبايع فى هؤلاء الثلاثة على الحقيقة واحد هو الله تعالى وهؤلاء الثلاثة شهود الله تعالى على هؤلاء الأتباع وعلى هؤلاء الثلاثة شروط يجمعها القيام بأمر الله وعلى الأتباع الذين بايعوهم شروط يجمعها المتابعة فيما أمروا فأما الرسل والشيوخ فلا يأمرون بمعصية أصلا فإن الرسل معصومون من هذا والشيوخ محفوظون . أما السلاطين فمن لحق منهم بالشيوخ كان محفوظا وإلا كان مخذولا ومع هذا فلا يطاع فى معصية والبيعة لازمة حتى يلقوا الله تعالى . وقوله : تعالى (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) **الإسراء 34**

فالعهد المذكور عام شامل أنواع البيعة الثلاثة التى ذكرت آنفا ومن البيعة بين الشيخ المربى ومريده ومن السنة النبوية ما رواه عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه فبايعناه على ذلك " **رواه البخارى**

وعن يعلى بن شداد قال : حدثنى أبى شداد بن أوس وعبادة بن الصامت حاضر يصدقه قال : كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هل فيكم غريب يعنى أهل الكتاب فقلنا لا يا رسول الله فأمر بغلق الباب وقال : إرفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله فرفعنا أيدينا ساعة ثم وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : الحمد لله اللهم بعثتنى بهذه الكلمة وأمرتنى بها ووعدتنى عليها الجنة وإنك لا تخلف الميعاد ثم قال : أبشروا فإن الله عزوجل قد غفر لكم " أخرجه الإمام أحمد والحاكم فى مستدركه

وعن بشير بن الخصاصية

قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم لأبايعه قال : فاشترط على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن أقيم الصلاة وأن أؤدى الزكاة وأن أحج حجة الإسلام وأن أصون شهر رمضان وأن أجاهد فى سبيل الله فقلت : يا رسول الله أما اثنتان فوالله ما أطقهما الجهاد والصدقة فإنهم زعموا أنه من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله فأخاف إن حضرت تلك جشعت نفسى وكرهت الموت والصدقة فوالله ما لى إلا غنيمة وعشر ذود هن رسل أهلى وحمولتهم قال : فقبض رسول الله صلى الله

عليه وسلم يده ثم حرك يده ثم قال : فلا جهاد ولا صدقة فلم تدخل الجنة إذا قال : قلت : يا رسول الله أنا أبايعك قال : فبايعت عليهن كلهن " **أخرجه الإمام أحمد**

وروى عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه

قال : قلت :" يا رسول الله اشترط على فأنت أعلم بالشرط قال : أبايعك على أن تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتنصح لكل مسلم وتبرأ من الشرك " **أخرجه الإمام أحمد**

وعن جرير أيضا قال :" بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وايتاء الزكاة والنصح لكل مسلم " **أخرجه البخارى**

يستفاد مما ذكر من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم أن العهد الصوفى المذكور لا يمكن أن يخرج عن هذه الأصول الشرعية ولما فيه من التعاون على البر والتقوى قال : تعالى (عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) **المائدة 2**

وعلى هذا فليس العهد الصوفى بهذا الإعتبار من مخالفة شرعية ولا يعد تعارضا مع أصول الشريعة ونصوص الكتاب والسنة تشهد له وفقنا الله لطاعته فى السر والعلن والله تعالى أعلى وأعلم

فصل

الأولياء

عن وهب بن منبه قال : قال : الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا يحزنون قال : عيسى عليه السلام هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها والذيت نظروا إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يمتيهم وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم فصار استكثارهم منها استقلالا وذكرهم إياها فواتا وفرحهم بما أصابوا منها

حزنا فما عارضهم من نائلها رفضوه وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه خلقت الدنيا عندهم فليسوا يجدودها وخربت بينهم فليسوا يعمرونها وماتت فى صدورهم فليسوا يحيونها يهدمونها ويبنون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون ما يبقى لهم رفضوها فكانوا برفضها فرحين وباعوها فكانوا ببيعها رابحين ونظروا إلى أهها صرعى قد حلت فيهم المثلات فأحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة يحبون الله ويحبون ذكره ويستضئون بنوره لهم خبر عجيب وعندهم الخبر العجيب بهم قام الكتاب وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا وبهم علم الكتاب وبه علموا ليسوا يرون نائلا مع ما نالوا ولا أمانا دون ما يرجون ولا خوفا دون ما يحذرون

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمرو بن الجموح أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا يحق للعبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق الولاية قال : الله إن أوليائى من عبادى وأحبائى من خلقى الذين يذكرون بذكرى وأذكرهم بذكرهم "

أخرجه الإمام أحمد والحافظ السيوطى

عن سعيد بن جبير

قيل : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أولئك الذين هم أولياء الله قال : "هم الذين إذا رؤوا ذكر الله " **أخرجه ابن المبارك والترمذى وابن مردويه**

عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال : قال : موسى عليه السلام يا رب من أهلك الذين هم أهلك والذين يؤون فى ظل عرشك يوم القيامة قال : هم التربة أيديهم الطاهرة قلوبهم الذين يتحابون بجلالى الذين إذا ذكرت ذكرونى وإذا ذكرونى ذكرتهم يسبغون الوضوء عند المكاره وينيبون إلى ذكرى كما تنيب النسور إلى أوكارها يكلفونن بحبى كما يكلف الصبى بحب الناس يغضبون لمحارمى إذا استحلت كما يغضب النمر إذا حزن

حدثنا عبد الله ذكر محمد بن إدريس أخبرنا المعلى بن عيسى أخبرنا نهشل نبن سعيد القشيرى عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس رضى الله عنه رفعه قال : ثلاث من كن فيه استحق ولاية الله تعالى وطاعته حلم أصيل يدفع به سفه السفيه عن نفسه وورع صادق يحجزه عن معاصى الله وخلق حسن يدارى به الناس

الأبدال وصفاتهم

حدثنا عبد الله ذكر محمد بن إدريس الرازى حدثنا عثمان بن مطيع حدثنا سفيان بن عيينة قال : قال : لنا أبو الزناد لما ذهبت النبوة وكانوا أوتاد الأرض أخلف الله تعالى مكانهم من أرعين رجلا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقال : لهم الأبدال لا يموت رجلا منهم حتى ينشىء الله عزوجل مكانه آخر يخلفه وهم أوتاد الأرض قلوب ثلاثين منهم على مثل يقين إبراهيم عليه السلام لم يفضوا الناس بكثرة الصلاة ولا الصيام ولا بحسن التخشع ولا بحسن الجبلة ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة القلوب والنصيحة لجميع المسلمين ابتغاء مرضات الله بصبر وخير وبر وحلم وتواضع فى غير مذلة واعلم أنهم لا يلعنون شيئا ولا يؤذون أحد ولا يتطاولون على أحد تحتهم ولا يحقرونه ولا يحسدون أحدا فوقهم ليسوا متخشعين ولا متماوتين ولا معجبين ولا يحبون للدنيا ليسوا اليوم فى خشية وغدا فى غفلة

حدثنا عبد الله حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ذكر صالح المرى قال : سمعت الحسن يقول : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم
"إن بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بكثرة صيام ولا صوم ولا صدقة ولكن دخلوها برحمة الله وسخاوة الأنفس وسلامة الصدور" **أخرجه البيهقى**
حدثنا عبد الله حدثنا عبد الرحمن بن صالح حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن بكر بن خنيس يرفعه قال : علامة أبدال أمتى لا يلعنون شيئا أبدا
رواه ابن أبى الدنيا
حدثنا عبد الله حدثنا الحسن بن أبى ربيع حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب عن أبى قلابة قال : قال : النبى صلى الله عليه وسلم "لا يزال سبعة لا يدعون الله بشىء إلا استجاب لهم بهم يمطرون وبهم ينصرون وحسبته قال :وبهم يدفع عنهم "
رواه الطبرانى وابن عساكر

صفة أولياء الله تعالى

حدثنا عبد الله ذكر محمد بن الحسين أخبرنا عبد العزيز أبو خالد الأموى أخبرنا مسلمة العابد عن عبد الحميد بن جعفر أن الحسن كان يقول : إن لله عبادا كمن رأى أهل الجنة فى الجنة وهم مخلدون وكمن رأى أهل النار فى النار معذبون قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة وحوائجهم عند الله تعالى مقضية وأنفسهم عن الدنيا عفيفة صبروا أياما قصارا لعقبى راحة طويلة أما الليل فصافة أقدامهم تسيل دموعهم على خدودهم يجأرون إلى ربهم ربنا ربنا وأما النهار فحكماء علماء أتقياء كأنهم القداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ويقول : قد خلطوا وقد خالط القوم أمر عظيم
عن خالد بن معدان قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم
"إن أحب عبادى إلى الذين يتحابون من أجلى الذين يعمرون مساجدى ويستغفرون بالأسحار أولئك الذين إذا أردت أهل الأرض بعقوبة أو بعذاب ثم ذكرتهم صرفت عقوبتى عنهم من أجلهم" . **رواه الطبرانى**

خيار عباد الله تعالى وأحبهم إليه

عن ابن أبى أوفى قال : خيار عباد الله تعالى الذين يحبون الله والذين يحببون الله تعالى إلى عباده يراعون الشمس والقمر والأظلة والنجوم لذكر الله تعالى .
عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الله الجدلى قال : قال : الله تعالى يا داود أحبنى وأحب من يحبنى وحببنى إلى الناس قال : يا رب أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى الناس قال : تذكرهم آلائى فلا يذكرون منى إلا حسنا .
حدثنا عبد الله أخبرنا إسحاق بن إبراهيم أخبرنا أبو عامر قبيصة عن يونس بن أبى إسحاق عن أبى إسحاق قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد فرئى ذكر الله تعالى
عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ألا أخبركم بأحبكم إلى الله قالوا : بلى يا رسول الله وظننا أنه يسمى رجلا قال : إن أحبكم إلى الله أحبكم إلى الناس ثم قال : ألا أخبركم بأبغضكم إلى الله قلنا بلى يا رسول الله فظننا أنه يسمى رجلا فقال : أبغضكم إلى الله أبغضكم إلى الناس " . **رواه الطبرانى**

عن ضمرة بن حبيب قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم حببوا الله عزوجل إلى الناس وحببوا الناس إلى الله يحببكم الله ": **رواه ابن أبى الدنيا**
عن أنس رضى الله عنه
قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره " **رواه البخارى ومسلم**

عن وهب بن منبه
قال : وجدت فى آخر ثلاثين سطرا من زبور داود عليه السلام اسمع منى والحق أقول من لقينى وهو يحبنى أدخلته الجنة

كرامات الأولياء

ذكر غير واحد من العلماء منهم الحافظ ابن كثير أن كرامات الأولياء معجزات للأنبياء لأن الولى إنما نال ذلك ببركة متابعته لنبيه وثواب إيمانه ومذهب أهل السنة لا ينكرون كرامات الأولياء

روى منجاب قال : غزونا مع العلاء بن الحضرمى دارين فدعا بثلاث دعوات فأستجيب له فنزلنا منزلا فطلب الماء فلم يجده فقام وصلى ركعتين وقال : اللهم إنا عبيدك وفى سبيلك نقاتل عدوك اللهم اسقنا غيثا نتوضأ به ونشرب ولا يكون لأحد فيه نصيب غيرنا فسرنا قليلا فإذا نحن بماء حين أقلعت السماء عنه فتوضأنا منه وتزودنا وملأت إداواتى وتركتها مكانها حتى أنظر هل أستجيب له أم لا فسرنا قليلا ثم قلت : لأصحابى نسيت إداواتى فرجعت إلى ذلك المكان فكأنه لم يصبه ماء قط ثم سرنا حتى أتينا دارين والبحر بيننا وبينهم فدعا العلاء فقال : يا على يا حكيم إنا عبيدك وفى سبيلك نقاتل عدوك اللهم فاجعل لنا إليهم سبيلا فدخلنا البحر فلم يبلغ الماء لبودنا ومشينا على متن الماء ولم يبتل لنا شىء .

رواه البخارى فى التاريخ الكبير ورواه البيهقى

وروى البيهقى - من طريق عيسى بن يونس عن عبد الله بن عون عن أنس بن مالك قال : أدركت فى هذه الأمة ثلاثا لو كانت فى بنى إسرائيل لما تقاسمهما الأمم قلنا : ما هى يا أبا حمزة قال : كنا فى الصفة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتته إمرأة مهاجرة ومعها ابن لها قد بلغ فأضاف النبى صلى الله عليه وسلم المرأة إلى النساء وأضاف ابنها إلى الرجال فلم يلبث أن أصابه وباء المدينة فمرض أياما ثم قبض فغمضه النبى صلى الله عليه وسلم وأمر بجهازه فلما أردنا أن نغسله قال : يا أنس إئت أمه فأعلمها فأعلمتها قال : فجاءت حتى جلست عند قدميه فأخذت بهما ثم قالت : اللهم إنى أسلمت لك طوعا وخلعت الأوثان فلا تحملنى من هذه المصيبة ما لا طاقة لى بحمله قال : فوالله ما انقضى كلامها حتى حرك قدميه وألقى الثوب عن وجهه وعاش حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى هلكت أمه وقال : أنس ثم جهز عمر بن الخطاب جيشا واستعمل عليهم العلاء بن الحضرمى وكنت فى غزاته فأتينا مغازينا فوجدنا القوم قد بدروا بنا فعفوا آثار الماء والحر شديد فجهدنا العطش ودوابنا وذلك يوم الجمعة فلما مالت الشمس لغروبها صلى بنا العلاء ركعتين ثم مد يده إلى السماء وما نرى فى السماء شيئا قال : فوالله ما حط يده حتى بعث الله ريحا وأنشأ سحابا وأفرغت حتى ملأت الغدر والشعاب فشربنا وسقينا ركابنا واستقينا قال : فثم أتينا عدونا وقد جاوز خليجا فى البحرإلى جزيرة فوقف العلاء على الخليج وقال :

ياعلى يا عظيم يا حليم يا كريم ثم قال : أجيزوا بسم الله قال : فأجزنا ما يبل حوافر دوابنا فلم نلبث إلا يسيرا فأصبنا العدو عليه فقتلنا وأسرنا وسبينا ثم أتينا الخليج فقال : العلاء مثل مقالته فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا ثم ذكر أنس موت العلاء ودفنهم إياه فى أرض لا تقبل الموتى ثم إنهم حفروا عليه لينقلوه منها إلى أرض غيرها فلم يجدوه ثم وإذا اللحد يتلألأ نورا فأعادوا التراب عليه ثم إرتحلوا

وروى الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر فى ترجمته أبى مسلم الخولانى عن عبد الوهاب بن محمد عن إسماعيل بن عياش الحطيمى قال : حدثنى شراحيل بن مسلم الخولانى أن الأسود بن قيس بن ذى الحمار العنسى تنبأ فى اليمن فأرسل إلى أبى مسلم الخولانى فأتى به فلما جاء به قال : أتشهد أنى رسول الله قال : ما أسمع قال : أتشهد أن محمدا رسول الله قال : نعم قال : فردد عليه ذلك مرارا ثم أمر بنار عظيمة فأججت فألقى فلم تضره فقيل للأسود إنفه عنك وإلا أفسد عليك من اتبعك فأمره فتارتحل فأتى المدينة وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأستخلف أبو بكر فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد ثم دخل المسجد وقام يصلى إلى سارية فبصر به عمر بن الخطاب فأتاه فقال : ممن الرجل فقال : من أهل اليمن قال : ما فعل الرجل الذى حرقه الكذاب بالنار قال : ذاك عبد الله بن أيوب قال : فأنشدك بالله أنت هو قال : اللهم نعم قال : فاعتنقه ثم ذهب به حتى أجلسه بينه وبين أبى بكر الصديق فقال : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام .

وذكرأبو زرعة الرازى فى كتاب دلائل النبوة

قال : حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت بن أنس بن مالك أنا عباد بن بشر وأسيد بن خضير خرجا من عند النبى صلى الله عليه وسلم فى ليلة ظلماء حندس فأضاءت عصا أحدهما مثل السراج وجعل يمشيان بضوئها فلما تفرقا إلى منزلهما أضاءت عصا ذا وعصا ذا .

وذكر الحسن بن عرفة

قال : حدثنا عبد الله بن إدريس عن إسماعيل بن أبى خالد عن أبى سبرة النخعى قال : أقبل رجل من اليمن فلما كان فى بعض الطريق نفق حماره فقام وتوضأ ثم صلى ركعتين ثم قال : اللهم إنى جئت مجاهدا فى سبيلك وابتغاء مرضاتك وأنا أشهد أنك تحيى الموتى وتبعث من فى القبور اللهم لا تجعل لأحد على اليوم منة اللهم أسألك أن تبعث حمارى فقام الحمار ينفض أذنيه . قال البيهقى هذا إسناد صحيح ومثل هذا يكون معجزة لصاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم وكرامة لهذا الرجل . وقد رواه ابن أبى الدنيا من طريق إسماعيل عن الشعبى فذكره قال : الشعبى فأنا رأيت هذا الحمار بيع أو يباع فى الكناسة وهى سوق بالكوفة . وقد أوردها ابن أبى الدنيا من وجه آخر وأن ذلك كان فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد قال : بعض قومه

ومنا الذى أحيا الإله حماره

وقد مات منه كل عضو مفصل

حدثنا عبد الله خلف بن هشام حدثنا أبو عوانة قال : رأيت محمد بن سيرين يمر فى السوق وكبر الناس قال : خلف قد أعطى ابن سيرين هديا وسمتا وخشوعا فكان إذا رأوه ذكروا الله تعالى
ومن أراد المزيد فعليه بمطالعة الكتب الخاصة عن كرامات الأولياء وقد عرضت عرضا بسيطا فى هذا الموضوع

الباب السابع

حياة الأنبياء عليهم السلام

الأنبياء أحياء فى قبورهم

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " الأبياء أحياء فى قبورهم يصلون " أخرجه البيهقى ونسبه السيوطى فى الجامع الصغير إلى أبى يعلى الموصلى فى مسنده وقال شارحه هو حديث صحيح وقال صاحب نظم

المتناثر من الحديث المتواتر ومن جملة ما تواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم " حياة الأنبياء عليهم السلام . وقال الإمام السيوطى فى مرقاة السعود حاشية سنن أبى داود حياة الأنبياء تواترت بها الأخبار . وقال فى كتابه الأذكياء بحياة الأنبياء ما نصه : حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا علما قطعا عندنا من الأدلة فى ذلك وتواترت الأخبار الدالة على ذلك

وقال : الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فى كتاب الروح نقلا عن أبى عبد الله القرطبى صح عن النبى صلى الله عليه سلم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء وأنه صلى الله عليه وسلم إجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء والمعراج فى بيت المقدس وفى السماء خصوصا بسيدنا موسى عليه السلام وقد أخبرنا صلى الله عليه وسلم ما من أحد يسلم عليه إلا رد الله تعالى عليه روحه حتى يرد عليه السلام .

ويحصل من جملة ذلك القطع بأن موت الأنبياء عليهم السلام إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء وذلك كالحال بالنسبة إلى الملائكة فإنهم أحياء موجودين لا نراهم

وقد دل القرآن الكريم على حياة النبى صلى الله عليه وسلم وحياة جميع النبيين والمرسلين عليهم الصلاة والسلام فهم أحياء بعد وفاتهم أيضا وذلك أن الله تعالى قال : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

آل عمران 169

فهذه الآية تدل على حياة جميع الأنبياء والمرسلين بمفهوم الموافقة وذلك أن الأنبياء أولى بتلك المنقبة من الشهداء وتدل على حياة نبينا صلى الله عليه وسلم بعموم لفظها وذلك أن الله تعالى جمع له صلى الله عليه وسلم بين النبوة والشهادة كما صح ذلك

قال : الإمام السيوطى رحمه الله

وما من نبى إلا وقد جمع بين النبوة والشهادة

ثانيا – قال : عليه الصلاة والسلام "إن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء "مروى عن أوس بن أوس من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد وابن ماجة والدارمى والبيهقى فى كتاب الدعوات الكبير وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحه والطبرانى فى الكبير وسعيد فى سننه وابن أبى شيبة والحاكم وأيضا صححه النووى أخرج أبو يعلى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "والذى نفسى بيده لينزلن عيسى بن مريم ثم لئن قام على قبرى فقال : يا محمد لأجيبنه " .

وقال : القرطبى حافظ الأندلس فى حديث الصقة عن شيخه ما نصه فى تذكرته الموت ليس بعدم محض وإنما هو إنتقال من حال إلى حال ويدل ذلك على أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء يرزقون فرحون مستبشرون فهذه صفة الأحياء فى الدنيا وإذا كان فى الشهداء فالأنبياء أحق بذلك وأولى وقد صح أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء وأنه صلى الله عليه وسلم إجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس وفى السماء ورأى موسى عليه السلام قائما يصلى فىقبره وأخبر صلى الله عليه وسلم أنه يرد السلام على من يسلم عليه إلى غير ذلك بما يحصل من جملته القطع بأن موتهم

إنما هو راجع إلى أن غيبوا بحيث لا نراهم وإن كانوا موجودين أحياء ولا يراهم أحد من نوعنا إلا من خصه الله تعالى بكرمه

وقال : البيهقى فى دلائل النبوة الأنبياء أحياء عند ربهم كالشهداء

وقال : الشيخ تقى الدين السبكى مؤلف كتاب جمع الجوامع ما نصه حياة الأنبياء كالشهداء فى القبر كحياتهم فى الدنيا ويشهد له صلاة موسى عليه السلام فى قبره فإن الصلاة تستدعى جسما حيا وكذلك الصفات المذكورة فى الأنبياء ليلة الإسراء كلها صفات الأجسام ولا يلزم فى كونها حياة حقيقية أن تكون الأبدان معها كما كانت فى الدنيا فى الإحتياج إلى الطعام والشراب وأما الإدراكات كالعلم والسماع فلا شك أن ذلك ثابت ولسائر الموتى

وقال : البرهان اللقانى فى شرح جوهرة التوحيد

ما نصه الرابع من التنبيهات الأنبياء أحياء فى قبورهم وبعد موتهم

قال : الإمام بدر الدين بن الصاحب فى تذكرته

ما نصه فصل حياته صلى الله عليه وسلم بعد موته فى البرزخ

قد دل على ذلك تصريح الشارع وإيماؤه ومن القرآن قوله : تعالى (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

آل عمران 169

فهذه الحالة وهى الحياة فى البرزخ بعد الموت حاصلة للشهداء من الأمة وحاصلة لمن له هذه المرتبة لا سيما فى البرزخ ولا تكون رتبة أحد من الأمة أعلى رتبة من النبى صلى الله عليه وسلم بل إنما حصلت لهم هذه الرتبة بتزكيته وتبعيته.

وقال : أيضا ما نصه

قال : عليه الصلاة والسلام "مررت على موسى ليلة أسرى بى عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلى "

وهذا صريح فى إثبات الحياة لموسى عليه السلام فإنه وصفه بالصلاة وأنه كان قائما ومثل هذا لا توصف به الروح وإنما يوصف به الجسد وفى تخصيصه بالقبر دليل على هذا فإنه لو كان فى أوصاف الروح لم يحتج لتخصيص بالقبر فإن أحدا لم يقل إن أرواح الأنبياء مسجونة فى القبر مع الأجساد وأرواح الشهداء والمؤمنين فى الجنة

وقال : البرهان اللقانى فى شرحه الصغير

ما نصه ونقطع بعودة حياة كل ميت فى قبره وبنعيم القبر وعذابه وهما من الأعراض المشروطة بالحياة لكن لا يتوقف على البينة . وأما دلالة الحياة للأنبياء فمقتضاها أنها مع البينة وقوة النفوذ فى العالم مع الإستغناء عن العوائد الدنيوية . ومن هنا قال : أبو الحسن الأشعرى رحمه الله النى صلى الله عليه وسلم فى حكم الرسالة الآن

وسئل البارزى رحمه الله – هل النبى صلى الله عليه وسلم حى فى قبره ؟

فأجاب هو حى

قال : الأستاذ أبو منصور عبد القادر بن طاهر البغدادى الفقيه الأصولى شيخ الشافعية فى أجوبة مسائل قال : المتكلمون المحققون من أصحابنا

إن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حى بعد وفاته وأنه يبشر بطاعات أمته ويحزن لمعاصى العصاة وأنه تبلغه صلاة من يصلى عليه من أمته .

وقال : إن الأنبياء لا يبلون ولا تأكل الأرض منهم شيئا وقد مات موسى عليه السلام فى زمانه وأخبر نبينا صلى الله عليه وسلم أنه رآه فى قبره مصليا وذكر حديث الإسراء والمعراج أنه رآه فى السماء الرابعة ورأى آدم وإبراهيم عليهما السلام إذا صح لنا الأصل قلنا : نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد صار حيا بعد وفاته وهو على نبوته

وقال : الحافظ البيهقى فى كتاب الإعتقاد

الأنبياء عليهم السلام بعدما قبضوا ردت إليهم أرواحهم فهم أحياء عند ربهم وقد رأى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم جمتعة منهم وأمهم فى الصلاة وأخبر وخبره صدق أنا صلاتنا معروضة عليه وأن سلامنا يبلغه وأن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء . وقد صنف لإثبات حياتهم كتابا ثم قال : اللهم أحيينا على سنة هذا النبى الكريم وأتنا على ملته واجمع بيننا وبينه فى الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير .

وقال : الشافعى عفيف الدين اليافعى

الأولياء ترد عليهم أحوال يشاهدون بها ملكوت السموات والأرض ينظرون الأنبياء عليهم السلام غير أموات كما نظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى موسى عليه السلام فى قبره

وقد تقرر أن ما جاز للأنبياء عليهم السلام جاز للأولياء كرامة بشرط عدم التحدى ثن قال : ولا ينكر ذلك إلا جاهل وصوص العلماء فى حياة الأنبياء عليهم السلام كثيرة فنكتفى بهذا القدر

فصل

التبرك بالأماكن
ويستجاب فيها الدعاء

ذكر البراز زالطبرانى والبيهقى فى المواهب والإمام أحمد فى مسنده وصاحب السيرة الحلبية النبهانى فى جوهر البحار أن المصطفى صلى الله عليه وسلم نزل ليلة الإسراء والمعراج فى خمسة أماكن : -

الأولى – يثرب لما بلغوا أرض بيضاء ذات نخل قال : جبريل عليه السلام إنزل فصل هنا ففعل فقال : جبريل صليت بطيبة وإليها المهاجرة

الثانية – مدين لما بلغ مدين قال : جبريا عليه السلام إنزل فصل ففعل صلى الله عليه وسلم فقال : جبريل عليه السلام صليت بمدين حيث عاش شعيب ومدين كانت بشرم الشيخ فى سيناء
ثالثا – طور سيناء لما بلغ طور سيناء قال : جبريل عليه السلام إنزل فصل ففعل صلى الله عليه وسلم فقال جبريل عليه السلام صليت بطور سيناء حيث ناجى الله تعالى موسى عليه السلام
رابعا – بيت لحم لما بدت أرض لها قصور قال جبريل عليه السلام إنزل فصل ففعل صلى الله عليه وسلم فقال : جبريل عليه السلام صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى بم مريم عليه السلام
خامسا – قبر موسى عليه السلام لما مر النبى صلى الله عليه وسلم على قبر موسى وهو يصلى فى قبره عند الكثي الأحمر قال : جبريل عليه السلام إنزل فصل ففعل
هذا النزول المبارك يحدد لنا أماكن استجابة الدعاء فلماذا هذه الأمامن بالذات ؟
الجواب – أن الأرض تبارك بما يلامسها من الصالحين والدليل على ذلك أنه لولا هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم للمدينة ووجود روضته الشريفة بها لتساوت مع غيرها من الأماكن وما كانت قبلة تهفو إليها قلوب وأفئدة المحبين والعاشقين . فالمكان الذى سيعيش فيه صالح يثرب والمكان الذى عاش فيه صالح مدين والمكان الذى حدثت فيه كرامة لصالح طور سيناء والدليل الواضح على تأييد ذلك هو دعاء زكريا عليه السلام طالبا الشيء المستحيل فى المكان الذى حدثت فيه كرامة للسيدة مريم عليها السلام والمكان الذى ولد فيه صالح بيت لحم والمكان الذى دفن فيه صالح قبر موسى عليهما السلام يستجيب فيه الدعاء والدعاء فيه مقبول .
ومن السنة أن الإنسان إذا زار روضة نبى أو ولى أن يصلى فيه أى يدعوا الله تعالى معتقدا أن تلك الأماكن يستجاب فيها الدعاء كما ورد فى صحيح السنة فى أحاديث الإسراء وما ينكره المدعون للعلم على العامة من زيارة روضات الأولياء رضوان الله تعالى عليهم بدعوى أنهم يعتقدون أن الموتى ينفعون ويضرون هذا لجهلهم بالسنة والحقيقة أن أجهل مسلم لا يعتقد أن وليا ميتا فى قبره ينفع أو يضر ولا أن وليا حيا ينفع أو يضر لأن ذلك شرك ظاهر وإنما ينفع الله تعالى على يد من يشاء ويضر على يد من يشاء ولكن السنة بينت لنا أن دعاء الله تعالى فى الأماكن المباركة مستجاب وأن دعاء أهل الصلاح والتقوى والعلماء العاملين مستجاب إذا دعوا لأنفسهم أو لغيرهم ولو قيل لك إن وليا من أولياء الله تعالى دعا الله فأنزل المطر أو منع الوباء أو شفى المريض أو أغنى الفقير أو هدى العاصى أو إنتقم من ظالم أو أهلك معتديا فصدق فإن ذلك كله من السنة وإنما تطرف أهل الجدل الجهلاء بالسنة فأنزلوا عقائد المؤمنين من أهل الصلاح والتقوى فى أن الله تعالى يجيب دعاء أوليائه ويقبل سؤالهم وعقائدهم فى زيارة قبور الأولياء من أنهم إذا دعوا الله تعالى فى تلك الأماكن يستجاب لهم أنزلوها نزلة اعتقادهم الفاسد فى أن فلانا الغنى ينفع وفلانا الحاكم يضر فنظروا إلى أهل الإيمان بما نظروه فى أنفسهم فأنكروا عليهم
قال : الإمام أبو العزائم
إذا كان جبريل الأمين بحجة

دعا المصطفى فى قوله البرهان
ألا إنزل على قبر الكليم وصل
يا ضيا الأنبياء والأمر فيه بيان
وفى بيت لحم فانزلنصل داعيا
وصل بعد هذا حجة برهان

قال : تعالى (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) **آل عمران 38**
كان سيدنا زكريا عليه السلام يدخل على السيدة مريم عليها السلام فى مكان تعبدها وكان زوجا لخالتها فكان يرى عندها فاكهة الشتاء فى الصيف كما يرى فاكهة الصيف فى الشتاء فتعجب من ذلك فسأل (أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) **آل عمران 37**
(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ) فى ذلك المحراب الذى عمته البركة وتحققت به المعجزة وشملت السيدة مريم عليها السلام فيه رحمة الله الكبير المتعال أقبل سيدنا زكريا على الدعاء بلا تردد فى هذا المكان والمقام والحال .
قال : الإمام الألوسى رحمه الله هنا ظرف مكان واللام للبعيد والكاف للخطاب أى فى ذلك المكان حيث هو قاعد عند السيدة مريم عليهما السلام فى المحراب والآية تشير إلى أن الأمكنة الطاهرة المشرقة دائما بالطاعات والتوجه إلى الله تعالى يستجيب فيها الدعاء وطرق باب الرجاء ولما كانت الصلاة قربا إلى الله تعالى أمر الحق جل جلاله المؤمنين أن يتخذوا من مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام مصلى تأسيا وتبركا بالمكان وطلب للقرب من الله تعالى بإقتفاء أثر الصاحين قال : تعالى (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) **البقرة 125**
وسيدنا موسى عليه السلام ذهب ليحضر لزوجته ما تستدفىء به فرجع بالرسالة إذ نودى من قبل الحق جل جلاله (فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) **طه 12**
لقد سار فى البرية غير عارف بطرقها فألجأه السير إلى جانب الطور الأيمن الغربى فى عشية شاتية شديدة البرد (فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) **طه 10**
يعنى من يدلنى على الطريق وكان قد ضل الطريق فلما أتى الوادى رأى نورا عظيما ممتدا من عنان السماء إلى شجرة عظيمة هناك فلما دنا منها
(نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) **القصص 30**

فلما سمع ذلك علم أنه الحق تبارك وتعالى فناداه أن أدن وإقترب فلما قرب وسمع النداء ورأى تلك الهيبة خفق قلبه فأرسل الله تعالى إليه ملكا يشد ظهره ويقوى قلبه وسمع النداء (فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) **طه 12**
ففى هذه البقعة المباركة تجلى الحق جل جلاله على سيدنا موسى بالنعمة والرسالة إنه خرج باحثا عن نار لتدفئة أهله فجاءه النور وشملته عناية الله تعالى ورحمته وبركاته وعاد بالرسالة هذه الآيات تؤكد أن فى أرض الله تعالى بقاعا مباركة وأماكن مقدسة يرجى فيها الخير ويستجاب فيها الدعاء ويحقق الله تعالى فيها الرجاء لأنها أماكن طاهرة عامرة بالخير والنور وفيها آثار الصالحين ونزول الملائكة المقربين ومن تلك الأماكن طور سنين هذا المكان المقدس ومن ذلك أيضا ما رواه البخارى بسنده عن محمود بن الربيع الأنصارى أن عتبان بن مالك وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم "ممن شهد بدرا من الأنصار أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله قد أنكرت بصرى وأنا أصلى بالقوم فإذا كانت الأمطار سال الوادى الذى بينى وبينهم ولم أستطع أن آتى مسجدهم فأصلى بهم وودت يا رسول الله أنك تأتينى فتصلى فى بيتى فأتخذه مصلى قال : فقال : له رسول الله صلى الله عليه وسلم سأفعل إن شاء الله قال : عتبان فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر حين ارتفع النهار فإستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذنت له فلم يجلس حتى دخل البيت ثم قال : أين تحب أن أصلى من بيتك قال : فأشرت له إلى ناحية من البيت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فكبر فقمنا فصفنا فصلى ركعتين ثم سلم "
وروى الإمام مسلم عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه أنه كان يتحرى موضع مكان المصحف يسبح فيه وذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحرى ذلك المكان بين المنبر والقبلة "
وقد نقلت أثارا كثيرة عن أماكن فى المدينة المنورة ومساجد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصدها أو يجلس عندها ويدعوا الله تعالى وكان بعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم يتحرون تلك الأماكن للصلاة فيها منها مسجد الإجابة وهو مسجد بنى معاوية
وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد بنى معاوية دخل فركع ركعتين وصلينا معه ودعا به طويلا الحديث وفيه سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين "
فلهذا سمى هذا المسجد بمسجد الإجابة والناس يتحرون الصلاة فى ذلك المحل تبركا
وفى مسند الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا فى مسجد الفتح ثلاثا يوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء فأستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين فعرف البشر فى وجهه . قال : جابر فلم ينزل بى أمر إلا توخيت تلك الساعة فأدعوا فيها فأعرف الإجابة
ومنها – مسجد البغلة وهو مسجد بنى ظفر من الأوس قال : يحيى بن عقبة أدركت الناس بالمدينة المنورة يذهبون بنسائهم حتى ربما ذهبوا بهن بالليل
فيجلسوا على هذا الحجر
وروى الطبرانى عن محمد بن فضالة الظفرى

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على الحجر الذى فى مسجد بنى ظفروأن زياد بن عبيد الله كان أمر بقلعه حتى جاءته مشيخة بنى ظفر وأعلموه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس عليه فرده وعند هذا المسجد آثارا فى الحرة من جهة القبلة يقال : إنها أثر حافر بغلة النبى صلى الله عليه وسلم وفى غربيه أى جهة الغرب أى غربى أثر الحافر أثر على حجر كأنه أثر مرفق بذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم اتكأ عليه ووضع مرفقه الشريف عليه وعلى حجر آخر أثر أصابع والناس يتبركون بها .

المسجد النبوى الشريف

ومنها الإسطوان الذى هو علم على المصحف الشريف يعرف بالمخلق

روى ابن زبالة عن زيد بن عبيد الله أنه كان يأتى مع سلمة بن الأكوع إلى سبحة الضحى فيعمد إلى الإسطوان دون المصحف فيصلى قريبا منها فأقول : ألا تصلى ها هنا وأشير إلى بعض نواحى المسجد فيقول : إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرى هذا المقام

ولفظ البخارى كنت آتى مع سلمة بن الأكوع فيصلى عند الأسطوان الذى عند المصحف فقلت : يا أبا مسلم آراك تتحرى الصلاة عند هذه الإسطوانة قال : فإنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرى الصلاة عندها .

ولفظ مسلم عن سلمة أنه كان يتحرى موضع المصحف يسبح فيه وذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتحرى ذلك

وروى الطبرانى فى الأوسط عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن فى مسجدى لبقعة من قبل هذه الإسطوانة لو يعلم الناس ما صلوا فيها إلا أن تطير لهم قرعة "

ويقال : إن الدعاء عندها مستجاب

ومنها – إسطوانة التوبة وتعرف بإسطوانة أبى لبابة بن عبد المنذر رضى الله عنه سميت به لأنه ارتبط إليها حتى أنزل الله تعالى توبته

وقد روى البيهقى عن حسن عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا إعتكف يطرح له فراشه أو سريره إلى إسطوانة التوبة مما يلى القبلة يستند إليها .

ومنها – إسطوانة السرير

قال : البدر بن فرحون روينا بالسند الصحيح إلى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا إعتكف يطرح له وسادة ويوضع له سرير من جريد فيه سعفة يوضع له فيما بين الإسطوان وجاه القبر الشريف وبين القناديل وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضطجع عليه وهى الإسطوانة اللاصقة بالشباك اليوم شرقى إسطوان التوبة

ومنها- إسطوان المحرس ويسمى إسطوان أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه قال : موسى بن سلمة سألت جعفر بن عبد الله بن الحسين رضى الله تعالى عنهما عن إسطوان على بن أبى طالب فقال : إن هذه المحرس كان على بن أبى طالب يجلس فى صفحتها التى تلى القبر مما يلى باب رسول الله صلى الله عليه

وسلم وهو مقابل الخوخة التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يخرج منها إذا كان فى بيت عائشة إلى الروضة للصلاة وهى خلف أسطوان التوبة من جهة الشمال .

ومنها – أسطوان الوفود

وهى خلف أسطوا المحرس من جهة الشمال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس إليها لوفود العرب إذا جاءته وكانت مما يلى رحبة المسجد قبل أن يزاد فى السقف القبلى وكانت تعرف بمجلس الفلادة يجلس إليها سروات الصحابة وأفاضلهم رضى الله تعالى عنهم .

ومنها – أسطوانة مربعة القبر

ويقال له أسطوان مقام جبريل عليه السلام

عن مسلم بن أبى مريم وغيره كانن بيت السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله تعالى عنها فى المربعة التى فى القبر

قال : سليمان قال : مسلم لا تنسى من الصلاة إليها فإنها باب فاطمة رضى الله تعالى عنها الذى كان على يدخل عليها منه

ومنها – أسطوان التهجد

قال : عيسى وحدثنى سعيد بن عبد الله بن فضيل قال : مر بى محمد بن الحنيفية وأنا أصلى إليها فقال : لى آراك تلزم هذه الأسطوانة هل جاءك فيها أثر قلت : لا قال : فالزمها فإنها كانت مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

روى البخارى عن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ذات ليلة فى المسجد فصلى بصلاته ناس ثم صلى من القابلة فكثر الناس ثم إجتمعوا مناالليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أصبح قال : قد رأيتم الذى صنعتم ولم يمنعنى من الخروج إليكم إلا أنى خسيت أن تفرض عليكم " وذلك فى رمضان

وفى صحيح مسلم عن أنس رضى الله تعالى عنه

قال : لقد رأيت كبار أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يبتدرون السوارى عند المغرب .

واعلم أن الله تعالى قد حمع قلوب الخلق على محبة هذه الأماكن والشوق إليها فقلوب الأمة تهوى إلى تلك البقاع المباركة ورؤية تلك الأماكن المباركة التى كان فيها خير الناس طالما استنارت به وطالما نزل جبريل عليه السلام فيها وطالما سالت دموع الصحب الكرام فيها فارتوت بدموعهم دموع التوبة دموع الشوق دموع الحب وطالما سالت دموع الزائرين والمحبين .

ومنها – وادى العقيق المبارك

روى البخارى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه سمع عمر رضى الله تعالى عنه يقول : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم بوادى العقيق يقول : أتانى الليلة آت من ربى فقال : صل فى هذا الوادى المبارك وقل عمرة فى حجة "

وادى العقيق قريب من البقيع بينه وبين المدينة أرع أميال

روى الطبرانى فى الأوسط

عن عبد الله بن رزين أنه قال : مررنا بالربذة فقيل : لنا ها هنا سلمة بن الأكوع فأتيته فسلمنا عليه فأخرج يده فقال : بايعت النبى صلى الله عليه وسلم بهاتين فقمنا إليه فقبلناها .

وقال : ثابت البنانى لأنس بن مالك رضى الله عنه

أمسست النبى صلى الله عليه وسلم بيدك قال : نعم فقبلها .

أسرار النواميس الإلهية عند الجاهل

أعمال صنمية

أولا – التابوت

ما هو التابوت الذى كان يحمله موسى عليه السلام عند الجهاد وعند الشدائد وعند الإستغاثة والنجدة وذاك كليم الله تعالى عليه السلام . لم يكن التابوت إلا صندوقا من الخشب فيه قطع بالية من سفينو نوح عليه السلام . وماذا قال : اليهود فيه ؟ وقد أمر الرب سبحانه وتعالى كيمه أن يحمله أمامهم وهو كليم الله تعالى ةيستنصر به ويستفتح به وقالوا إنه أنزل مع آدم عليه السلام من الجنة لا ننكر عليهم قولهم ولا نسلمه لهم فإن الرب سبحانه وتعالى الذى أنزل الناموس بمشيئته يقدس ما ينزل من الجنة وبمشيئته يقدس ما شاء من الأرض من طين أو ماء أو شجر أو مدر فحمل التابوت هذا عند من لا يعقل أسرار النواميس عمل صنمى وعند من يعقل النواميس الرب يحكم على خلقه بما شاء ويأمرهم بما شاء ويختبرهم بما شاء . هذا التابوت بعد موسى عليه السلام رفع إلى السماء كما بين فى التوراةخصوصا عندما فشا الزنا والفسوق فى بنى إسرائيل ولما قام العنالقة بهلاك شعب بنى إسرائيل بشرهم الرب فى التوراة أن التابوت ينزل مع الملائكة . هذه أسرار الناموس وغرائب آياته تحجب العقل المكسوف نوره عن أن يدرك حقائق الحكمة وغرائب الآيات نزل التابوت تحمله الملائكة ما الذى كان فيه ؟ كان فيه نعلا وعصا موسى عليه السلام وثيابه وعمامة هارون عليه السلام . سبحان الله تعالى نعلان لرسول من رسل الله تعالى يبلغ بهما التعظيم إلى درجة أن يكونا فى التابوت ويكون هذا التابوت به النصرة وبه الفتح وعود المجد لشعب إسرائيل وتنزل به الملائكة . تلك مرموزات الناموس لا تكشف إلا لمن جاهد نفسه مجاهدة يطهرها به من خبث الضلالة وظلمة الجهالة ودخان العناد ونار العصبية للآباء ويخرجها من هوة الطمع فيما يفنى .

ثانيا – عصا موسى عليه السلام

ما هى عصا موسى عليه السلام ؟ عصا من غصن من شجرة ربما زرعها كافر وسقاها كافر وقطعها من الشجرة كافر وإذا أراد الله تعالى أن يظهر الآية يظهرها كيف شاء وبما شاء وفيما شاء . كانت تلك العصا عند شعيب عليه السلام ثم أعطيت لموسى عليه السلام فقدسها الله تعالى وبارك فيها حتى صارت كأنها كلمة الله تعالى وصار موسى عليه السلام بدونها إنسانا لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا . فالقادر على أن يجعل العصا كلمة كن فى يد موسى عليه السلام قادر على أن يجعل هذا كله بكلمة من موسى وبحركة يده وبأى عصا من العصى ولكنه سبحانه يقدس ما شاء ويظهر ما شاء ويضع سره فيما شاء وفيمن شاء . وهذا أيضا رمز من مرموزات الناموس الأعظم .

ثالثا – الحجر الأسود والبيت

ننتقل إلى الخليل أصل الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام ووالدهم الأوسط ومبدأ الفيض الأقدس ثبت بالتواتر وبالأثر أنه عليه الصلاة والسلام هو وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام رفعا قواعد البيت ووضعا هذا الحجر بيدهما عليهما السلام وأخبرا أنه كان مع أبيهما آدم عليه السلام أنز معه من الجنة . فما للإنسان ينحنى رأسه إذا ذكر التابوت ويصدق أن صندوقا من الخشب نزل من الجنة ولا ينكر على موسى الكليم عليه السلام أنه يحمله عند الشدائد ثم إذا سمع أن التابوت نزلت به الملائكة تحمله إلى طالوت عند قتاله العمالقة وأن التابوت كان فيه نعلا موسى عليه السلام ينحنى تعظيما للتابوت وما فيه ويعترف أن التابوت باركه الله تعالى وجعل فيه سر الفتح والنصر ولا يخطر على قلبه أنه كالصنم لبنى إسرائيل ومن موسى عليه السلام فى جانب الخليل عليه الصلاة والسلام فى جانب آثاره العلية وآياته الجلية وهو عليه الصلاة والسلام عند خروجه من مصر ببنى إسرائيل أمسك عليه مسالك الخروج حتى حمل معه الصندوق الذى به جثة الصديق يوسف بن يعقوب عليهما السلام . ما للإنسان ينسى عيوبه وينظر الحسن فى أخيه قبيحا ؟ كان التابوت صندوقا من الخشب فيه رضاض من سفينة نوح عليه السلام باركه الرب حتى أمر كليمه عليه السلام أن يحمله وجعله وجهة للأجسام حتى لا تقع الأعين عليه إلا إطمأنت القلوب ولا تمسه الأيدى إلا سرت فى القلوب روح يقين وإقدام ولا يفتح إلا حصل الفتح والنصر وانشرحت الصدور سبحان الله إلا إنه صندوق خشب داخله نعلان لا ولكن الرب يبارك فيما شاء ويبارك فيمن شاء فكذلك الكعبة التى هى حجرة بناها الخليل إبراهيم وابنهإسماعيل عليهما السلام وهذا الحجر الأسود هو الحجر الذى وضعه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ورفعا هذا البيت بأمر الرب جلت قدرته وبشرهم الرب أن هذا البيت مبارك وبشر إبراهيم عليه السلام بأنه سيكون من ولده إسماعيل عليه السلام أمة مباركة يظهر فيها خير رسول فكان هذا البيت هو الذى بناه الخليل وابنه عليهما السلام وباركه الرب كما بارك فى التابوت وبارك فى عصا موسى عليه السلام وبارك فى الحجر الذى كانت تنفجر منه الأنهار وبارك فى الطينة التى خلق منها آدم عليه السلام وأسجد له الملائكة بنص التوراة والقرآن . وهذا الحجر هو الحجر الذى لمسته يد الخليل ويد ابنه إسماعيل عليهما السلام وأخبر أنه نزل مع آدم عليه السلام أن الرب باركه ولو لم يكن من الجنة . فإن الرب كما تقدم يبارك فيما شاء وفيمن شاء والعرش والأرض سواء فى نظر الرب ولا فرق بين الأرض السفلى والعرش الأعلى بالنسبة للرب . ولكنه سبحانه يرفع ما شاء على ما شاء والرب على عظيم عن القرب المكانى من العرش أو الأرض والعرش والأرض فى قبضته سبحانه وفى حيطة علمه وفى تدبير قدرته ومشيئته ولو شاء أن يجعل قطعة من طين الأرض ترتفع حتى تكون فوق العرش لفعل سبحانه وقد فعل . فإن الإنسان من طين وبعض أفراده من الرسل الكرام والصديقين والشهداء يكونون فى جوار الرب يوم القيامة فوق عرشه . فمنزل الناموس سبحانه وتعالى بارك فى هذا البيت وبارك فى هذا الحجر وجعله رمزا من مرموزات الناموس .

ثم قال : الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم ولا يسعنى أن أكشف تلك الأسرار العلية الغامضة عن العقول المحجوبة بالحظ والهوى فى مقام أدعوا فيه أخى فى النوع إلى نجاته من هاوية العذاب إلا بقدر معلوم

حكمة الحج وتقبيل الحجر الأسود

هو أن المسلم يقبل الحجر مستحضرا اليد التى وضعته وكأنه يبايع تلك اليد على اتباع الإسلام الذى هو ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام . لأن الله تعالى أكرم خليله عليه الصلاة والسلام وجعل ولده إسحاق أمة إسرائيل عليه السلام وأكرمهم بالرسل والأنبياء حتى أنجز ما قدر سبحانه وأراده وأكرمه عليه الصلاة والسلام فجعل من ولده إسماعيل عليه السلام الأمة العربية وأكمل نعمه على جميع خلقه وأتم فضله عليهم بأن جعلمن الأمة العربية خاتم رسله الذى بعثه لكافة الناش بشيرا ونذيرا وإستجاب لخليله عليه الصلاة والسلام دعوته التى دعاها لإسماعيل عليه السلام وبنيه بأن يجعل منه أمة عظيمة بقوله : (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) **البقرة 129**

إلى آخر الدعاء الذى دعاه وهو معنى قول موسى عليه السلام يكون فى بنى عمنا إلى آخر البشرى وبنو عمهم إسماعيل عليه السلام فكان الإسلام هو ملة إبراهيم عليه السلام الحقيقة التى كان عليها هو وأولاده عليهم السلام . وبرهان ذلك جعل بيته كعبة للمسلمين

البرهان الثانى : أن الله تعالى فرض حجه على المسلمين بشروط مخصوصة ولم يكن عملا صنميا وإنما هو عمل للتقرب إلى الله تعالى وللقيام بحقوق عباد الله تعالى ولإطاعة أمر الله والإقتداء بسنن رسل الله وكأن المسلم بلمس الحجر الأسود يعاهد الخليل عليه السلام على العمل بإخلاص معتقدا أنه نفذ أمر الله تعالى وقلد رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم وتقرب إلى الله تعالى بأكمل العبادات التى بذل فيها ماله فوسع على خلق الله فى السفر إلى مكة وبذل فيها نفسه بمفارقة الأهل والمال والولد وشهد من عجائب الله وغرائب حكمته وآثار رحمته ما جعل قلبه يطمئن بالقدرة وصدر ينشرح بالحكمة وجعل الإيمان ينمو فى قلبه حتى يبلغ درجة اليقين ثم قابل إخوته المؤمنين فإنتفع بعلم العالم وحكمة الحكيم وحلم الحليم وأخلاق الكريم وعمل الموفقين وشهد أنواع العبادات وإختلاف الألوان والأشكال واللغات ما جعله يحب الله عزوجل ويعظم جنابه العلى

آثار الرسل السابقين بركات حسية

التابوت وعصا موسى عليه السلام وحجره الذى تفجرت منه ينابع الماء وصنع السفينة قبل الطوفان وناقة صالح عليه السلام وحمل سارة بإسحاق عليه السلام بعد اليأس وبناء بيت لرب وعمل مذبح عليه أمام الرب وماء المعمودة كل تلك إشارات من إشارات الكتب السماوية ينكشف غوامضها للمقربين المحبوبين . وكذلك الأرض المقدسة والصخرة المقدسة فالله سبحانه وتعالى بارك فى النار التى ألقى فيها سيدنا إبراهين عليه السلام وأبقى فيها الإشراق وأبطل منها الإحراق وبارك فى ناقة صالح عليه السلام فكانت وجهة أمته وبارك فى حمار العزيز فكان آية كبرى وبارك فى

كلب أهل الكهف فكان عجيبة للعقول وبارك فى عصى موسى عليه السلام فكانت ككلمة كن وكم بارك لأنبيائه ورسله فمنهم من جعله يقبض الحديد محميا بيده ومنهم من جعل له بساطه يحمله ويمشى به فى الهواء ومنهم من بارك له فى يده فكان لا يمس بها ميتا إلا أحياه الله تعالى ولا مريضا إلا شفاه الله تعالى . وكل تلك آثار رسله عليهم الصلاة والسلام .

الباب الثامن

الكشف والإيضاح فى مسألة التوسل والمتوسلين

التوسل بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم

إنه لا بأس أن نتوسل بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم ونستغيث به فى حياته وبعد مماته لأن التوسل إنما هو بمنزلته عند الله وهى ثابتة له فى الدنيا والآخرة والمطلوب منه هو الله تعالى على أنا لو طلبنا من النبى صلى الله عليه وسلم لأن يتشفع لنا عنده لصح عقلا ونقلا فإنه يمكنه وهو فى البرزخ أن يسأل الله تعالى لنا كما كان يسأله فى حياته

ذكر شىء من أدلة التوسل

جواز التوسل وحسنه معلوم لكل ذى دين وكأنه مركوز فى الفطر الإنسانية أن يتوسل إلى الله بأنبيائه وأصفيائه والمقربين لديه ولذلك يذهب الناس يوم القيامة للأنبياء كى يشفعوا لهم لمنزلتهم عنده وإن كان الله أقرب إليهم من حبل الوريد وأتباع كل نبى

يتوسلون إلى الله بذلك النبى وقد ثبت التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل وجوده وبعد وجوده فى الدنيا وبعد موته فى مدة البرزخ وبعد البعث فى عرصات القيامة .
أما التوسل به قبل وجوده فيدل له ما أخرجه الحاكم فى صحيحه وقد صح عن مالك أيضا على ما رواه القاضى عياض فى الشفاء أن آدم لما اقترف الخطيئة توسل إلى الله بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال الله له من أين عرفت محمد ولم أخلقه فقال وجدت اسمه مكتوبا بجنب اسمك فعلمت أنه أحب الخلق إليك فقال الله إنه لأحب الخلق إلى وإذ توسلت به فقد غفرت لك وقال : الإمام مالك للمنصور وقد سأله يا أبا عبد الله أأستقبل القبلة وأدعوا أم أستقبل النبى صلى الله عليه وسلم فقال له الإمام مالك ولما تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك إلى الله ووسيلة أبيك آدم .

توسل اليهود بالنبى صلى الله عليه وسلم
قبل بعثته

قال : تعالى (مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) **البقرة 89**
قال : المفسرون إن قريظة والنضير كانوا إذا حاربوا مشركى العرب استنصروا عليهم بالنبى المبعوث فى آخر الزمان فيتصرون عليهم .
وهو مروى عن ابن عباس وقتادة وغيرهم
فأنت تراهم سألوا الله به قبل وجوده
التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم بعد وجوده
أما التوسل به بعد وجوده فى حياته فلا أظن أن أحدا يمارى فيه فقد كانوا يذهبون إليه فى كل شدة إذا أجدبوا أو نزلوا منزلا فلم يجدوا ماء وعندما يمسهم ضر أو كرب مما ال يسعنا الإفاضة فيه . وإن أنكره منكر ملأنا له الدنيا أدلة وبراهين وإن سموا بعضه إستغاثة فلا ضرر فإنه يثبت المطلوب بالطريق أولى ويرد عليهم على كل حال والنزاع فى ألفاظ وعبارات ونسوق حديثا صحيحا أخرجه الترمذى وصححه النسائى والبيهقى والطبرانى بأسانيد صحيحة اعترف بها الحفاظ حتى الشوكانى رووا جميعا عن عثمان بن حنيف أن رجلا أعمى جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهم جلوس فقال ليس لى قائد وقد شق على فقد بصرى فقال له النبى إئت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى لتقضى لى اللهم شفعه فى وفى رواية فإن كان لك حاجة فمثل ذلك قال : عثمان بن حنيف فوالله ما تفرق المجلس حتى دخل علينا بصيرا كأن لم يكن به ضر هذا هو الحديث الصريح الذى ينبغى أن يقطع النزاع

التوسل به صلى الله عليه وسلم بعد وفاته

وأما التوسل به بعد وفاته فيمكننا أن نستدل عليه بهذا الحديث فإنه قوله : صلى الله عليه وسلم فإن كان لك حاجة فمثل ذلك صريح فى جوازه بلا قيد ولا شرط . ويدل له أيضا ما رواه الطبرانى والبيهقى والترمذى بسند صحيح عن عثمان بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه زمن خلافته فى حاجة له فكان لا يلتفت إليه فرجا عثمان بن حنيف أن يكلمه فى شأنه فعلمه الدعاء المذكور فتوضأ وصلى ثم دعا به كما علمه ثم جاء إلى باب عثمان بن عفان فأخذه الخادم وأدخله

عليه فأجلسه بجانبه على الطنفسة ثم قضى حاجته وقال : له إذا عرضت لك حاجة فأتنا فلما قابل الرجل عثمان بن حنيف قال : له جزاك الله خيرا ما كان ينظر فى حاجتى حتى كلمته فيها فقال : له والله ما كلمته ولكنى كنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليه أعمى وذكر الحديث

توسل النبى صلى الله عليه وسلم بالأنبياء السابقين

عن أنس بن مالك رضى الله عنه

قال : ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم على بن أبى طالب رضى الله عنهما وكانت قد ربت النبى صلى الله عليه وسلم فدخل عليها رسول الله فجلس على رأسها ثم قال : يا أمى بعد أمى وذكر ثناءه عليها ثم كفنها ببردته وأمر بحفر قبرها قال : فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وأخرج ترابه بيده فلما فرغ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضطجع فيه ثم قال : الله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ووسع لها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فإنك أرحم الراحمين .

أخرجه الطبرانى فى الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم بسند صحيح وروى ابن أبى شيبة عن جابر مثل ذلك وروى مثله ابن عبد البر عن ابن عباس ورواه أبو نعيم فى الحلية عن أنس رضى الله عنه

الصحابة كانوا يتبركون بآثارالنبى صلى الله عليه وسلم بعد موته

نقول : إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتبركون بآثاره صلى الله عليه وسلم بعد موته فقد ثبت أنه كان له جبة عند أسماء بنت أبى بكر يشتشفون بها ولا معنى لهذا إلا أنهم كانوا يتوسلون بآثاره إلى الله فيشفيهم ببركتها الوسيلة تقع على وجوه كثيرة لا على وجه واحد كما يفهمه هؤلاء أفتراهم يتوسلون بآثاره ولا يتوسلون به وفى هذا الباب شيء كثير لعلنا نذكره توسل عمر بالعباس حينما استسقى به دون النبى فلكون ذلك سنة الإستسقاء أو لكون العباس من ذوى الحاجة للمطر أو لكون عمر أراد أن يبين للناس أنه يجوز التوسل بغيره صلى الله عليه وسلم لفضله وقرابته منه عليه الصلاة والسلام أو لخوفه على ضعفاء المسلمين وعوامهم إذا تأخر المطر بعد التوسل أو ليدلهم على أن التوسل بالمفضول جائز مع وجود الفاضل وإلا فعلى أفضل من العباس وكذا عمر . وروى البيهقى فى دلائل النبوة وكذا أخرجه ابن أبى شيبة بسند صحيح عم مالك الدار خازن عمر قال : أصاب الناس قحط فى زمان عمر فجاء رجل إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله استسقى لأمتك فإنهم قد هلكوا فأتاه رسول الله صلى اللله عليه وسلم فى المنام فقال : إئت عمرفأقرئه السلام وأخبره أنهم مسقون وقل له عليك الكيس الكيس فأتى عمر فأخبره فبكى عمر ثم قال : يارب ما آلوا إلا ما عجزت عنه . ومحل الإستشهاد فى هذا الأثر طلبه الإستسقاء من النبى صلى الله عليه وسلم بعد إنتقاله وإقرار عمر إياه على ذلك . هذا وأحب أن نتذكر ما قلناه من أن المسئول هو الله تعالى لا فاعل غيره ولا خالق سواه وإنما نسأله بمنزلة حبيبه لديه ومحبته له وذلك شيء ثابت لا يتغير فى الدنيا ولا فى الآخرة ومن شك فى منزلته أو قربه صلى الله عليه وسلم فقد كفر . على أن قول : عمر بمحضر

من الصحابة إنا نتوسل إليك بعم نبيك يدل على جواز التوسل بمنزلته وإلا لم يكن له معنى وأى حاجة إليه إذا كان المقصود دعاء العباس وهل ذلك من دعاء العباس .

التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم فى عرصات القيامة

أما التوسل به فى عرصات القيامة فلا حاجة للإطالة فيه فإن أحاديث الشفاعة بلغت مبلغ التواتر وفيها أن اللناس يذهبون إلى الأنبياء يطلبون منهم الشفاعة إلى آخر ما هو معروف

والخلاصة ـ أنه ما لا شك فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم له عند الله تعالى قدر على ومرتبة رفيعة وجاه عظيم فأى مانع شرعى أو عقلى يمنع من التوسل به فضلا عن الأدلة التى تثبته فى الدنيا والآخرة ولسنا فى ذلك سائلين غير الله تعالى ولا داعين إلا إياه فنحن ندعوه بما أحب أيا كان تارة نسأله بأعمالنا الصالحة لأنه يحبها وتارة نسأله بمن يحبه من خلقه كما جاء فى حديث آدم عليه السلام السابق وكما فى حديث فاطمة بنت أسد الذى ذكرنا وكما فى حديث عثمان بن حنيف المتقدم وتارة نسأله بأسمائه الحسنى كما فى قوله : صلى الله عليه وسلم أسألك بأنك أنت الله وبصفته أو فعله كما فى قوله : فى الحديث الآخر أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وليس مقصورا على تلك الدائرة الضيقة التى يظنها الجاحدون

كل ما أحبه الله تعالى صح التوسل به

وسر ذلك أن كل ما أحبه الله عزوجل صح التوسل به وكذا كل من أحبه من نبى أو ولى وهو واضح لدى كل ذى فطرة سليمة ولا يمنع منه عقل ولا شرع بل تضافر العقل والنقل على جوازه والمسئول فى ذلك كله هو الله وحده لا شريك له لا النبى ولا الولى ولا الحى ولا الميت (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا) **النساء 78**

وإذا جاز السؤال بالأعمال فبالنبى صلى الله عليه وسلم أولى لأنه أفضل المخلوقات والله أعظم حبا له صلى الله عليه وسلم من الأعمال وغيرها . وليت شعرى ما المانع من ذلك واللفظ لا يفيد شيئا أكثر من أن للنبى قدرا عند الله والمتوسل لا يريد غير هذا المعنى ومن ينكر قددره عند الله فهو كافر كما قلنا . ولو كنا مثلهم نأخذ بالظنة ونتصيد الشبه ونسارع إلى تكفير المسلمين لأمكن أن نقول : لهم إن من لا يعرف قدر النبى أولى بالإشراك ممن عرفه ومن استباح دماء المسلمين أقرب إلى الضلال ممن استبرأ لدينه وعرضه وبعد فمسألة التوسل تدل على عظمة المسئول به ومحبته فالسؤال بالنبى إنما هو لعظمته عند الله أو لمحبته إياه وذلك مما لا شك فيه . على أن التوسل بالأعمال متفق عليه منا ومنهم فلماذا نقول إن من يتوسل بالأنبياء أو الصالحين هو متوسل بأعمالهم التى يحبها الله تعالى وقد ورد بها حديث أصحاب الغار فيكون محل الإتفاق . ولا شك أن المتوسل بالصالحين إنما يتوسل بهم من حيث أنهم صالحون فيرجع الأمر إلى الأعمال الصالحة المتفق على جواز التوسل بها كما قلنا من قبل

التوسل فى رأى الإمام الشوكانى وابن تيمية

قال : الإمام الشوكانى قال : شيخ الإسلام ابن تيمية فى بعض فتاواه والإستغاثة بمعنى أن يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم ما هو اللائق بمنصبه ولا ينازع فيه مسلم ومن نازع فى هذا المعنى فهو إما كافر أو مخطىء ضال ثم يقول : فيكن النزاع فيما هو اللائق به وما يقدر عليه وفيما لا يليق به ولا يقدر عليه . ولا شك أنه قادر على أن يدعوا لنا وهو فى البرزخ كما قال : فى الحديث " تعرض على أعمالكم فإن وجدت خيرا حمدت الله وإن وجدت شرا استغفرت لكم

يجوز طلب الشفاعة من المخلوقين

قال : الإمام الشوكانى وأما التشفع بالمخلوق فلا خلاف بين المسلمين أنه يجوز الشفاعة من المخلوقين فيما يقدرون عليه من أمور الدنيا .

هذا ما قاله : وإنى أكرر لفت نظرك إلى أنه يجب أن يكون البحث إذا فى تحقيق ما يقدر عليه وما لا يقدر عليه وقد علمت أنه قادر على أن ينفعنا وهو فى البرزخ بدعائه كما كان فى الدنيا فليكن محل النزاع هو كونه كونه قادرا أو غير قادر على أنه لا وجه للشرك على كل حال .

أدلة المانعون من التوسل والرد عليهم

قال : الإمام الشوكانى إن ما يورده المانعون من التوسل إلى الله تعالى بالأنبياء والصلحاء من نحو قوله : تعالى (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) **الزمر 3**

وقوله : تعالى (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) **الجن 18**

وقوله : تعالى

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ) **الرعد 14**

ليس بوارد بل هو من الإستدلال على محل النزاع بما هو أجنبى عنه فإن قولهم : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) **الزمر آية 3**

مصرح بأنهم عبدوهم لذلك والمتوسل بالعالم مثلا لم يعبده بل علم أنه له مزية عند الله تعالى بحمله العلم فتوسل به لذلك وكذلك قوله : تعالى (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) فإنه نهى عن أن يدعى مع الله تعالى غيره كأن يقول : يا الله يا فلان والمتوسل بالعالم مثلا لم يدع إلا الله وإنما وقع منه التوسل بعمل صالح عمله بعض عبادة كما توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم . وكذلك قوله : تعالى (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ) **الرعد 14**

فإن هؤلاء دعوا من لا يستجيب لهم ولم يدعوا ربهم الذى يستجيب لهم والمتوسل بالعالم مثلا لم يدع إلا الله ولم يدع غيره دونه ولا دعا غيره معه فإذا عرفت هذا لم يخف عليك دفع ما يورده المانعون للتوسل من الأدلة الخارجة عن محل النزاع إلى أن قال : والمتوسل بنبى من الأنبياء أو عالم من العلماء لا يعتقد أن لمن توسل به مشاركة لله عزوجل فى أمر ومن اعتقد أن لمن توسل به مشاركة الله عزوجل فى أمر فهو فى ضلال

أدلة منع التوسل والرد عليهم

وهكذا الإستدال على منع التوسل بقوله : تعالى () (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)
آل عمران 128
(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)
الأعراف 188
فإن هاتين الآيتين مصرحتان بأنه ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر الله شىء وأنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا وليس يملك لغيره وليس فيهما منع التوسل به أو بغيره من الأنبياء والصالحين والأولياء أو العلماء وقد جعل الله لرسوله صلى الله عليه وسلم المقام المحمود مقام الشفاعة العظمى وأرشد الخلق إلى أن يسألوه ذلك ويطلبون منه وقال : له سل تعط واشفع تشفع . إلىأن قال : وهكذا الإستدلال على منع التوسل بقوله : صلى الله عليه وسلم " لما نزل قوله : تعالى (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) **الشعراء 214**
يا فلان بن فلان لا أملك لك من الله شيئا يا فلانة بنت فلان لا أملك لكى من الله شيئا " فإن هذا ليس فيه إلا التصريح بأنه صلى الله عليه وسلم لا يستطيع نفع من أراد الله تعالى ضره ولا ضر من أراد الله تعالى نفعه وإنه لا يملك لأحد من قرابته فضلا عن غيرهم شيئا من الله تعالى . وهذا معلوم لكل مسلم وليس فيه ألا يتوسل به إلى الله . فإن ذلك مطلب الأمر ممن له الأمر وإنما أراد الطالب أن يقدم بين يدى طلبه ما يكون سببا للإجابة ممن هو المتفرد بالعطاء والمنع .

ذكر المناقشة فى الإستغاثة بين ابن عطاء الله السكندرى وابن تيمية

ذكر ابن كثير وابن الإثير هذه المناقشة . من أن ابن تيمية كان منفيا بالأسكندرية ثم عفا عنه السلطان فجاء إلى القاهرة وذهب ليصلى المغرب بالجامع الأزهر خلف ابن عطاء الله السكندرى الذى فوجىء به فهنأه بسلامة الوصول وقال : له أعاتب أنت على يا فقيه ؟ فقال : ابن تيمية أعرف أنك ما تعمدت أيذائى ولكنه الخلاف فى الرأى على أن كل من آذانى فهو منذ اليوم فى حل منى فسأله ابن عطاء الله ماذا تعرف عنى ؟ قال : أعرف عنك الورع وغزارة العلم وحدة الذهن وصدق القول وأشهد أنى ما رأيت مثلك فى مصر ولا فى بلاد الشام حبا لله أو فناءا فيه أو انصياعا لأوامره ونواهيه ولكنه الخلاف فى الرأى فماذا تعرف أنت عنى ؟ هل تدعى على بالضلال إذ أنكرت الإستغاثة بغير الله ؟ فقال : ابن عطاء الله له أما آن لك يا فقيه أن تعرف أن الإستغاثة هو الوسيلة والشفاعة وأن الرسول يستغاث به ويتوسل به ويستشفع به فقال : ابن تيمية أنا فى هذا أتبع السنة فقد جاء فى الحديث الصحيح " أعطيت الشفاعة " وقد أجمعت الآثار فتفسير الآية الكريمة
(عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) **الإسراء 79**
على أن المقام المحمود هو الشفاعة والرسول صلى الله عليه وسلم لما ماتت أ سيدنا الإمام على دعا لها الله على قبرها الله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ووسع مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فإنك أرحم

الراحمين . قال : ابن تيمية فهذه هى الشفاعة أما الإستغاثة ففيها شبهة الشرك بالله تعالى وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ابن عمه عبد الله بن عباس ألا يستعين بغير الله فقال : له ابن عطاء الله السكندرى أصلحك الله يا فقيه أما نصيحة الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس فقد أراد منه أن يتقرب إلى الله بعلمه لا بقرابته من الرسول وأما فهمك أن الإستغاثة بغير الله فى شرك فمن من المسلمين الذين يؤمنون بالله ورسوله يحسب أن غيره تعالى يقضى ويقدر ويثيب ويعاقب فما هى إلا ألفاظ لا تؤخذ على ظاهرها ولا خوف من الشرك لنسد إليه الذريعة فكل من استغاث الرسول فهو إنما يستشفع به عند الله مثلما تقول : أنت أشبعنى الطعام فهل الطعام هو الذى أشبعك أم الله عزوجل هو الذى أشبعك بالطعام . وأما قولك أن الله عزوجل نهانا أن ندعوا غيره فهل رأيت من المسلمين أحدا يدعوا غير الله ؟ إنما نزلت هذه الآية فى المشركين الذين كانوا يدعون آلهتهم من دون الله إنما يستغيث المسلمين بالنبى بمعنى التوسل بحقه عند الله والتشفع بما رزقه الله من الشفاعة أما نحريك الإستغاثة لأنه ذريعة إلى الشرك فإنك كمن أفتى بتحريم العنب لأنه ذريعة إلى الخمر أو نخص الذكور غير المتزوجين سدا لذريعة الزنا .

ذكر ما تحدث به علماء السلف والخلف فى التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم حيا وميتا

قد كتب علماء السلف والخلف فى ذلك شيئا كثيرا فراجعه إن شئت لا سيما رسالة الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى المسماة تحفة الإذكياء وكتابه المسمى تنوير الحلك ودعك عما كتبه أهل الزمان من كل وقول يخالف ما كتبه السلف والخلف ورحم الله تعالى ابن تيمية حيث يقول : والسلف الصالح كانوا يدعون بحديث الأعمى وأن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى كتب منسكا إلى تلميذه المروزى وأمره فيه ـن يتوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم وابن تيمية صادق فى نقله ومن الذى أوثق من السلف الصالح والإمام أحمد حتى نتركهم ونتبعه فيما يقول والتوسل به صلى الله عليه وسلم الذى ذكره ابن تيمية رحمه الله تعالى عن السلف الصالح عن الإمام أحمد رضى الله تعالى عنه والذى ذكره الحافظ عبد العظيم المنذرى فى كتابه الترغيب والترهيب فى باب صلاة الحاجة وهو أن عثمان بن حنيف علم رجلا له حاجة عندنا سيدنا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه أيام خلافته بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فعلم من ذلك حياته صلى الله عليه وسلم بعد الموت لأن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وغيره من الصحابة أخبروا أنهم كانوا يتوسلون به صلى الله عليه وسلم وقت حياته , وتوسلهم به صلى الله عليه وسلم بعد وفاته دليل على حياته بعد الموت عند ربه سبحانه وتعالى . وقد أوجب الله تعالى الصلاة والسلام عليه وقت حياته وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم وأجمع العلماء على وجوب الصلاة والسلام عليه إذا ذكر صلى الله عليه وسلم . وقال : الإمام الطحاوى رحمه الله تعالى تجب كلما ذكر وارتضاه الحليمى من الشافعية رحمه الله لقوله : صلى الله عليه وسلم " رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على "أ

خرجه الترمذى والحاكم عن أبى هريرة

فصل

المزيد من الإيضاح والإسهاب فى مسألة التوسل والإستغاثة

مع فضيلة الشيخ يوسف الدجوى عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف وهى مزيد الإيضاح والإسهاب فى مسألة التوسل والإستغاثة وقد وردت إليه أسئلة فى هذا الشأن يقول : رحمه الله تعالى لا تزال ترد إلينا الرسائل بشأن التوسل طلبا للتوضيح والإسهاب وقد ذكر بعض مرسليها أن من الناس من يكفر المتوسلين برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى سنتوسل به جميعا يوم القيامة على ما نطقت به الأحاديث الصحيحة ولو قالوا : إن المسألة تفصيلا أو أن بعض العبارات التى يقولها المتوسلون أو الزائرون ينبغى التحاشى عنها وتعليم ما يصح أن يقول فى توسله أو عند زيارته لقبلنا منهم ذلك وشكرناهم عليه فلعلنا بزيادة التقدير والتكرير نزيل تلك العقيدة التى هى أخطر شىء على الإسلام والمسلمين ولنجعل الكلام معهم من جهة الدليل العقلى وما نضطر إليه من الدليل النقلى وقبل الخوض فى الموضوع نحب أن نشرط عليهم أن يصبروا صبر المرتاضين بصناعة المنطق العافين بقوانين المناظرة فلا يخرجوا عن الفرض الذى نفرضه حتى نتم الكلام فيه وأن يعرفوا موضوع البحث فلا ينتقلوا عنه إلى غيره وسنفرض الفروض كلها ثن نبطلها واحدا واحدا

ولينظروا حتى لا يختلط المعقول بالمنقول ولا المنقول بالمعقول وسنوفى كلا حقه إن شاء الله وعسى ألا يكونوا بعد ذلك ممن يسلم المقدمات ثم ينازع فى النتيجة .
فنقول : هؤلاء وإن كانوا يمنعون التوسل والإستغاثة ويجعلوها شركا من حيث إنهما توسل وإستغاثة فإستغاثة المظلوم بمن يرفع ظلمه إذا شرك وإستغاثة الرجل بمن يعينه فى بعض شئونه شرك واستغاثة الملك بجيشه لدى الحروب شرك واستغاثة الجيش بالملك فيما يصلح أمره شرك بل نقول يلزمهم على هذا الفرض أن طلب المعونة من أرباب الحرف والصنائع التى لا غنى للناس عنها شرك وطلب المريض للطبيب شرك . بل يلزم بناء على تلك الكليات التى تقتضيها الحيثية أن استغاثة الرجل الإسرائيلى بسيدنا موسى عليه السلام وإجابته إياه كما قال : تعالى (فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه) القصص 15 شرك إلى غير ذلك مما لا يقول به عاقلا فضلا عن فاضل . هذا كله إن كانوا يقولون : إنها ممنوعة من حيث إنها إستغاثة بغير الله كما فرضنا . فإن قالوا : إن الإستغاثة والتوسل بالأموات شرك دون الأحياء . قلنا : لهم لا معنى لهذا بعد أن سلمتم أن الإستغاثة بغير الله من الأحياء ليست شركا وبعد ما ورد فى القرآن ووقع عليه الإجماع فى كل زمان ومكان ولا يعنى لأن يكون طلب الفعل من غير الله شركا تارة وغير شرك تارة أخرى . فإن فيه نسبة الفعل لغير الله على كل حال وإن قالوا : إننا لا نعتقد التأثير الذاتى من الأحياء الذين نطلب منهم المعونة . قلنا : لهم يجب إذا أن تجعلوا مناط المنع هو إعتقاد التأثير الذاتى لغير الله لا فرق بين الأحياء والأموات فإن وجد ذلك الإعتقاد كان شركا وإلا فلا سواء كانت الدعوة لحى أو ميت وإن كان مناط المنع هو تلك السببية الظاهرة التى تفهم من ظواهر الألفاظ وجب أن يكون ذلك كله شركا حتى طلب الرجل من أخيه أن يعينه فى الحمل على دابته أو بناء داره أو حفر نهره إلى غير ذلك كما أوضحنا فى الفرض الأول . فإن قالوا : إننا ننسب تلك الأفعال والتأثيرات إلى غير الله تعالى من الأحياء معتقدين أن الخلق والإيجاد ليس إلا لله تعالى وأن الحى ليس له إلا الكسب لا غير قلنا : لهم كذلك من يطلب من الأموات أو يتوسل بهم والقرينة فيهما واحدة وهو إيمانه بأن الله بيده ملكوت السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه لا خالق غيره ولا موجود سواه وإن كان السر فى المنع عندهم هو أن الميت لا يقدر على شىء مما طلب منه . فنقول : لهم : -
أولا – لا يلزم من ذلك أن يكون الطلب شركا بل عبثا فقط والإستغاثة بالأحياء أقرب إلى الشرك منها بالأموات لأنها أقرب إلى إعتقاد تأثيرهم فى الإعطاء والمنع بمقتضى الحس والمشاهدة لولا أن نور الإيمان وساطع البرهان .
ثانيا – ثم نقول : لهم ما معنى قولكم : إن الميت لا يقدر على شىء وما سره وباطنه عندكم . إن كان ذلك لكونكم تعتقدون أن الميت صار ترابا فما أضلكم فى دينكم وما أجهلكم بما ورد عن نبيكم بل عن ربكم من ثبوت حياة الأرواح وبقائها بعد مفارقة الأجسام ومناداة النبى صلى الله عليه وسلم لها يوم بدر بقوله : يا عمرو بن هشام ويا عتبة بن ربيعة ويا فلان ويا فلان إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا فقيل : له ما ذلك فقال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

ومن – ذلك تسليمه على أهل القبور ومناداته لهم بقوله : السلام عليكم يا أهل الديار
ومن – ذلك عذاب القبر ونعيمه وإثبات المجيء والذهاب إلى الأرواح إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة التى جاء بها الإسلام وأثبتها . ولنقتصر هنا على هذا السؤال أتعتقدون أن الشهداء أحياء عندربهم كما نطق القرآن بذلك أم لا ؟ فإن لم يعتقدوا فلا كلام لنا معهم لأنهم كذبوا القرآن حيث يقول : (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) **البقرة 154**
(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)
آل عمران 169

وإن إعتقدوا ذلك فنقول : لهم إن الأنبياء وكثيرا من صالحى المسلمين ليسوا بشهداء كأكابر الصحابة أفضل من الشهداء بلا شك ولا مرية فإذا ثبت الحياة للشهداء فثبوتها لمن هو أفضل منهم أولى على إن حياة الأنبياء مصرح بها فى الأحاديث الصحيحة وقد رأى صلى الله عليه وسلم موسى عليه السلام يصلى فوق الكثيب الأحمر وراجعه مرارا عندما فرضت الصلاة خمسيت فى كل يوم وليلة حتى صارت خمسا . كما قابل آدم وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام فهذا كله يثبت حياة الأرواح وأنه لا شك فيها . فإذا نقول : حيث ثبت حياة الأرواح بالأدلة القطعية التى قدمنا بعضها فلا يسعنا بعد ثبوت الحياة إلا إثبات خصائصها فإن ثبوت الملزوم يوجب ثبوت اللازم كما أن نفى الازم يوجب نفى الملزوم كما هو معروف . وأى مانع عقلا من الإستغاثة بها والإستمداد منها كما يستعين الرجل بالملائكة فى قضاء حوائجه أو كما يستعين الرجل بالرجل وأنت بالروح لا بالجسم إنسان . وتصرفات الأرواح على نحو تصرفات الملائكة لا تحتاج إلى مماسة ولا آلة فليست على نحو ما تعرف من قولنين التصرفات عندنا فإنها من عالم آخر (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) **الإسراء 85**
وماذا يفهمون من تصرف الملائكة والجن فى هذا العالم ولا شك أن الأرواح لها من الإطلاق والحرية ما يمكنها من أن تجيب من يناديها وتغيث من يستغيث بها كالأحياء سواء بسواء بل أشد وأعظم . وقد ذكر لنا ابن القيم أن الأرواح القوية كروح أبى بكر وعمر ربما هزمت جيشا . فإن كانوا لا يعترفون بالمشاهدات فما أجدرهم أن يسموا طبيعيين لا مؤمنين على أننا نتنزل معهم ونسلم لهم أن الأرواح بعد مفارقة الأجساد لا تستطيع أن تعمل شيئا ولكن نقول : لهم إذا فرضنا ذلك وسلمناه جدلا فلنا أن نقرر أنه ليس مساعدة الأنبياء والأولياء للمستغيثين بهم من باب تصرف الأرواح فى هذا العالم على نحو ما قدمناه بل مساعدتهم لمن يزورهم أو يستغيث بهم بالدعاء لهم كما يدعوا الرجل الصالح لغيره فيكون من دعاء الفاضل للمفضول أو على الأقل من دعاء الأخ لأخيه وقد علمت أنهم أحياء يشعرون ويحسون ويعلمون بل الشعور أتم والعلم أعم بعد مفارقة الجسد لزوال الحجب زعدم منازعات الشهوات البشرية وقد جاء فى الحديث " أن أعمالنا تعرض عليه صلى الله عليه وسلم فإن وجد خيرا حمد الله وإن وجد غير ذلك استغفر لنا " ولنا أن نقول : إن المستغاث به والمطلوب منه

الإغاثة هو الله تعالى ولكن السائل يسأل متوسلا إلى الله تعالى بالنبى أو الولى فى أن يقضى حاجته فالفاعل هو الله تعالى ولكن أراد السائل أن يسأله تعالى ببعض المقربين لديه الأكرمين عليه فكأنه يقول : أنا من محبيه أو محسوبيه فارحمنى لأجله وسيرحم الله عزوجل كثيرا من الناس يوم القيامة لأجل النبى صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والأولياء والعلماء .

وبالجملة – فإكرام الله تعالى لبعض أحباب نبيه لأجل نبيه بل بعض العباد لبعض أمر معروف غير مجهول ومن ذلك الذين يصلون على الميت ويطلبون من الله تعالى أن يكرمه ويعفوا عنه لأجلهم بقولهم : وقد جئناك شفعء فشفعنا فيه .

والمقصود من ذلك كله إثبات أن الله تعالى يرحم بعض العباد ببعض على أن توجه الإنسان إلى النبى أو الولى وإلتجاءه إليه تحس به روح النبى والولى تمام الإحساس وهو كريمم ذو وجاهة عند الله تعالى كما قال : تعالى فى بعض أصفياءه (وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا) **الأحزاب 69**

فتعتنى تلك الروح بذلك الملتجىء أشد الإعتناء فى تسديده وتأييده والدعاء له هى والملائكة الذين يجلونها ويحبون مسرتها ورضاها والأنبياء والأولياء محبون للملائكة بشاهد قوله : صلى الله عليه وسلم " إن الله إذا أحب عبدا نادى جبريل فى السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه " إلى آخر الحديث

وأن الملائكة تقول : للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ) **فصلت 31**

كما نص على ذلك القرآن الكريم وذلك سر التوجه إلى الأولياء وزياراتهم لتبيه أرواحهم لحال الزائر وتلتفت إلى معونته بما أعطاهم الله تعالى من الخصائص كما تنفع أخاك بما أعطاك الله تعالى من قوة أو وجاهة أو مكانة أو ثروة أو أعوان أو أنصار إلى آخره . وإن الإنسان هو هو فى الدنيا والآخرة من حيث روحه التى هى باقية فى العالمين جميعا وليس الإنسان إنسانا إلا بها والأمر جلى ولكنها الأهواء عمت فأعمت

والخلاصة – أنه لا يكفر المستغيث إلا إذا إعتقد الخلق والإيجاد لغير الله تعالى والتفرقة بين الأحياء والأموات لا معنى لها . فإنه إن إعتقد الإيجاد لغير الله تعالى كفر على خلاف للمعتزلة فى خلق الأفعال وإن إعتقد التسبب والإكتساب لم يكفر وأنت تعلم أن غاية ما يعتقد الناس فى الأموات هو أنهم متسببون ومكتسبون كالأحياء لا أنهم خالقون موجودون كالإله إذ لا يعقل أن يعتقد فيهم الناس أكثر من الأحياء وهم لا يعتقدون فى الأحياء إلا الكسب والتسبب . فإن كان هناك غلط فليكن فى إعتقاد التسبب والإكتساب لأن هذا هو غاية ما يعتقده المؤمن فى المخلوق كما قلنا وإلا لم يكن مؤمنا والغلط فى ذلك ليس كفرا ولا شركا ولا نزال نكرر على مسامعك أنه لا يعقل أن يعتقد فى الميت أكثر مما يعتقد فى الحى فيثبت الأفعال للحى على سبيل التسبب ويثبتها للميت على سبيل التأثير الذاتى والإيجاد الحقيقى فإنه لا شك أن هذا مما لا يعقل . فغاية الأمر هذا المستغيث بالميت بعد كل تنزل أن يكون كمن طلب العون من المقعد غير عالم أنه مقعد ومن يستطيع أن يقول : إن ذلك شركا على أن

التسبب مقدور للميت وفى إمكانه أن يكتسبه كالحى بالدعاء لنا فإن الأرواح تدعوا لأقاربهم كما فى الحديث الشريف إذا بلغهم عنهم ما يسوءهم فيقولون اللهم راجع بهم أو لا تمتهم حتى تهديهم . بل إن الأرواح يمكنها المعاونة بنفسها كالأحياء ويمكنها أن تلهمك وترشدك كالملائكة إلى غير ذلك على ما شرحناه وكثيرا ما انتفع الناس برؤيا الأرواح فى المنام .

متابعة التوسل مع فضيلة الشيخ يوسف الدجوى

وقد ورد إليه السؤال وتفضل مشكورا بالرد عليه حضرة صاحب الفضيلة مولانا الشيخ يوسف الدجوى

السلام عليكم ورحمة

وبعد

عرضت مسائل رأيت أنه لا بد من استفتا لكم فيها وآمل إجابتى على صفحات الإسلام أما المسائل فأولاها هل فى الدين من وسيلة ؟ وهل يضر طلب المعونة من بنى أولى على أنهما سببان كسائر الأسباب العادية المخلوقة لله عزوجل ؟ وهل هناك من حاجة إلى الوسيلة ؟ إلى آخر الأسئلة التى نرجوا الاإجابة عنها ثم قال : فى آخر خطابه أرجوا الإجابة بإطناب فإننى متشوق إلى تصحيح عقيدتى فى هذه المسائل . ولكم جزيل الشكر ومن الله الأجر

عبد الرحمن خليل موسى الشريف

طالب بمعهد أسيوط

الجواب – الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

وبعد

فقد جاءنى هذا الخطاب منذ زمان وكنت نسيته فلما عرض على مع أوراق أخرى على غير قصد رأيت أن أجيب عنه إجابة مختصرة وأرجوا أن يكون فيه مقنع وكفاية فأقول : وبالله التوفيق أن التوسل جائز وواقع بأوسع معنى الكلمة ولا يجافيه عقل ولا نقل وليس ذلك إلا من قبيل الأسباب والمسببات وقد جعل الله الناس على مراتب مختلفة لحكم سامية وأسرار عالية فمنهم الغنى والفقير والقوى والضعيف والعالم والجاهل والرئيس والمرءوس والملوك والسوقة إلى ما لا يحصى عد ولا يضبط حد ولا بد أن يكون لصاحب المرتبة العليا ما ليس لصاحب المرتبة الدنيا ولا فرق بين أمور الدين والدنيا فالتجاء الصغير إلى الكبير فى كل ذلك لا شىء فيه بل هو مراد الحق من خلقه المتفاوتين فى الإستعداد والنعم والمواهب ولذلك خلقهم .

أما الشرك – فهو أن تطلب من غير الله على إنه إله يعطى ويمنع بغير إذنه ولا يتصور أن يكون ذلك من أحد من المؤمنين فإن طلبت منه على أنه لا يفعل شيئا إلا بإذن الله تعالى ولا يتصرف إلا بإقداره إياه معتقد أنه ما ملك إلا بتمليكه ولا تصرف إلا بإرادته لم يكن عليك بأس ولا فى ذلك حرج بل هو الواقع الذى جبلت عليه الفطر وجاءت به الشرائع والديانات وقد أسند الله تعالى إحياء الموتى وهو أكبر شىء إلى عيسى بن مريم عليه السلام إلى نفسه فيقول : (وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ)

آل عمران 49

ولا شك أن مت استغاث بالولى أو النبى لم يستغث به على أنه شريك لله تعالى أو يفعل بغير إذن الله تعالى حتى لو فرضنا أن ذلك لم يكن حاضرا فى نفسه فهو كامن فيها بمقتضى قوله : لا إله إلا الله فهو بمنزلتك إذا رجوت وزيرا أو أميرا أن يفعل شيئا غير مستحضر ما يقتضيه التوحيد من كون الله تعالى خالق كل شىء وإليه يرجع الأمر كله وهذا الوزير أو الأمير لا يملك لنفسه فضلا عن غيره نفعا ولا ضرا . فلا نجعل ذلك منك شركا بوجه من الوجوه تعويلا على الكامن فى النفس من انفراده تعالى بالملك والملكوت فى الحقيقة وأن الذى ترجوه إنما هو متصرف بتصريف الله تعالى وأنه تعالى هو الذى ملكه ما يتصرف فيه ولحكمة ما جعل العباد مراتب محتاجا بعضهم لبعض كما قلت فلماذا تجعل الطالب من الأنبياء والأولياء مشركا ولا تجعله مشركا عندما يطلب من الوزير والأمير بل من الفاجر والكافر والمدرك فيهما واحد فإن الله تعالى لا شريك له فى أمور الدنيا ولا فى أمور الآخرة . فإما أن تعتبر الظاهر وتجعله شركا فيها وإما أن تعتبر الباطن وتجعل ذلك من باب الأسباب والمسببات التى هى نظام العالم وسنة الله تعالى فى خلقه على ما شرحناه فإن كان لديك من صريح التوحيد ما يميت الأسباب من نظرك بالكلية ويجعلك تلتجىء إلى الله تعالى مباشرة بلا توسيط أحد كان لك ذلك ولكنها مرتبة مخصوصة لقوم مخصوصين وقد جاء الدين للناس جميعا مراعيا استعدادهم مكتفيا بما تكنه ضمائرهم من التوحيد بل عرفنا أن هناك مقربين وغير مقربين وهناك من تجاب دعوته وترجى شفاعته ومن ليس كذلك ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم الشفيع الأعظم فى الآخرة وبعده الأنبياء والأولياء والعلماء كما جاء فى السنة الصحيحة . ثم نقول : بعد ذلك أن المتوسل إلى الله تعالى بالنبى والولى معترف بمقتضى توسله أن المعطى والمانع هو الله تعالى ولكن يقول : إن الولى أو النبى أقرب إلى الله تعالى منى له وله عند الله تعالى جاه وحرمة وذلك حق لا نزاع فيه ولذلك يشفع النبى صلى الله عليه وسلم للخلائق يوم القيامة وكذلك الأنبياء والأولياء والصالحون على ما شرحناه وفى إمكان الروح للولى أن تدعوا له وتطلب من الله تعالى قضاء حاجته والأرواح عند المسلمين باقية بعد الموت ولها أفعال وأقوال فى البرزخ وطالما جاءت فى المنام فأرشدت المسترشدين وأغاثة الملهوفين مما لا يمكننا الخوض فيه لسعة فجاجة وتلاطم أمواجه وإن شئت فانظر ما كتبناه فى حياة الأنبياء بمجلة الأزهر صفحة 116 جزء الثانى من السنة الثالثة ومن ذلك كلمة وجيزة بمجلة الإسلام صفحة 14 من السنة السادسة ولا نزال نقول : ما الفرق بين الطلب من الأنبياء وغيرهم من أهل الدنيا وهل هناك فرق بين أمور الدنيا وأمور الآخرة وبين الأحياء والأموات عند المسلمين الذين يعتقدون بقاء الأرواح وعدم فنائها بمقتضى ما دلت عليه الأحاديث المتواترة فى عذاب القبر ونعيمه وفى حياة الأنبياء ويكفيك ما ورد فى حديث الإسراء والمعراج إن كنت لم تطلع على غيره فقد جاء فيه عن موسى وآدم وإبراهيم عليهم السلام ما فيه مقنع وكفاية بل جاء فى كلام الفلاسفة والأقدمين من قبل ميلاد المسيح عليه السلام ما يشفى ويكفى وقبيح والله بالمؤمن أن ييأس كما يئس الكفار من أصحاب القبور وإن شيئا اعترف به الفلاسفة غير المسلمين ووصلوا إليه بعقولهم السليمة قبل إخبار الرسل به قبيح على من تزيا بالإسلام وسمع ما جاءت به الرسل

أن ينكر ما اعترف به غير المسلم . ولنسق لك بعد ذلك كله حديثا صحيحا هو نص فى الموضوع إلا عند من سلب العقل أو حرم نعمة الإنصاف أخرج المسائى فى سننه والترمذى فى صحيحه وابن ماجة وغيرهم

" أن أعمى أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنى أصيبت فى بصرى فادع الله لى فقال : له النبى صلى الله عليه وسلم توضأ وصل ركعتين ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد يا محمد إنى أستشفع بك فى رد بصرى اللهم شفع النبى فى وقال : فإن كانت لك حاجة فمثل ذلك فرد الله تعلى بصره "

ولنتقتصر اليوم على هذا ونؤخر الجواب على بقية الأسئلة إلى فرصة أخرى نسأل الله التوفيق والرشد والمعونة بكرمه ومنه .

متابعة قضية التوسل مع فضيلة الشيخ يوسف الدجوى

وهذا السؤال قد ورد إلى فضيلته وتفضل بالرد عليه

حضرة صاحب الفضل والفضيلة سيدنا ومولانا العالم العلامة الإمام مفتى الأنام ومرجع العلماء الأعلام الشيخ يوسف الدجوى عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف حفظه الله تعالى وآدامه أمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد

فنظرا لثقتنا بفضيلتكم بأنكم مرجع المسلمين جعلنا مولعين ببيانكم للأحكام الدينية وإفتائكم الوضاء للأمور الشرعية فأرفع إلى فضيلتكم السؤال الآتى راجيا التكرم بسرعة الإجابة عليه ولكم الشكر العظيم

السؤال ــ هل التوسل جائز أم غير جائز ؟ وهل هذا الحديث الآتى صحيح يجوز العمل به أم لا ؟ وهو توسلوا بجاهى فإن جاهى عند الله عظيم . تفضلوا بالجواب لا زلتم المنهل العذب والينبوع الفياض يهتدى بهديكم ويرجع إليكم

عبد الحفيظ إبراهيم اللازقى

بيروت

الجواب ــ الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

وبعد

لقد جاءنا هذا السؤال من حضرة الفاضل صاحب التوقيع وقد كتبنا فى التوسل بعده محلات أما اليوم فلا يمكننا أن نكتب فيه إلا كلمة موجزة للغاية فنقول : إن العقل والنقل متفقان على أن التوسل جائز ونافع . أما النقل فيكفى فيه الحديث الثابت عند المحدثين حتى الشوكانى الذى هو من أئمة مانعى الوسيلة وهو حديث عثملن بن حنيف الذى تشفع فيه ذلك الضرير بالنبى صلى الله عليه وسلم ثم دخل عليهم قبل أن يتفرقوا وقد رد إليه بصره ومانعوا الوسيلة لا يخجلون ولا يتورعون من نسبة المسلمين فى كافة عصور الإسلام المختلفة إلى الشرك ولو كان التوسل شركا لكان عمر بن الخطاب عندما قال : اللهم إنا نتوسل إليك بالعباس مشركا . ولا أدرى كيف يتصور الإشراك والمتوسل معترف بأن الفاعل هو الله تعالى وإنما يتوسل إليه بحبيبه لمزيد قربه ورفعة منزلته وهذا مما لا شك فيه أو ليدعوا له فإنه حى تعرض عليه أعمالنا ويستغفر لنا كما بينا ذلك أتم البيان فى بعض ما كتبناه والعجب أنهم يقيسون

المتوسل على عابد الوثن ويصرحون أن قبور الأنبياء والأولياء والصالحين أصنام وطواغيت يعبدها المتوسلون ويشركونها مع الله فى العبادة وقد أفاض بن القيم وهو من أئمتهم فى كتاب الروح فى عمل الأرواح حتى قال : إن الروح الكبيرة كروح أبى بكر تهزم جيشا بأسره وهل يعتقد أحد من المؤمنين أن مع الله تعالى إلها آخر وكيف يكون ذلك مع إقراره بالوحدانية وإعتقاده جازما أن الله واحد لا شريك له وإذا كان يعتقد أن المتوسل به إنما يدعوا له أو يشفع له كما يشفع لنا صلى الله عليه وسلم يوم القيامة وكما يستغفر لنا الآن ويرد علينا السلام بل كما ترد الأموات كلها السلام فأى ضرر فى ذلك بل نقول : لو فرضنا أنه يفعل لنا شيئا بنفسه فإنما يريد أن يفعله بإذن الله تعالى على سبيل التسبب بما أعطاه الله تعالى من المواهب التى ليست عندنا بفعل الحى ذلك بإذن الله تعالى على سبيل التسبب أيضا ونحن نعتقد أن الحياة الروحية البرزخية أقوى من الحياة الروحية المادية ولا فرق عندنا بين حياة مادية وحياة روحية وإلا فلماذا يلتجئون إلى المخلوقات فى أمورهم فهل اعتقدوا أنهم آلهة مع الله تعالى يفعلون بغير إذنه أليست أمور الدنيا والآخرة كلها لله تعالى وحده أم معه آلهة أخرى فى الدنيا دون أمور الآخرة . فإن كان كل طالب من غير الله تعالى على أى وجه من الوجوه مشركا فهم أول المشركين وإن كان لا يكون مشركا إلا إذا اعتقد أنه يفعل بغير إذن الله تعالى . فالجميع مؤمنون بأن هذه العقيدة المكفرة ليست عند أحد من المستغيثين بالإنجليز فضلا عن المستغيثين بأحباب الله تعالى فليختاروا ما شاءوا

والخلاصة – بأن هؤلاء القوم جاهلون مجازفون بتكفير المؤمنين والتكفير شىء عظيم لو كانوا يعلمون وقد أثبت الشوكانى التبرك بالآثار فى شرح نيل الأوطار ولكنهم ماديون بفطرتهم لا يؤمنون بعمل الأرواحولا حياتها على الرغم من التواتر فى ذلك كما يئس الكفار من أصحاب القبور ولا ننكر أن بعضهم قد قرأ شيئا من السنة وزاول بعض كتب العلم ولكنه كان كالمريض الذى يأكل ولا يهضم فكان الأكل ضررا عليه أو سببا فى هلاكه والعلم كالبحر فمن لا يحسن السباحة فلا بد أن يغرق .

أما حديث توسلوا بجاهى المذكور فى السؤال فمتكلم فيه ولسنا فى حاجة لإثباته على أن حديث عثمان بن حنيف الذى أشرنا إليه يفيد هذا المعنى كل الإفادة وفيه أمر صلى الله عليه وسلم بأن يقول : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة إلى آخره فماذا بقى بعد تعليمه صلى الله عليه وسلم وأمره بعد العمل بذلك فى حياته وبحضرته صلى الله عليه وسلم ولا يفوتنا أن نقول : إن القرآن تارة يسند الأفعال إلى أسبابها والقائمين بها وتارة يسندها إلى مسبب الأسباب الذى يرجع الأمر كله إليه سبحانه وتعالى فتارة يقول : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

الزمر 42

وتارة يقول :

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

السجدة 11

ويقول (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) **النحل 28**
إلى غير ذلك مما لا يخفى عليك
والله يتولى هدى الجميع بمنه وكرمه .

فصل

كرامات الأولياء

مع فضيلة الشيخ يوسف الدجوى وقد وردت إليه أسئلة حول كرامات الأولياء وتفضل رحمه الله تعالى بالرد عليها

السؤال – هل لنا أن تعتقدد أن المدفونين فى الأضرحة أولياء ؟ وأن نصدق ما نسمع من الملأ عن الآيات التى أظهروها فى حياتهم من مدة ستين سنة أو أكثر أو أقل ؟ وأرجوا أن ترسموا لنا حدا يبين لنا الولى وغيره ؟ وهل للأولياء شفاعة عند الله بمعنى أنهم يقومون بدور رجاء ؟ وهل يقبل الله رجاءهم على أنه قال تبارك وتعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) **ق 16**

الجواب – الولى هو العارف بالله تعالى وصفاته المواظب على الطاعات المجتنب للمعاصى المعرض عن الإنهماك فى اللذات والشهوات وإن كانت من المباحات هكذا عرفوه ولا داعى للإطالة فيه ويكفينا قوله : تعالى فى بيان الأولياء (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) **يونس 63**

أو نقول : هم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا أو نقول : هم الذين أشار إليهم قوله : تعالى (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ

وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) **البقرة 177**

أما الكرامات – فهى جائزة لا شك فيها وقد تواترت فى المعنى وإن كانت التفاصيل آحادا مثل كرامات الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الصالحين وهى ثابتة بالكتاب والسنة كما ستقف عليه ولا ينكرها إلا أهل البدع وليس انكارهم إياها بعجب منهم فإنهم كما قال : بعض العلماء لم يشاهدوا ذلك من أنفسهم ولم يسمعوا به من رؤسائهم مع إجتهادهم فى العبادات غير عالمين أن المسألة مسألة قلوب لا أبدان وصفاء أرواح لا تعب أشباح وقوة يقين وتمكين لا شدة مجاهدات وكثرة عبادات " إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم " **أخرجه مسلم**

وقد ثبت حديث " إن بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسلامة الصدر وسخاوة النفس " **رواه ابن أبى الدنيا**

وقد جاء الحديث المتفق عليه " إنه سيكون فى الأمة أقواما يحقر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاتهم وصيامهم جنب صلاتهم وصيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " **رواه مسلم**

نقول : إن الكرامات منح إلهية يعطيها الله تعالى من يشاء ويمنعها من يشاء ولا فرق بين العطايا الحسية والعطايا المعنوية ولا بين الأرزاق الجسمانية التى قال : الله تعالى فيها (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) **الزخرف 32**

ولا بين المواهب الروحية الى قال : الله تعالى فيها (وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) **البقرة 105**

فسبحان من قسم الحظوظ فى البابين ومنح ما شاء من شاء من الفريقين . فكما أن الناس متفاوتون فى الصحة الجسمانية هم أيضا متفاوتون فى الصحة الروحية ولذلك تفاوتوا فى الآخرة كما تفاوتوا فى الدنيا أو أشد (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) **الإسراء 21**

ولنقرب لك الأمر تمام التقريب حتى يكون على طرف التمام فقد كثر فيه القيل والقال جمودا على الرأى .

فنقول : إن الفاعل هو الله تعالى لا الولى ولا النبى ولكنه يكرم من يشاء بما شاء وهو على شىء قدير فأى مانع من أن يخرق الله تعالى العادة إكراما لبعض عباده الصالحين حيا أو ميتا فيرزقه رغيفا فى مفازة أو شربة ماء فى صحراء أو يكرم زائره ومحبيه مثل ما فعل سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ضل

الطريق فيعرض له الأسد فقال : له أنا سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصبص له وسار بجانبه يهديه الطريق

ومن تكن برسول الله نصرته

إن تلقه الأسد فى آجامها تجم

إلى آخر ما ورد عن الصحابة وغيرهم وستسمع شيئا منه وأى قيمة لذلك بجانب ما أعطاهم الله تعالى من شرف معرفته ومحبته والقرب منه حتى قال : فى الحديث القدسى الذى رواه البخارى " من عادى لى وليا فقد آذانته بالحرب إلى أن قال : ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به .. إلى آخر الحديث

فانظر إلى قوله : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وإلى قوله : كنت سمعه وبصره فإلى أى حد تكون منزلة ذلك الولى عند الله تعالى حتى يحارب من يعاديه كيف يكون بصره الذى استضاء بنور معرفته وإلى ماذا يصل سمعه الذى له ذلك الشرف الأعلى ولا غرو بمعاملة الله تعالى تأتى بالعجائب والغرائب وهو الرحيم الودود رزقنا الله تعالى الأدب معه والتوكل عليه واظر إلى قوله : تعالى

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) **الأعراف 196**

وقوله : فى الحديث القدسى " من تقرب إلى ذراعا تقربت منه باعا "

وقوله : فى الحديث القدسى أيضا " مرضت فلم تعدنى فيقول العبد يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين فيقول مرض عبدى فلان فلم تعده ولو عدته لوجدتنى عنده " إلى آخر الحديث

وقد قال : صلى الله عليه وسلم " رب أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره " ولم يفرق بين شىء وشىء وإنى ألفت نظرك إلى تلك المنزلة السامية التى كادت تخرجه من ذل العبودية إلى تلك المنزلة السامية وجعلته يقسم على الله قسما يستتبع الإجابة . وهذا يشبه قوله : تعالى

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ) **الزمر 34**

فهل بعد ذلك التنزل الإلهى والعطف الربانى الذى سمعته يستبعد أن يخرق لهم العادات أو يمن عليهم بما شاء من الكرامات فلا يدع أن يكون دعاؤهم أقرب إلى الإجابة عن دعائك لأن منزلتهم عنده أعظم من منزلتك .

أما قوله : تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) **ق 16**

الذى اشتبه على السائل فهو وصفه لا وصفنا فإنه يعلم مخلوقاته كلها على السواء لا تفاوت بينها فى علمه وإحاطته ولكن هناك تفاوت كبير بين منازل عباده قربا وبعدا بحسب إنقيادهم له وإقبالهم عليه ومحبتهم إياه أو إنصرافهم عنه وإقبالهم على غيره ولست فى حاجة إلى أن أعرفك أن القرب معنوى والبعد كذلك فإن الله متعال عن قرب المسافات وبعدها ومن ذا يستطيع أن يقول إن للفاسقين من القرب وحسن المعاملة من الله ما للصالح المطيع (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) **الجاثية 21**

ولنذكر لك سيئا مما جاء فى القرآن والسنة مما يفيد الموضوع فنقول :

أولا - قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم فى النوم أحياء سالمين عن الآفات مدة ثلاثمائة سنة وتسع سنين كما قال : تعالى (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا) **الكهف 17**

إلى أن قال : تعالى (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) **الكهف 18**

إلى أن قال : تعالى (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) **الكهف 25**

ثانيا – قصة السيدة مريم وحملها بعيسى عليهما السلام . من غير أب على ما قصه الله تعالى علينا فى آيات عديدة

ثالثا – إثمار الجذع اليابس الذى أمرها الله تعالى بهزه وعرفها أنها ستجد منه ما لم يكن فى الحسبان

رابعا – ما قص الله تعالى علينا من أن زكريا عليه السلام كان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قلات هو من عند الله

خامسا – ما قص الله تعالى علينا من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار على يد الخضر الذى علمه الله من لدنه علما على ما هو مبين بالتفصيل فى سورة الكهف وهى ثلاث كرامات

سادسا – قصة آصف بن برخيا مع سليمان عليه السلام على ما قاله : جمهور المفسرين فى قوله : تعالى (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) **النمل 40**

فجاء بعرش بلقيس من اليمن قبل إرتداد الطرف

أما السمة النبوية الصحيحة فقد جاء فيها شيء كثير من هذا : -

أولا – قصة جريج العابد

ثانيا – قصة الغلام الذى تكلم فى المهد

ثالثا – قصة عباد بن بشر وأسيد بن خضير

رابعا – قصة أبى بكر مع أضيافه

خامسا – كرامة خبيب بمكة

سادسا – كرامة عمر بن الخطاب وهو على المنبر

وقبل الختام لا بد أن نقول : إنه لا فرق عندنا بين الحى والميت حيث إن الله تعالى هو الفاعل لا الحى ولا الميت ولا فرق فى فعله تعالى بين أن يتولاه هو إكراما لوليه من

غير أن يكون للولى دخل فيه أو علم به وبين أن يحريه على يديه أو يقوى روحه حتى تفعل ما لا تستطيع غيرها كما يقوى بعض الأجسام فيكون له من الأثر ما ليس لغيره ولا فرق فى التحقيق بين أن يفعل لك أو يفعل بك . فإنه الفاعل على كل حال . على أن الأرواح بينها من التفاوت ما لا يعلمه إلا الله تعالى فلا يصح أن تقاس الروح الضعيفة على الروح القوية ولا الروح الحرة على الروح النذلة ولكل مرتبة من مراتب الأرواح خصائص تناسب تلك المرتبة وللأرواح من القوانين ما يباين قوانين الأجسام ولذلك نرى الحاسد يؤثر فى المحسود من بعد مع أن القوانين المادية تقضى بعدم التأثير إلا إذا حصلت مجاورة أو مماسة ثم نقول : إن الأرواح إذا صفت صح أن تتطلع على الغيب لأنها من عالم الملكوت فأى بعد بعد هذا فيما ينسب للكاملين من أولياء الله تعالى المقربين الذين هم أرواحهم أكمل الأرواح وأقواها ولهم من عناية الله تعالى وفيضه ما ليس لغيرهم . وقبل إلقاء القلم لا بد أن نقول : إن كثيرا من الناس كاذبون فى دعوى الولاية مفترون على الله تعالى فيها ولكن هذا لا يضر الموضوع شيئا فكل طائفة فيها الصادق والكاذب سنة الله تعالى ولن تجد لسنة الله تبديلا وقد عرفناك الولى بصفاته الجميلة ونعوته الجليلة أما التطبيق فنكله إليك وتبعته عليك .

فصل

الآراء والمذاهب الفقهية فى حكم الصلاة فى المساجد التى بها أضرحة

أولا – حكم الصلاة فى مقابر المسلمين

ثانيا – بيان آراء المذاهب الفقهة فى حكم البناء على القبور

ثالثا – اسحباب الصلاة فى المسجد الذى به ضريح

أولا – حكم الصلاة فى مقابر المسلمين

مذهب الأحناف

تكره الصلاة فى المقبرة كراهة تنزيهية لأنها مظان النجاسة ولأنه تشبه باليهود ولا بأس بالصلاة فيها إذا كان فيها موضع أعد للصلاة وليس فيه قبر ولا نجاسة ولا قبلته إلى قبر .

مذهب المالكية

الصلاة فى المقبرة دائز بلا كرهة ولو على مقبرة عامرة أو دارسة منبوشة أو لمشرك أن أمنت النجاسة

مذهب الشافعية

لا تصح الصلاة فى المقبرة التى تحقق نبشها بلا خلاف فى المذهب لأنه قد إختلط بالأرض صديد الموتى إن لم يبسط تحتح شىء وإن بسط تحته شىء تكره وأما إن تحقق عدم نبشها صحت الصلاة بلا خلاف لأن الجزء الذى فيه باشر بالصلاة طاهر ولكنها مكروهة تنزيها لأنها مدفن النجاسة وأما إن شك فى نبشها فقولان أصحهما تصح الصلاة مع الكرهة لأن الأصل طهارة الأرض فلا يحكم بنجاستها بالشك وفى مقابل الأصح لا تصح الصلاة لأن الأصل بقاء الفرض فى ذمته وهو يشك فى إسقاطه والفرض لا يسقط بالشك

مذهب الحنابلة

المقبرة عندهم ما حوت ثلاثة قبور فصاعدا فإن كان الموضع قبر أو قبران لم يمنع من الصلاة فيها لأنها لا يتناولها اسم مقبرة . وأما عن حكم الصلاة فى المقبرة فروايتان عن الإمام أحمد

الأولى – أن الصلاة لا تصح

الثانية – أن الصلاة صحيحة عند التحرز من النجاسة . وهو مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى

الصلاة فى المقبرة صحيحة إذا أمن النجاسة

قد علل ابن قدامة المقدسى أن المنع عندهم معلل بأن المقبرة مظان النجاسات فإذا تحرز المصلى من النجاسة فالصلاة صحيحة كما نصوا على أنه لا يمنع من الصلاة ما دفن بداره ولو زاد على ثلاثة قبور لأنه ليس بمقبرة

والحاصل مما تقدم – أن الأئمة الثلاثة أبا حنيفة ومالكا والشافعى جوزوا الصلاة فى المقبرة بشرط عدم وجود النجاسة . أما الحنابلة فالمنع عندهم على ما رجحه ابن قدامة علته النجاسة ومن ثم فالإتفاق قائم بين المذاهب الأرعة على أن الصلاة فى المقبرة جائز عند التحرز من النجاسة

ذكر أدلة الجمهور على صحة الصلاة فى المقبرة إذا خلت من النجاسة

أولا – إن عددا من الصحابة كانوا يصلون فى مربد ابنى رافع بن أبى عمرو بن عائذ وكانا غلامين فى حجر أسعد بن زرارة وهذا المربد وهو موضع تجفيف التمر هو الذى أقيم عليه مسجد النبى صلى الله عليه وسلم وكان فيه أو عنده مقبرة فصلاة أسعد بن زرارة مع أصحابه بالمربد هى صلاة إما على القبور أو بجانب القبور

ثانيا – إن النبى صلى الله عليه وسلم بنى مسجده على مقبرة المشركين ونبش بعضها وبقر البعض فنبش فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه والمقبرة هى المقبرة سواء أكانت للمسلمين أم للمشركين كما أفاد الحافظ بن عبد البر فى تمهيده وليرجع إليه من يريد مزيدا من الإستفادة

ثالثا – ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال **" جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا "** **رواه مسلم**

ومن ألفاظ الحديث " فحيثما أدركتك الصلاة فصل فإنه مسجد "

وهذه فضيلة والفضائل لا تخصص ولا تنسخ ولا يدخل عليها الإستثناء كما أفاده الحافظ بن عبد البر فى تمهيده .

مشروعية زيارة أضرحة الأولياء والتبرك بها

ذكر ما جاء فى باب ذكر موضع قبور عذارى بنات النبى إسماعيل عليه السلام أخبار مكة فى قديم الدهر وحديثه للفاكهى قال : خالد المخزومى : فيرون أن ذلك الموضع ما بين الميزاب إلى باب الحجر الغربى فيه قبره وقال : صفوان بن عبد الله الجمحى : حفر ابن الزبير الحجر فوجد فيه سفطا من حجارة أخضر فسأل قريشا عنه فلم يجد عند أحد منهم فيه علما فأرسل إلى أبى فسأله فقال : هذا قبر إسماعيل عليه السلام وفى رواية : أنه وجد حجارة خضراء منطبقا بها فقيل : له هذا قبر إسماعيل

عليه السلام . وقيل : بل قبره مقابل الحجر الأسود وقال : ابن الزبير هذه المحدودب يشير إلى ما يلى الركن الشامى من المسجد الحرام فقبور عذارى بنات إسماعيل عليه السلام قال : وذلك الموضع سوى مع المسجد ولا يثبت أن يعود محدودبا كما كان .
قال : علماء السير : لما توفى إسماعيل عليه السلام دبر أمر الحرم بعده ابنه نابت ابن إسماعيل عليه السلام وفى باب ذكر إسماعيل صلوات الله عليه وسلامه فى كتاب المنتظم لابن الجوزى قال : ابن سعد وأخبرنا خالد بن خداش حدثنا عبد الله بن وهب قال : حدثنى حرملة بن عران عن إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة أنه قال : ما يعلم موضع قبر نبى من الأنبياء إلا ثلاثة إسماعيل عليه السلام فإنه تحت الميزاب بين الركن والبيت وقبر هود عليه السلام فإنه فى خصف تحت جبال اليمن عليه شجرة نداء وموضعه أشد الأرض حرا وقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه أيضا : أخبرنا محمد بن عمر الأسلمى حدثنى أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما بلغ إسماعيل عليه السلام عشرين سنة توفيت أمه هاجر وهى ابنة تسعين سنة فدفنها إسماعيل عليه السلام فى الحجر .
قال : وأخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى جهم عن أبى بكر بن سليمان بن أبى حثمة عن أبى جهم بن حذيفة بن غانم قال : أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن يبنى البيت وهو يومئذ ابن مائة سنة وإسماعيل يومئذ ابن ثلاثين سنة فبناه معه وتوفى إسماعيل عليه السلام بعد أبيه فدفن داخل الحجر مما يلى الكعبة مع أمه هاجر عليهما السلام وولى نابت بن إسماعيل عليه السلام البيت بعد أبيه مع أخواله من جرهم قال : أخبرنا خالد بن خداش بن عجلان أخبرنا عبد الله بن وهب المصرى أخبرنا حرملة بن عمران عن إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة أنه قال : ما يعلم موضع قبر نبى من الأنبياء إلا ثلاثة قبر إسماعيل عليه السلام فإنه تحت الميزاب بين الركن والبيت وقبر هود عليه السلام فإنه فى حقف من الرمل تحت جبل من جبال اليمن عليه شجرة تندى وموضعه أشد الأرض حرا وقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن هذه قبورهم بحق .
وفى طبقات ابن سعد باب ذكر إسماعيل عليه السلام لما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق عليهما السلام وزوج ابته من العيص بن إسحاق أن يدفن عند قبر أمه السيدة هاجر عليهما لسلام بالحجر وفى الكامل فى التاريخ لابن الأثير حدثنا أحمد حدثنا يونس عن المنذر بن ثعلبة عن سعيد بن حرب قال : شهدت عبد الله بن الزبير وهو يقلع القواعد التى أسس إبراهيم عليه السلام لبناء البيت فأتو تربة صفراء عند الحطيم فقال : ابن الزبير هذا قبر إسماعيل عليه السلام فواراه وفى السيرة النبوية لابن إسحاق باب حديث بنيان الكعبة قال : ابن إسحاق وكان عمر إسماعيل عليه السلام فيما يذكرون مئة سنة وثلاثين سنة ثم مات رحمة الله تعالى وبركاته عليه ودفن فى الحجر مع أمه السيدة هاجر رحمهم الله تعالى وفى سيرة ابن هشام باب عمر إسماعيل عليه السلام ومدفنه قيل : إن إسماعيل عليه السلام لما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق عليه السلام وزوج ابته من العيص بن إسحاق وعاش إسماعيل عليه السلام فيما ذكر مائة وسبعة وثلاثين سنة ودفن فى الحجر عند قبر أمه هاجر . وفيه حدثنى عبدة بن عبد الله الصفار قال : حدثنا خالد بن عبد الرحمن

المخزومى عن مبارك بن حسان صاحب الأنماط عن عمر بن عبد العزيز قال : شكا إسماعيل عليه السلام إلى ربه تبارك وتعالى حر مكة فأوحى الله تعالى إليه إنى فاتح لك لك بابا من الجنة يجرى عليك روحها إلى بيوم القيامة فى ذلك المكان تدفن وفى تاريخ الطبرى ذكر خبر ولد إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن عليهما السلام وعاش إسماعيل عليه السلام فيما ذكر مائة وسبعا وثلاثين سنة ودفن فى الحجر عد قبر أمه السيدة هاجر وقيل : إن إسماعيل عليه السلام لما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق عليه السلام وزوج ابنته من العيص بن إسحاق عليه السلام وعاش إسماعيل عليه السلام فيما ذكر مائة وسبعا وثلاثين سنة ودفن فى الحجر عند قبر أمه السيدة هاجر عليهما السلام وفى تاريخ الرسل والملوك لابن جرير باب ابن إبراهيم عليهما السلام وفى تفسير القرطبى ما بين الركن والمقام إلى زمزم قبور تسعة وتسعين نبيا جاءوا حجاجا فقبروا هناك عليهم السلام

ومقصد القول : إن الصالحين من الأنبياء والأولياء تجلب أجسادهم بعد إنتقال أرواحهم إلى الرفيق الأعلى البركة إلى مكان دفنهم وتؤيد ذلك الآية 21 من سورة الكهف (وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا)

الكهف 21

وقوله : تعالى (فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ) القائلون من المشركين من القوم بدليل قوله : بعد ذلك (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ) والمراد ببناء البنيان عليهم على ما قيل : أن يضرب عليهم ما يجعلون به وراءه ويسترونه عن الناس فلا يطلع عليهم مطلع منهم كما يقال : بنى عليه جدارا إذا حوطه وجعله وراءه . وهذا الشطر من الكلام بإنضمامه إلى ما قبله من قوله : (وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ) **الكهف 19**

(وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ) يلوح إلى تمام القصة كأنه قيل : ولما أن جاء رسولهم إلى المدينة وقد تغيرت الأحوال وتبدلت الأوضاع بمرور ثلاثة قرون على دخولهم فى الكهف وانقضت سلطة الشرك وألقى زمام المجتمع إلى التوحيد وهو لا يدرى لم يلبث دون أن ظهر أمره وشاع خبره فاجتمع عليه الناس ثم هجموا وازدحموا على باب الكهف فاستنبئوهم قصتهم وحصلت الدلالة الإلهية تأييدا لعقيدة أهل الإسلام (لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) بالبعث حق (وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ) ثم إن الله قبضهم إليه فلم يلبثوا أحياء بعد انبعاثهم إلا سويعات ارتفعت بها عن الناس شبهتهم فى أمر البعث وعندئذ قال : المشركون (ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ) تحججا لطمس هذه الآية وفى قوله : (رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ) إشارة إلى وقوع خلاف بين الناس المجتمعين عليهم أمرهم فإنه كلام آيس من العلم واستكشاف حقيقة أمرهم يلوح منه أن القوم تنازعوا فى شىء مما يرجع إليهم فتبصر فيه بعضهم ولم يسكن الآخرون إلى شىء ولم يرتضوا رأى مخالفيهم فقالوا : (ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ

أَعْلَمُ بِهِمْ) فمعنى الجملة أعنى قوله : (رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ) يتفاوت بالنظر إلى الوجهين المتقدمين فى قوله : (إذ يتنازعون بينهم أمرهم) إذ الجملة على أى حال نوع تفرع على تنازع بينهم كما عرفت آنفا فإن كان التنازع المدلول عليه بقوله : (إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ) هو التنازع فى أمر البعث بالإقرار والإنكار لكون ضمير (أَمْرَهُمْ) للناس كان المعنى أنهم تنازعوا فى أمر البعث فأعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها لكن المخالفين لم ينتهوا بما ظهرت لهم من الآية فقالوا ابنوا على أصحاب الكهف بنيانا واتركوهم على حالهم ينقطع عنهم الناس فلم يظهر لنا من أمرهم شىء ولم نظفر فيهم على يقين ربهم أعلم بهم وقال : الموحدون أمرهم ظاهر وآيتهم بينة وبركتهم واضحة ولنتخذن عليهم مسجدا يعبد فيه الله نتبارك بهم فى دعائنا ويبقى ببقائه ذكرهم . فالمراد بالغلبة غلبة الموحدين بنجاحهم بالآية التى قامة على حقيقة البعث واتخاذ المسجد عليهم للدعاء والتعبد بغرض التبرك حتى يكون المكان مباركا بهم فيستجاب فيه الدعاء لله وحده الذى لا شريك له . وهذا يلهمنا بأن اتخاذ المساجد على أضرحة من تظهر لهم كرامة من عباد الله الصالحين المشهود لهم بإلتزام الأوامر والنواهى الشرعية واجب ليستفيد منه كل متوجه لله يتحرى الأماكن المباركة التى يستجاب فيها الدعاء وقد ذهب إلى ذلك عدد من العلماء منهم شيخنا الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى رحمه الله برحمته الواسعة وشيخ الأزهر السابق المرحوم بإذن الله الدكتور عبد الحليم محمود ومفتى الديار المصرية الشيخ الدكتورعلى جمعة وشيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب والشيخ يوسف الرفاعى وزير أوقاف الكريت السابق والشيخ محمد المالكى الحجازى والشيخ على الجفرى وغيرهم الكثير من العلماء المعاصرين من جميع المذاهب والمدارس الفقهية ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا أتباع مدرسة واحدة مشهورة بمخالفة المسلمين منذ نشأتها الأولى وهم أتباع المدرسة الوهابية هداهم الله إلى سوى الصراط . والأدلة كثيرة على عدم معارضة العلماء فى صدر الإسلام خاصة القرون الثلاثة الأولى البناء على أضرحة الصالحين فهذا ضريح الصحابى الجليل زيد بن الخطاب كان مزارا منذ العصر الراشدى إلى أن هدمه أتباع محمد بن عبد الوهاب بداية القرن الماضى وهذا أبو حنيفة النعمان بن ثابت إمام الحنيفية المتوفى سنة 150 هجرية قبره فى الأعظمية ببغداد مزار معروف وروى الخطيب فى تاريخه عن على بن ميمون قال : سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول : إنى لأتبرك بأبى حنيفة وأجىء إلى قبره فى كل يوم زائرا فإذا عرضت لى حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده فما تبعد حتى تقضى وذكره الخوارزمى فى مناقب أبى حنيفة والكردرى فى مناقبه وطاش كبرى زادة فى مفتاح السعادة والخالدى فى صلح الأخوان نقلا عن السفيرى وابن جماعة . وقال : ابن الجوزى فى المنتظم فى هذه الأيام يعنى سنة 459 هجرية بنى أبو سعيد المستوفى الملقب شرف الملك مشهد أبى حنيفة وعقد لقبره ملبنا وعقد القبة وعمل المدرسة بإزائه وأنزلها الفقهاء ورتب لهم مدرسا فدخل أبو جعفر بن البياضى إلى الزيارة فقال : ارتجالا

ألم تر أن العلم كان مضيعا

فجمعه هذا المغيب فى اللحد
كذلك كانت هذه الأرض ميتة
أنشرها جود العميد أبى سعد

وفقيه المدينة مالم بن أنس إمام المالكية المتوفى سة 179 هجرية قبره ببقيع الغرقد فى المدينة المنورة قال : ابن جبير فى رحلته عليه قبة صغيرة مختصرة البناء وقال : إن الفقهاء عدوا زيارته من آداب من زار قبر النبى الأقدس صلى الله عليه وسلم .والإمام موسى بن جعفر رضى الله عنهما المدفون بالكاظمية سنة 183 هجرية أخرج الخطيب البغدادى فى تاريخه بإسناده عن أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعى قال : سمعت الحسن بن إبراهيم أبا على الخلال شيخ الحنابلة فى عصره يقول : ما همنى أمر فقصدت قبر موسى بن جغفر فتوسلت به إلا سهل الله تعالى لى ما أحب .

وفى شذرات الذهب توفى ببغداد الشريف أبو جعفر محمد الجواد بن على بن موسى الرضا الحسينى ودفن عند جده موسى ومشهدهما ينتابه العامة بالزيارة .

قال : أو بكر محمد بن المؤمل : خرجنا مع إمام أهل الحديث أبى بكر بن خزيمة وعديله أبى على الثقفى مع جماعة من مشايخنا وهم إذ ذاك متوافرون إلى على بن موسى الرضا بطوس قال : فرأيت من تعظيمه يعنى ابن خزيمة لتلك البقعة وتواضعه لها وتضرعه عندها ما تحيرنا . وعبد الله بن غالب الحدانى البصرى المقتول سنة 183 هجرية قتل يوم التروية كان الناس يأخذون من تراب قبره كأنه مسك يصيرونه فى ثيابهم وقال : محمد بن فضالة رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال : زوروا بن عون فإن الله يحبه . وعلى بن نصر الأزدى أبو الحسن البصرى المتوفى سنة 189 هجرية مشهده بالبصرة معروف يزار ومعروف الكرخى المتوفى سنة 200 هجرية قال : إبراهيم الحربى قبر معروف الترياق المجرب . وعن الزهرى أنه قال : قبر معروف الكرخى مجرب لقضاء الحوائج .

قال : ابن الجوزى عن أحمد بن الفتح قال : سألت بشرا يقصد الحافى التابعى الجليل عن معروف الكرخى فقال : هيهات حالت بيننا وبينه الحجب إلى أن قال : فمن كانت له إلى الله حاجة فيأت قبره فإنه يستجاب له إن شاء الله تعالى . وقال : قبره ظاهر يتبرك به فى بغداد .

قال : الخطيب البغدادى فى تاريخه

باب البردان فيها أيضا جماعة من أهل الفضل وعند المصلى المرسوم بصلاة العيد قبر كان يعرف بالنذور زيقال : إن المدفون فيه رجل من ولد على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه يتبرك الناس يزيارته ويقصده ذو الحاجة منهم لقضاء حاجته . وهذا أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى إمام الشافعية المتوفى سنة 204 هجرية دفن بالقرافة الصغرى بمصر المحروسة وقبره يزار بها بالقرب من المقطم وقال : الجزرى فى طبقات القراء والدعاء عند قبره مستجاب .وقال : الذهبى فى دول الإسلام إن الملك الكامل عمر قبة على ضريح الشافعى رحمة الله عليه . والسيدة نفيسة رضى الله عنها ابنة محمد أبى محمد الحسن بن زيد من ذرية الحسن بن على بن أبى طالب توفيت سنة 208 هجرية ودفنت بدرب السباع وقبرها معروف بإجابة الدعاء عنده وهو مجرب رضى الله عنها . وأحمد بن حنبل إمام الحنابلة

المتوفى سنة 241 هجرية قبره ظاهر مشهور يزار ويتبرك به كذا فى مختصر طبقات الحنابلة وقال : الذهبى ضريحه يزار ببغداد . وحكى ابن الجوزى فى مناقب أحمد عن عبد الله بن موسى قال : خرجت أنا وأبى فى ليلة مظلمة نزور أحمد فاشتدت الظلمة فقال : أبى يا بنى تعالى حتى نتوسل إلى الله تعالى بهذا العبد الصالح حتى يضىء لنا الطريق فإنى منذ ثلاثين سنة ما توسلت به إلا قضيت حاجتى فدعا أبى وأمنت على دعائه فأضاءت السماء كأنها ليلة مقمرة حتى وصلنا إليه . وقال : عن أبى الحسن التميمى عن أبيه عن جده أنه حضر جنازة أحمد بن حنبل قال : فمكثت طول أسبوع رجاء أن أصل من إزدحام الناس عليه فلما كان بعد أسبوع وصلت إلى قبره ووعدت بالجلوس فى جامع المنصور فتكلمت يوم الإثنين سادس عشر جمادى الأولى فبات فى الجامع خلق كثير وختمت ختمات واجتمع للمجلس بكرة ما حزر بمائة ألف ثم نزلت فمضيت إلى زيارة قبر أحمد فتبعنى من حزر بخمسة آلاف والأدلة فى هذا المجال تطول خاصة الثلاثة قرون الأولى من صدر البعثة المحمدية على صاحبها وآله الصلاة والسلام المعروفة بقرون الخيرية ولم تقرأ من أنكر على الناس إقامة الأضرحة على قبور الصالحين بغرض مباركة المكان ليستجاب فيه الدعاء فلا يدعو المسلم مع الله أحدا ولكنه التحرة عن الأماكن التى يستجاب فيها الدعاء . ومن يقولون : بتأويل لا يستقيم لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذى صححه البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس وعائشة وغيرهما " لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه إذا اغتم كشفها عن وجهه فقال : وهو كذلك لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " . يحذر ما صنعوا ولا نعرف مسلما اتخذ أحد القبور لنبى أو ولى مسجدا بل تقصر مقصورة مستقلة بذلتها معزولة عن المسجد . ولا نعرف مسلما يصلى على قبر ولا يقول : بهذا أحد من السلف أو الخلف . وهذا الحديث الذى يكاد يكون متواترا يعرفه الصحابة والتابعون ولم يعترضوا أو يمتعضوا أو عرف عنهم أنهم نهوا عن زيارة قبره صلى الله عليه وسلم وصاحبيه بل أجمعوا على وجوب السلام عليهم عند زيارة المسجد النبوى .

أما إذا كان المقصود زيارة أضرحة الأولياء فنراها سنة ودليلها الحديث الذى رواه البيهقى عن أبى سعيد الخدرى وعائشة رضى الله عنهما أن أبا سعيد الخدرى دخل على السيدة عائشة رضى الله عنها فقالت : له يا أبا سعيد حدثنى بشىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحدثك بما رأيته يصنع قال : أبو سعيد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى صلاة الصبح قال : اللهم املأ سمعى نورا وبصرى نورا ومن بين يدى نورا ومن خلفى نورا وعن يمينى نورا وعن شمالى نورا ومن فوقى نورا ومن تحتى نورا وعظم لى المور برحمتك .

وفى رواية أخرى وأعظم لى نورا ثم قالت : عائشة رضى الله عنها دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع عنه ثوبيه ثم لم يستتم أن أقام فلبسهما فأخذتنى غيرة شديدة ظننت أنه يأتى بعض صويحباتى فخرجت أتبعه فأدركته بالبقيع يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء فقلت : بأبى وأمى أنت فى حاجة ربك وأنا فى حاجة الدنيا فانصرفت فدخلت حجرتى ولى نفس عال ولحقنى رسول الله صلى الله عليه

وسلم فقال : ما هذا النفس يا عائشة ؟ فقلت : بأبى وأمى آتيتنى فوضعت عنك ثوبيك ثم لم تستتم أن قمت فلبستهما فأخذتنى غيرة شديدة ظننت أنك تأتى بعض صويحباتى حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع قال : يا عائشة أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله ؟ بل آتانى جبريل عليه السلام فقال : هذه الليلة ليلة النصف من شعبان ولله فيها عتقاء من النار بعدد شعور غنم كلب لا ينظر الله فيها إلى مشرك ولا مشاحن ولا إلى قاطع رحم ولا إلى مسبل ولا إلى عاق والديه ولا إلى مدمن خمر قال : ثم وضع ثوبيه فقال : لى يا عائشة تأذنين لى فى قيام هذه الليلة فقلت : نعم بأبى وأمى فقام فسجد ليلا طويلا حتى ظننت أنه قبض فقمت ألتمسه ووضعت يدى على باطن قدميه فتحرك ففرحت وسمعته يقول : فى سجوده أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك جل وجهك لا أحصى ثناءا عليك أنت كما أثنيت على نفسك فلما أصبح ذكرتهن له فقال : يا عائشة تعلمتهن فقلت : نعم فقال تعلميهن وعلميهن فإن جبرل عليه السلام علمنيهن وأمرنى أن أرددهن فى السجود .
والسؤال – لماذا غادر الرسول صلى الله عليه وسلم مكانه بعد أن وضع ثيابه وذهب إلى بقيع الغرقد ؟
ألا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يلتمس الأماكن المباركة التى يستجاب فيها الدعاء وأن مدافن الصالحين يتبارك بها والحديث الآخر الذى يؤكد هذا القول الحديث الذى صححه البصيرى فى إتحاف الخيرة عن ابن عباس رضى الله عنهما " أن النبى صلى الله عليه وسلم لما وجه محمد بن مسلمة وأصحابه إلى ابن الأشرف ليقتلوه مشى معهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم ثم قال : انطلقوا على اسم الله اللهم أعنهم ثم رجع ؟ لماذا للمرة الألف ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نفس المكان للدعاء لأصحابه بأن يعينهم على عدوهم وأقوى الأدلة التى لا يجحدها إلا مكابر قبر الرسول الأعظم عليه وآله أزكى صلاة وأطيب تسليم وصاحبيه رضى الله عنهم لم نسمع على مدة القرون التى مضت من ينكر على المسلمين الصلاة فى مسجد تبارك بأجسادهم الطاهرة الشريفة إلا هذه الفئة التى ابتلى المسلمون بها وفى الحديث الذى صححه أحمد شاكر فى مسند الإمام أحمد عن الصحابى الجليل طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذ أشرفنا على حرة واقم قال : فدنونا منها فإذا قبور بمحنية قلنا : يا رسول الله قبور إخواننا هذه قال : قبور أصحبنا ثم خرجنا حتى إذا جئنا قبور الشهداء قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه قبور إخواننا "
الواضح من الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرد لزيارة قبور الشهداء ومن هذه الأدلة كان استحسان إقامة القباب على أضرحة الصالحين ليتبارك بهم المكان ويصبح من الأمكنة التى يستجاب فيها الدعاء الذى لا يتوجه به المسلم لغير الله تعالى . وقد رأينا أئمة وفقهاء مشهود لهم بالعلم والورع والتقوى يزورون مقامات الأولياء تبركا وهم من كبار العلماء قضاة ومفتيين وكبار مشايخ الأزهر والقرويين والزيتونة وغيرها فى بلاد شنقيط والمغرب والجزائر والشام والعراق والهند والسنغال والسودان واليمن وغيرها وجلهم من العلماء الجهابذة العاملين الزهاد فهل يعود الطغاة إلى رشدهم ويبتعدوا عن معاندة أولياء الله دون حجة أو سبب

ونحن نطلب من كل معتقد فى بركة تلك الأماكن أن يتوجه إلى الله الذى لا منجى ولا ملجأ إلا إليه أن يرفع أكف الضراعة متوسلا إلى الله بحبيبه صاحب الوسيلة والشفاعة أن يرشدنا إلى سبيل الحق ويرزقنا اتباعه ويبين لنا الباطل ويقدرنا على اجتنابه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فتوى دار الإفتاء المصرية بخصوص هذا الشأن

الرقم المسلسل 2239 التاريخ 1 / 1 / 2012

السؤال – مسجد يوجد بجواره ضريح زيقع الضريح فى جهة عكس القبلة وتوجد مساحة مقترحة ضعف مساحة المسجد الحالية مما لا يستوجب إزالة الضريح وهذا الضريح موجود فى أقدم الخرائط ضمن معالم الجهة وعدد قليل جدا من أهل البلدة يريد إزالة الضريح حتى تكون الصلاة فى السجد صحيحة وعدد كبير جدا من أهل القرية يريد تجنب هدم الضريح وتجديد المسجد التابع للأوقاف وترك الضريح كما هو ؟ فما رأى الدين وما الحكم بين الرأيين ؟ مع العلم أن الضريح مسجل بالجهات المعنية .

الجواب – أمانة الفتوى بدار الإفتاء المصرية

من المقرر شرعا أن مكان القبر إما أن يكون مملوكا لصاحبه قبل موته أو موقوفا عليه بعده وشرط الواقف كنص الشارع فلا يجوز أن يتخذ هذا المكان لأى غرض آخر وقد حرم الإسلام انتهاك حرمة الأموات فلا يجوز التعرض لقبورهم بالنبش لأن حرمة المسلم ميتا كحرمته حيا فإذا كان صاحب القبر من أولياء الله تعالى الصالحين فإن الإعتداء عليه بنبش قبره أو إزالته تكون أشد حرمة وأعظم جرما فإن إكرام أولياء الله تعالى ومعرفة حقهم أحياء وأمواتا من أقرب القربات وأرجى الطاعات قبولا عند رب البريات وقبورهم روضات من رياض الجنة ويجب على المسلمين أن يأخذوا على يد من تسول له نفسه انتهاك حرمة الأموات وبخاصة أولياء الله الصالحين من أهل البيت وغيرهم فإنهم موضع نظر الله تعالى ومن نالهم بسوء أو أذى فقد تعرض لحرب الله عزوجل كما جاء فى الحديث القدسى من عادى لى وليا غفقد آذنته بالحرب رواه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه

وبناء على ذلك فإن إزالة الأضرحة من المساجد أو نقل رفاتها إلى أماكن أخرى تحت أى دعوى حتى لو كانت توسعة المسجد وتجديده هو أمر محرم شرعا لما فيه من الإعتداء السافر على حرمة الأموات وسوء الأدب مع أولياء الله الصالحين وهم الذين توعد الله من آذاهم بأنه قد آذنهم بالحرب وقد أمرنا بتوقيرهم وإجلالهم أحياء وأمواتا ولا يجوز التوصل إلى فعل الخير بالباطل ومن أراد توسعة مسجد أو تجديده يجب عليه شرعا أن يتقى الضريح الذى فيه مكانه حتى لو أصبح وسط المسجد أو

يترك المسجد كما هو حتى يقيض الله تعالى له من يتولى توسعته من عباده المخلصين الذين يعرفون لأوليائه قدرهم وحرمتهم وينأون بأنفسهم عن التعدى على أضرحة الصالحين لتتحقق إقامة المساجد على تقوى من الله تعالى ورضوان .
ودار الإفتاء المصرية تهيب بعموم المسلمين إلى التصدى لهذه الدعوات الهدامة التى ما تفتأ ترفع عقيرتها بين الفينة والأخرى زاعمة أن قبور الصالحين التى بنى المسلمون المساجد عليها شرقا وغربا سلفا وخلفا يدءا بنبيها صلى الله عليه وسلم فى روضته الشريفة بالمدينة المنورة ومرورا بالصحابة وآل البيت الكرام كسيدنا أبى بصير فى جدة البحر والإمام الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة بأرض مصر والأئمة المتبوعين كالشافعى والليث بن سعد بمصر وأبى حنيفة وأحمد ببغداد وأبى الحسن الشاذلى بمصر وعلماء الأمة ومحدثيها كالإمام البخارى فى بخارى وابن هشام الأنصارى والعينى والقسطلانى وسيدى أحمد الدردير فى مصر وغيرهم ممن يضيق المقام عن حصرهم هى من شعائر الشرك وأعمال المشركين وأن المسلمين إذ فعلوا ذلك فقد صاروا مشركين بربهم سبحانه ويجعلون التوسل بالأنبياء والصالحين وتعظيم أماكنهم وزيارة أضرحتهم من ضروب الوثنية والشرك غير عابئين بتراث الأمة ومجدها وحضارتها فلا يعود المسلم يحس بمجد تاريخى ولا علمى ولا ثقافى ينتسب إليه ولا يعود يرى سلفه إلا شذاذ آفاق مضللين يعبدون غير الله ويشركون به من غير أن يشعروا فينهار المسلم أمام نفسه ويصغر فى عين ذاته وذلك كله جريا منهم وراء فهم سقيم لبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى وردت فى المشركين الذين يعبدون غير الله لا فى المسلمين الموحدين الذين يحبون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وأولياء الله الصالحين ويكرمونهم أحياء وأمواتا وهذه كلها دعاوى الخوارج يعمدون إلى الآيات التى نزلت فى المشركين فيجعلونها فى المسلمين كما رواه الإمام البخارى فى صحيحه
عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى وصف الخوارج تعليقا ووصله الطبرى فى تهذيب الآثار بسند صحيح فعلى المسلمين أن يأخذوا على تلك الأيدى الآثمة التى لا تريد أن تعرف لقبور الصالحين حرمة ولا أن ترقب فى أولياء الأمة إلا ولا ذمة . أما عن حكم الصلاة فى المساجد التى يوجد بها أضرحة الأولياء والصالحين ؟ فهى صحيحة ومشروعة بل إنها تصل إلى درجة الإستحباب وذلك بالكتاب والسنة وفعل الصحابة وإجماع الأمة الفعلى . فمن القرآن الكريم قوله : تعالى (فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا)

الكهف 21

وسياق الآية يدل على أن القول الأول هو قول المشركين وأن القول الثانى هو قول الموحدين وقد حكى الله تعالى القولين دون إنكار فدل ذلك على إمضاء الشريعة لهما بل إن سياق قول الموحدين يفيد المدح بدليل المقابلة بينه وبين قول المشركين المحفوف بالتشكيك بينما جاء قول الموحدين قاطعا وأن مرادهم ليس مجرد البناء بل المطلوب إنما هو المسجد . قال : الإمام الرازى فى تفسيره (لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ

مَسْــــــــــــــــــــــــــــــــجِدًا) .

الكهف 21

نعبد الله تعالى فيه ونستبقى آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد

وقال : الشهاب الخفاجى فى حاشيته على تفسير البيضاوى فى هذه الآية دليل على اتخاذ المساجد على قبور الصالحين

ومن السنة : حديث أبى بصير رضى الله عنه الذى رواه عبد الرزاق عن معمر وابن إسحاق فى السيرة وموسى بن عقبة فى مغازيه وهى أصح المغازى كما يقول : الإمام مالك ثلاثتهم عن الزهرى عن عروة بن الزبير رضى الله عنه عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن أبا جندل بن سهيل بن عمرو رضى الله عنهما دفن أبا بصير لما مات وبنى على قبره مسجدا بسيف البحر وذلك بمحضر ثلاثمائة من الصحابة . وهذا إسناد صحيح

ومثل هذا الفعل لا يخفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فلم يرد أنه صلى الله عليه وسلم أمر بإخراج القبر من المسجد أو نبشه . كما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " فى مسجد الخيف قبر سبعين نبيا "

أخرده البزار والطبرانى فى المعجم الكبير

وقال : الحافظ ابن حجر فى مختصر زوائد البزار هو إسناد صحيح

وقد ثبت فى الآثار أن سيدنا إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر رضى الله عنهما قد دفنا فى الحجر عند البيت الحرام وهذا الذى ذكره ثقات المؤرخين واعتمده علماء السير كابن إسحاق فى السيرة وابن جرير الطبرى فى تاريخه والسهيلى فى الروض الأنف وابن الجوزى فى المنتظم وابن الأثير فى الكامل والذهبى فى تاريخ الإسلام وابن كثير فى البداية والنهاية وغيرهم من مؤرخى الإسلام وأقر النبى صلى الله عليه وسلم ولم يأمر بنبش هذه القبور وإخراجها من مسجد الخيف أو من المسجد الحرام .

وأما فعل الصحابة فقد حكاه الإمام مالك فى الموطأ بلاغا صحيحا عندما ذكر اختلاف الصحابة فى مكان دفن النبى صلى الله عليه وسلم فقال : فقال : ناس يدفن عند المنبر وقال : آخرون يدفن بالبقيع فجاء أبو بكر رضى الله عنه فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما دفن نبى قط إلا فى مكانه الذى توفى فيه " فحفر له فيه والمنبر من المسجد قطعا ولم ينكر أحد من الصحابة هذا الإقتراح وإنما عدل عنه أبو بكر تطبيقا لأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يدفن حيث قبضت روحه الشريفة صلى الله عليه وسلم فدفن فى حجرة السيدة عائشة رضى الله عنها المتصلة بالمسجد الذى يصلى فيه المسلمون وهذ هو وضع المساجد المتصلة بحجرات الأولياء والصالحين فى زماننا .

وأما دعوى الخصوصية فى ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فهى غير صحيحة لأنها دعوى لا دليل عليها بل هى باطلة قطعا بدفن سيدنا أبى بكر وسيدنا عمر رضى الله عنهما فى هذه الحجرة التى كانت السيدة عائشة رضى الله عنها تعيش فيها وتصلى فيها صلواتها المفروضة والمندوبة فكان ذلك إجماعا من الصحابة على جوازه

ومن إجماع الأمة الفعلى وإقرار علمائها لذلك صلاة المسلمين سلفا وخلفا فى مسجد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمساجد التى بها أضرحة من غير نكير

وإقرار العلماء من لدن الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة الذين وافقوا على إدخال الحجرة النبوية الشريفة إلى المسجد النبوى سنة ثمان وثمانين للهجرة وذلك بأمر الوليد بن عبد الملك لعامله على المدينة حينئذ عمر بن عبد العزيز رحمه الله ولم يعترض منهم إلا سعيد بن المسيب لا لأنه يرى حرمة الصلاة فى المساجد التى بها قبور بل لأنه كان يريد أن تبقى حجرات النبى صلى الله عليه وسلم كما هى يطلع عليها المسلمون حتى يزهدوا فى الدنيا ويعلموا كيف كان يعيش نبيهم صلى الله عليه وسلم .

وأما حديث السيدة عائشة رضى الله عنها فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد "

فالمساجد جمع مسجد والمسجد فى اللغة مصدر ميمى يصلح للدلالة على الزمان والمكان والحدث . ومعنى اتخاذ القبور مساجد السجود لها على وجه نعظيمها وعبادتها كما يسجد المشركون للأصنام والأوثان كما فسرته الرواية الصحيحة الأخرى للحديث عند ابن سعد فى الطبقات الكبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا بلفظ " اللهم لا تجعل قبرى وثنا لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد "

فجملة لعن الله قوما بيان لمعنى جعل القبر وثنا والمعنى اللهم لا تجعل قبرى وثنا يسجد له ويعبد كما سجد قوم لقبور أنبيائهم .

قال : الإمام البيضاوى لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور أنبيائهم تعظيما لشأنهم ويجعلونها قبلة ويتوجهون فى الصلاة نحوها واتخذوها أوثانا لعنهم الله ومنع المسلمين عن مثل ذلك ونهاهم عنه .

أما من اتخذ مسجدا بجوار صالح أو صلى فى مقبرته وقصد به الإستظهار بروحه ووصول أثر من آثار عبادته إليه لا التعظيم له والتوجه فلا حرج عليه ألا ترى أن مدفن إسماعيل عليه السلام فى المسجد الحرام ثم الحطيم ثن إن ذلك المسجد أفضل مكان يتحرى المصلى بصلاته والنهى عن الصلاة فى المقابر مختص بالمنبوشة لما فيها من النجاسة

وبناء على ذلك فإن الصلاة فى المساجد التى بها أضرحة الأولياء والصالحين جائزة شرعا ومشروعة بل ومستحبة أيضا والقول بتحريمها أو بطلانها قول باطل لا يلتفت إليه ولا يعول عليه والله سبحانه وتعالى أعلم .

الباب التاسع

وجوب حب النبى وآل بيته صلى الله عليه وسلم

ورد فى السنة النبوية الشريفة وعلى ألسنة العلماء

قال : عمر بن الخطاب رضى الله عنه للحسين السبط رضى الله عنه هل أنبت الشعرلى الرأس غيركم .

وفى لفظ الدارقطنى : هل أنبت على رؤوسنا الشعر إلا أنتم

وقوله : فى حديث بن سعد – هل أنبت على رؤووسنا الشعر إلا أنتم

وفى لفظ إنما أنبت الشعر فى رؤوسنا ماترى الله ثم أنتم

وروى البخارى ومسلم قال : صلى الله عليه وسلم " حسين منى وأنا من حسين أحب الله من أحب حسينا "

وروى الإما أحمد فى مسنده قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنى أوشك أن أدعى فأجيب وإنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من الأرض إلى السماء وعترتى آل بيتى إن اللطيف الخبير أخبرنى أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض يوم القيامة فانظروا بما تخلفونى فيهما "

وروى الهيثمى بإسناد جيد قال : صلى الله عليه وسلم " اللهم عاد من عاداهم ووال من ولاهم "

وروى الطبرانى برجال الصحيح قال : صلى الله عليه وسلم " ينقطع يوم القيامة كل سبب ونسب إلا سببى ونسبى "

وروى الإمام أحمد قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " هم صلب الناس إذا هلكوا هلك الناس " يقصد آل البيت

وروى الإمام أحمد قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما بال رجال يقولون أن رحم رسول الله لا تنفع يوم القيامة بلى والله إن رحمى لموصولة فى الدنيا والآخرة "

وروى الحاكم على شرط الشيخين

قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يبغض أهل البيت أحدا إلا أدخله الله النار "

وروى الترمذى قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حق سيدنا الحسن والحسين " من أحبنى وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معى فى درجتى يوم القيامة "
وأخرج البزار قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " مثل أهل بيتى مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق "
وأخرج البزار قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبونى لحب الله وأحبوا أهل بيتى لحبى "
وأخرج الطبرانى قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما بال أقوام يؤذوننى فى نسبى وذوى رحمى ألا من أذى نسبى ورحمى فقد آذانى ومن آذانى فقد أذى الله "
وأخرج ابن حبان قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما بال رجال يؤذوننى فى أهل بيتى والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد حتى يحبنى ولا يحبنى حتى يحب ذريتى "
وروى أحمد فى مسنده قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " كل ولد أب فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإنى أنا أبوهم "
وأخرج الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : آخر ما تكلم ره رسول الله صلى الله عليه وسلم " اخلفونى فى أهل بيتى "
وأخرج الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو أن رجلا صفن بين الركن والمقام وصلى وصام ثم مات وهو مبغض لآل بيت محمد دخل النار "
وأخرج الطبرانى أيضاعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " بغض بنى هاشم والأنصار كفر وبغض العرب نفاق "
وأخرج البخارى قال : أبو بكر رضى الله عنه ارقبوا محمد فى أهل بيته
وأخرج الحاكم قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " والذى نفس محمد بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله "
وأخرج الإمام أحمد فى مسنده قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " من كنت مولاه فعلى مولاه "
وفى متن آخر " اللهم والى من والاه وعادى من عاداه "
وأخرج ابن إسحاق برجال أحمد قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " من آذى عليا فقد آذانى "
وأخرج مسلم قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا على رضى الله عنه أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى "
وروى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : يوم خيبر لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله وسوله ثم أعطاها لعلى كرم الله وجهه
وروى مسلم أنه لما نزلت هذه الآية
(فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) **آل عمران 61**
دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا عليهم السلام ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتى "

وأخرج الترمذى قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حق سيدنا الحسن والحسين أنهما سياد شباب أهل الجنة
وروى البخارى قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين "
ومن حديث أنس بن مالك رضى الله عنه
قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما لى آراكم تختلفون فى أصحابى أما علمتم أن حبى وحب آل بيتى وحب أصحابى فرضه الله تعالى على أمتى إلى يوم القيامة "
وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى على بن أبى طالب وقال : له أنت سيد فى الدنيا أنت سيد فى الآخرة من أحبك فقد أحبنى وحبيبى حبيب الله وعدوك عدوى وعدوى عدو الله الويل لمن أبغضك "
وأخرج الترمذى عن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلل عليا والحسين وفاطمة كساء وقال : اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى "
وأخرج الإمام أحمد والترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج لصلاة الفجر يمر بباب فاطمة ويقول : الصلاة يا أهل البيت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجز أهل البيت ويطهركم تطهيرا "
وأخرج مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أذكركم الله فى أهل بيتى "
وأخرج الترمذى والطبرانى والبيهقى أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قسم الخلق قسمين فجعلنى فى خيرهما فذلك قوله : (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ) **الواقعة 27**
فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين ثم جعل القسمين أثلاثا فجعلنى فى خيرهما ثلثا فذلك قوله (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) **الواقعة 8 - 10**
فأنا من السابقين وأنا خير السابقين ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلنى فى خيرها قبيلة وذلك قوله (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) **الحجرات 13**
وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله تعالى ولا فخر ثم جعل القبائل بيوتا فجعلنى فى خيرها بيتا فذلك قوله (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) **الأحزاب 33**
فأنا وأهل بيتى مطهرون من الذنوب "
وأخرج مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال : إن الصدقة لا تحل لآل محمد إنما هى أوساخ الناس "
وروى الطبرانى وابن عساكر أنه صلى الله عليه وسلم " قال : أنا وعلى وفاطمة والحسن والحسين نجتمع ومن أحبنا يوم القيامة نأكل ونشرب حتى يفرق الله بين العباد "

ومن الثابت أن ما ورد فى الآية (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) **الإنسان 7 – 8**
نزلت فى أهل البيت

أهل البيت عليهم السلام أمان أهل الأرض

أخرج الحفاظ مسدد وابن أبى شيبة وأبو أحمد القرضى وأبو عمرو بن عرزة وأبو يعلى الموصلى وأبو القاسم الطبرانى والحكيم الترمذى والمحب الطبرى وابن عساكر وآخرون من طريق سلمة بن الأكوع مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم قوله : " النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتى أمان لأمتى "

قال : العزيزى فى السراج لدى شرحه

أراد بأهل بيته علماءهم ويحتمل الإطلاق لأن الله تعالى لما خلق الدنيا لأجله صلى الله عليه وسلم جعل دوامها بدوام أهل بيته .

وقال : الحنفى وأهل بيتى أى ذريتى فبسبب وجودهم يرفع البلاء عن الأمة

وأخرج إمام الحنابلة أحمد بإسناده من طريق أنس بن مالك مرفوعا " النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتى أمان لأهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتى جاء أهل الأرض من الآيات ما كانوا يوعدون "

فقال : إن الله خلق الأرض من أجل النبى صلى الله عليه وسلم فجعل دوامها بدوام أهل بيته وعترته صلى الله عليه وسلم

وأخرج الإمام أحمد من طريق على كرم الله وجهه مرفوعا " النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتى أمان لأهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتى ذهب أهل الأرض "

وأخرج الحاكم من طريق ابن عباس مرفوعا " النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتى أمان لأمتى من الإختلاف "

وقد صححه الحاكم وذكره جمع آخذين منه وأقروا تصحيحه إياه

وقال : الصبان فى الإسعاف بعد ذكره وقد يشير إلى هذا المهنى قوله : تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) **الأنفال 33**

أقيم أهل بيته مقامه فى الأمان لأنهم منه وهو منهم كما ورد فى بعض الأحاديث وعد الحافظ بن حجر فى الصواعق من الآيات النازلة فى أهل بيته قوله : تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) فقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى وجود ذلك المعنى فى أهل بيته وأنهم أمان لأهل الأرض كما كان هو صلى الله عليه وسلم أمانا لهم . وفى ذلك أحاديث كثيرة

وأخرج الحاكم من طريق أبى موسى الأشعرى مرفوعا " النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتى أمان لأهل الأرض فإذا ذهبت النجوم ذهب أهل السماء وإذا ذهب أهل بيتى ذهب أهل الأرض "

وأخرج الحاكم أيضا بلفظ " النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت آتاها ما يوعدون وأنا أمان لأصحابى ما كنت فإذا ذهبت آتاهم ما يوعدون وأهل بيتى أمان لأمتى فإذا ذهب أهل بيتى آتاهم ما يوعدون "

وأخرج شيخ الإسلام الحموينى من طريق أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه مرفوعا " أهل بيتى أمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء "

وقال : الحافظ بن حجر فى الصواعق لدى حديث السفينة قال : بعضهم يحتمل أن المراد بأهل البيت الذين هم أمان علماؤهم لأنهم الذين يهتدى بهم كالنجوم وكفى قول الحق تبارك وتعالى (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) **الأحزاب 33**

فصل

الصوفية ومحبتهم لله عزوجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم وآل بيته

اعلم – وفقنا الله وإياك أن الصوفية محبون لله تعالى ولرسوله وآله وأصحابه وكما سبق وذكرنا حبهم لله عزوجل فى الحديث عن مقام الحب وقد قال : الله تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) **البقرة 165**

ولقد أوجب الله عزوجل محبته لمن يحبه ويحب رسوله صلى الله عليه وسلم قال : تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) **المائدة 54**

وفى محبة االرسول صلى الله عليه وسلم قال : تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) **آل عمران 31**

فإذا كنا نحب الله عزوجل نحب رسوله وآل بيته وأصحابه ونتبعه فى أوامره ونواهيه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " يحشر المرء مع من أحب "

والحب هو أعلى المقامات التى يبتغيها وحب الله تعالى هو الغاية التى يبتغيها السالك فى الطريق إلى الله وحب النبى صلى الله عليه وسلم هو حب لله تعالى ولذلك كان الصوفية أعظم الناس حبا لله ولرسوله آله وأصحابه وإن الله تعالى أوجب لزوم محبة النبى صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه وجعل لها ثوابا عظيما وإذا كان الله عزوجل يحب المتحابين فيه كما جاء فى الحديث القدسى " وجبت محبتى للمتحابين فى والمتزاورين فى " فكيف يكون ثواب محبة النبى صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه . ونذكر هنا طرفا من حديث القاضى عياض فى كتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم عن المحبة وحقيقتها

قال : القاضى عياض رحمه الله

اختلف الناس فى تفسير المحبة لله عزوجل ومجحبى النبى صلى الله عليه وسلم وكثرت عباراتهم فى ذلك وليست ترجع فى الحقيقة إلى إختلاف مقال ولكنها إختلاف أحوال فقال : سفيان المحبة اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقال : بعضهم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم إعتقاد نصرته والذب عن سنته والإنقياد لها وهيبة مخالفتها وقال : آخرون المحبة دوام الذكر للمحبوب وقال :

آخرون إيثار المحبوب وقال : آخرون المحبة هى الشوق للمحبوب وقال : آخرون المحبة مواطأة القلب لمراد الرب ما أحب ويكره ما يكره وقال : آخرون المحبة ميل القلب إلى ما وافق له وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات المحبة دون حقيتها فحقيقة المحبة الميل إلى ما يولفق الإنسان وتكون موافقة له إما لإستلذاذه بإدراكه لحب الصورة الجميلة والأصوات الحسنة وأشباههما مما له طبع سليم مائل إليها لموافقتها له أو لإستلذاذه بإدراكه بحاسة عقله وقلبه معانى باطنة شريفة كحب الصالحين والعلماء وأهل المعروف والمأثور عنهم السير الجميلة والأفعال الحسنة فإن الطبع مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء حتى يبلغ التعصب يقوم لقوم والتشيع فى آخرين مما يؤدى إلى الجلاء عن الأوطان أو يكون حبه له لموافقته من جهة إحسانه له وإنعامه عليه فقد جلبت النفوس على حب من أحسن إليها .

فإذا تقرر هذا نظرت فى هذه الأسباب كلها فى حقه صلى الله عليه وسلم فتعلم أنه جامع لهذه المعانى الموجبة للمحبة أولا أما جمال الصورة والظاهر كمال الأخلاق والباطن فقد إكتملت له صلى الله عليه وسلم . ثانيا أما إحسانه وإنعامه على أمته فقد وصفه الله تعالى برأفته بهم ورحمته لهم وهدايتهم إياهم وشفقته عليهم واستنقاذهم من النار وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم ورحمة للعالمين ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ويتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم . فأى إحسان أجل قدرا وأعظم من إحسانه صلى الله عليه وسلم إلى جميع المؤمنين وأى إفضال أعم منفعة وأكثر فائدة من إنعامه على كافة المسلمين إذ كان ذريعتهم إلى الهداية ومنقذهم من العمى وداعيهم إلى الفلاح والكرامة ووسيلتهم إلى ربهم وشفيعهم والمتكلم عنهم والشاهد لهم والموجب لهم البقاء الدائم والنعيم السرمد فقد استبان أنه صلى الله عليه وسلم مستوجب للمحبة الحقيقية شرعا . فإذا كان الإنسان يحب من منحه دنياه مرة أو مرتين معروفا أو استنقذه من هلكة أو مضرة مدة التأذى بها قليل منقطع فمن منحه ما لا يغنى من عذاب الجحيم أولى بالحب وإذا كان يحب ملك بالطبع لحسن سيرته أو حاكم لما يؤثر من قوام طريقته أو قاضى بعيد الدار لما يشاء من علمه أو كرمه أو شيمته . فمن جمع هذه الخصال على غاية مرتب الكمال أحق بالحب وأولى بالميل . وقد قال : على رضى الله عنه فى صفته صلى الله عليه وسلم من رآه بديهة هابه ومن خالطه معروفا أحبه .

الله عزوجل أوجب لزوم محبة النبى
صلى الله عليه وسلم

قال : تعالى

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) **التوبة 24**

فكفى بها حضا وتنبيها ودلالة وحجة على إلزام محبته ووجوب فرضها واستحقاقها له صلى الله عليه وسلم إذ قرع الله تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله

تعالى ورسوله وجهادا فى سبيله وأوعدهم بقوله : تعالى (فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهديه الله .

عن أنس رضى الله عنه

" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين "

وعنه أيضا رضى الله عنه

قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار "

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه

أنه قال : للنبى صلى الله عليه وسلم لأنت أحب إلى من كل شىء إلا نفسى التى بين جنبى فقال : له النبى صلى الله عليه وسلم لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه فقال : عمر والذى أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلى من نفسى التى بين جنبى فقال : له النبى صلى الله عليه وسلم الآن يا عمر "

قال : سهل بن عبد الله من لم يرى ولاية الرسول عليه فى جميع الأحوال ويرى نفسه فى ملكه صلى الله عليه وسلم لا يذق حلاوة سنته لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه "

ثواب محبة النبى صلى الله عليه وسلم

عن أنس رضى الله عنه

أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : متى الساعة يا رسول الله قال : ما أعددت لها قال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ولكن أحب الله ورسوله قال : أنت مع من أحببت "

وعن صفوان بن قدامة رضى الله عنه قال : هاجرت إلى النبى صلى الله عليه وسلم " فأتيته فقلت : يا رسول الله ناولنى يدك أبايعك فناولنى يده فقلت : يا رسول الله إنى أحبك قال : المرء مع من أحب "

وعن على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ بيد الحسن والحسين فقال : من أحبنى وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معى فى درجتى فى الجنة "

وروى – أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله لأنت أحب إلى من أهلى ومالى وإنى أذكرك فما أصبر حتى أجىء فأنظر إليك وإنى ذكرت موتى وموتك فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإنى إن دخلتها لا آراك فأنزل الله تعالى (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) **النساء 69**

فدعا به صلى الله عليه سلم فقرأها عليه "

وفى حديث آخر كان رجلا عند النبى صلى الله عليه وسلم ينظر إليه لا يطرف فقال : له النبى ما **بالك** قال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله أتمتع بالنظر إليك فإذا كان يوم القيامة رفعك الله بتفضيله لك فأنزل الله هذه الآية

وفى حديث آخر عن أنس رضى الله عنه
أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :" من أحبنى كان معى فى الجنة"
رواه الترمذى والطبرانى

علامة محبة النبى صلى الله عليه وسلم

اعلم - أن من أحب شيئا آثره وآثر موافقته فالصادق فى حب النبى صلى الله عليه وسلم من تظهر عليه هذه العلامات : -

أولها – الإقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم واستعمال سنته واتباع أقواله وأفعاله وإمتثال أوامره وإجتناب نواهيه والتأدب بآدابه فى عسره ويسره ومنشطه ومكرهه وشاهد هذا قوله : تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) **آل عمران 31**

ثانيا – إيثار ما شرعه وحض عليه على هوى نفسه . قال : تعالى (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)
الحشر 9

الثالث – عن سعيد بن المسيب قال : أنس بن مالك رضى الله عنه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم يابنى إن تصبح وتمسى ليس فى قلبك غش لأحد فافعل ثم قال : يا بنى ذلك من سنتى ومن أحيا سنتى فقد أحبنى ومن أحبنى كان معى فى الجنة فمن اتصف بهذه الأمور فهو كامل المحبة لله ولرسوله ومن خالفها فى بعض الأمور فهو ناقص المحبة ولا يخرج عن اسمها ودليله قوله : صلى الله عليه وسلم للذى حده فى الخمر فلعنه بعضهم وقال : ما أكثر ما يؤتى به فقال : النبى صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله

رابعا – كثرة ذكره له فمن أحب شيئا ذكره

خامسا – كثرة شوقه إلى لقائه فكل حبيب يحب لقاء حبيبه وفة حديث الأشعريين عند قدومهم المدينة أنهم كانوا يرتجزون
غدا نلقى الأحبة محمد وصحبه

سادسا – مع كثرة ذكره وتعظيمه وتوقيره الخشوع والإنكسار مع سماع اسمه

قال : إسحاق التجيبى كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بعده لا يذكرونه إلا خشوعا واقشعرت جلودهم وبكوا وكذلك كثرة التابعين منهم من يفعل ذلك محبة له وشوقا إليه ومنهم من يفعله تهيبا وتوقيرا

سابعا – محبته لمن أحب النبى صلى الله عليه وسلم ومن هو بسببه من آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار وعداوة من عاداهم وبغض من أبغضهم .
وقد قال : صلى الله عليه وسلم فى الحسن والحسين "اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما "

وفى رواية – "إنى أحبهم فأحب من يحبهم ومن أحبنى فقد أحب الله ومن أبغضهما فقد أبغضنى ومن أبغضنى فقد أبغض الله "

وقال : صلى الله عليه وسلم الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا بعدى فمن أحبهم فبحبى أحبهم ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ومن آذاهم فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه "

وقال : صلى الله عليه وسلم فى فاطمة رضى الله تعالى عنها

" إنها بضعة منى يغضبنى من أغضبها "

وقال : صلى الله عليه وسلم فى عائشة رضى الله تعالى عنها

" لا تؤذونى فى عائشة "

وقال : صلى الله عليه وسلم فى الأنصار " آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغضهم "

وقال : صلى الله عليه وسلم فى العرب من حديث ابن عمر " من أحب العرب فبحبى أحبهم ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم "

فالحقيقة من أحب شيئا أحب كل شىء يحبه وهذخ سيرة السلف حتى فى المباحات قال : أنس حين رأى النبى صلى الله عليه وسلم يتتبع الدباء من القصعة فما زلت أحب الدباء من يومئذ وهذا الحسن بن على وعبد الله بن عباس وابن جعفر رضى الله عنهم أتوا سلمى وسئلوها أن تصنع لهم طعاما كان يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ابن عمر يلبس النعال السبتية ويصبغ بالصفرة إذ رأى النبى صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك

ثامنا – بغض ما أبغض الله ورسوله ومعاداة من عاداه ومجانبة من خالف السنة وابتدع فى دينه أمرا يخالف شريعته قال : تعالى (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) **المجادلة 22**

وهؤلاء أصحابه قد قتلوا أبنائهم وآبائهم فى مرضاة الله تعالى ورسوله قال : عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول لوشئت أتيتك برأسه يعنى أباه

تاسعا – أن يحب القرآن الذى أتى صلى الله عليه وسلم وهدى به واهتدى وتخلق به حتى قالت : عائشة رضى الله عنها كان خلقه القرآن وحبه للقرآن تلاوته والعمل به وتفهمه ويحب سنته ويقف عند حدودها .

قال : سهل بن عبد الله علامة حب الله تعالى حب القرآن وعلامة حب القرآن حب النبى صلى الله عليه وسلم وعلامة حب النبى صلى الله عليه وسلم حب السنة وحب الآخرة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا أن لا يدخر منها إلا زادا إلى الآخرة .

قال : ابن مسعود لا يسئل أحد عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ورسوله .

العاشر – شفقته على أمته ونصحهم وسعيه فى مصالحهم ورفع المضار عنهم كما كان صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رءوفا رحيما .
الحادى عشر – زهده فى الدنيا وإيثاره الفقر

وجوب طاعة النبى صلى الله عليه وسلم

فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به وجبت طاعته قال : تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ) **الأنفال 20**

وقال : تعالى
(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) آل **عمران 32**

وقال : تعالى (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) آل **عمران 132**

وقال : تعالى (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) **النور 54**

وقال : تعالى (وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) **الحشر 7**

وقال : تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) **النساء 64**

وقال : تعالى (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) **النساء 80**

وقال : تعالى (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) **النساء 69**

فجعل الله عزوجل طاعته طاعة رسوله وقرن طاعته بطاعته ووعد على ذلك بجزيل الثواب وأوعد على مخالفته بسوء العقاب وأوجب إمتثال أمره وإجتناب نهيه

ذكر أقوال المفسرون والأئمة فى هذا الأمر

قالوا : طاعة الرسول فى إلتزام سنته والتسليم لما جاء به وقالوا ما ما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليهم . وقالوا : من يطع الرسول فى سنته يطع الله فى فرائضه

وسئل سهل بن عبد الله عن شرائع الإسلام فقال : (وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) **الحشر 7**

وقال : السمرقندى يقال أطيعوا الله تعالى فى فرائضه والرسول صلى الله عليه وسلم فيما بلغكم

وقيل : أطيعوا الله تعلى فيما حرم عليكم والرسول صلى الله عليه وسلم فيما بلغكم وأطيعوا الله تعالى باشهاجة له بالربوبية والنبى صلى الله عليه وسلم بالشهادة له بالنبوة

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن أطاع أمرى فقد أطاعنى ومن عصى أمرى فقد عصانى "

وقد حكى الله تعالى عن الكافرين فى دركات جهنم قولهم قال : تعالى (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا) **الأحزاب 66**

فتمنوا طاعته حيث لا ينفعهم التمنى وقال : صلى الله عليه وسلم " إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم "

وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : صلى الله عليه وسلم كل أمتى يدخل الجنة إلا من أبى قالوا ومن يأبى قال : من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى "

وفى حديث آخر قال : صلى الله عليه وسلم " مثلى ومثل ما بعثى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق "

وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم وإمتثال أمره والإقتداء بهديه

قال : تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) **آل عمران 31**

وقال : تعالى (فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) **الأعراف 158**

وقال : تعالى (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) **النساء 65**

أى ينقادوا لحكمك

وقال : تعالى (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) **الأحزاب 21**

قال : الترمذى الأسوة الحسنة فى الرسول صلى اللله عليه وسلم الإقتداء به والإتباع لسنته وترك مخالفته من قول أو فعل

قال : سهل بن عبد الله فى قوله : تعالى (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) **الفاتحة 7**

قال : بمتابعة السنة فأمرهم الله تعالى بذلك ووعدهم الإهتداء بإتباعه لأن الله تعالى أرسله بالهدى ودين الحق ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم ووعدهم محبته سبحانه وتعالى فى الآية الأخرى ومغفرته إذا إتبعوه وآثروه على أهوائهم وما تجنح إليه نفوسهم وأن صحة إيمانهم بإنقيادهم ورضاهمبحكمه وترك الإعتراض عليه

وقال : صلى الله عليه وسلم " من اقتدى بى فهو منى ومن رغب عن سنتى فليس منى "

وقال : صلى الله عليه وسلم " إن الله يدخل العبد الجنة بالسنة تمسك بها "

وعن أنس رضى الله عنه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أحيا سنتى فقد أحيانى ومن أحيانى كان معى فى الجنة "

وعن أبى هريرة رضى الله عنه

قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " المتمسك بسنتى عند فساد أمتله أجر مائة شهيد "

وقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن بنى إسرائيل افترقوا على إثنتين وسبعين فرقة وإن أمتى تفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة قالوا وما هى يا رسول الله قال : ما الذى عليه أنا اليوم وأصحابى "

وعن الحسن بن أبى الحسن قال : عمل قليل فى سنة خير من عمل كثير فى بدعة .

فصل

ما ورد عن السلف والأئمة من إتباع سنته والإقتداء بهديه وسيرته صلى الله عليه وسلم

قال : عمر بن عبد العزيز رحمه الله سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سننا الأخذ بها تصديق بكتاب الله تعالى وإستعمال لطاعة الله تعالى وقوة على دين الله تعالى ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر فى رأى من خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا

وقال : ابن شهاب بلغنا أن رجلا من أهل العلم قال الإعتصام بالسنة نجاة

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عماله بتعليم الناس السنة والفرائض واللحن أى اللغة

وقال : على رضى الله عنه حين قرن فى الحج فقال : له عثمان بن عفان ترى أنى أنهى الناس عنه وتفعله قال : لم أكن أدع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول أحد من الناس

وعنه رضى الله عنه ألا إنى لست بنبى ولا يوحى إلى ولكنى أعمل بكتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ما استطعت

وقال : ابن عمر صلاة السفر ركعتن من خالف السنة فقد كفر

وقال : أبى بن كعب عليكم بالسبيل والسنة فإه ما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله تعالى فى نفسه فاقشعر جلده من خشية الله تعالى إلا كان مثل شجرة قد يبس ورقها فهى كذلك إذا أصابتها ريح شديدة فتحات عنها ورقها إلا حط عنه خطاياه كما تحات عن الشجرة ورقها

وقال : أيضا رضى الله عنه إن إقتصاد فى سبيل وسنة خير من اجتهاد فى خلاف سبيل وسنة وموافقة بدعة انظروا أن يكون عملكم إن كان فى اجتهاد أو إقتصاد أن يكون على منهج الأنبياء وسننهم

وعن عطاء فى قوله : تعالى (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) **النساء 59**

أى إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

وقال : الإمام الشافعى ليس فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا اتباعها

وقال : أبو عثمان الخيرى من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة

وقال : سهل التسترى أصول مذهبنا ثلاثة الإقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى الأقوال والأفعال والأكل من الحلال وإخلاص النية فى جميع الأعمال

وجاء فى التفسير فى قوله : تعالى

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) **فاطر 10**

إنه الإقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم

حب الصحابة للنبى صلى الله عليه وسلم

عن أبى هريرة رضى الله عنه

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أشد أمتى حبا لى ناس يكونون من بعدى يود أحدهم لو رآنى بأهله وماله "

وعن أبى ذر مثله

وعمرو بن العاص رضى الله عنها ما كان أحد أحب إلى من رسول الله صلى الله عليه وسلم

وعن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : للنبى صلى الله عليه وسلم والذى بعثك بالحق لإسلام أبى طالب أقر لعينى من إسلامه . يعنى أباه

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : للعباس أن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب

وعن أبى إسحاق أن إمرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ما فعل رسول الله قالوا : بخير هو بحمد الله كما تحبين قالت : أنظر إليه فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل

وسئل على رضى الله عنه كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ

ولما احتضر بلال رضى الله عنه نادته إمرأته واحزناه فقال : واطرباه غدا ألقى الأحبة محمد وحزبه ولما خرج أهل مكة بزيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه قال : له أبو سفيان بن حرب أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك وإنك فى أهلك فقال : زيد والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه تصيبه شوكة وإنى جالس فى أهلى فقال : أبو سفيان ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمدا محمدا

ووقف عبد الله بن عمر رضى الله عنهما على ابن الزبير بعد قتله فاستغفر الله وقال : كنت والله ما علمت صواما قواما تحب الله ورسوله

وجوب مناصحة النبى صلى الله عليه وسلم

قال : أهل التفسير إذا نصحوا لله ورسوله إذ كانوا مخلصين فى السر والعلانية

عن تميم الدارى رضى الله عنه

قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولرسوله ولكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم "

قال : الأئمة ــ النصيحة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وأئمة المسلمين وعامتهم واجبة

قال : الإمام أبو سليمان البستى النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة إرادة الخير للمنصوح ومعناها فى اللغة الإخلاص من قولهم نصحت العسل إذ خلصته من الشوائب

قال : أبو بكر بن إسحاق الخفاف النصح فعل الشىء الذى به الصلاح فنصيحة الله تعالى صحة الإعتقاد بالوحدانية ووصفه بما هو أهله وتنزيهه عما لا يجوزعليه

والرغبة فى محابه والبعد عن مساخطه والإخلاص فى عبادته والنصيحة لكتابه الإيمان به والعمل بما فيه وحسن تلاوته والتخشع عنده والتعظيم له وتفهمه والتفقه فيه والذب عنه من تأويل الغالين وطعن الملحدين والنصيحة لرسوله صلى الله عليه وسلم التصديق بنبوته وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه

قال : أبو سليمان وأبو بكر ومؤازرته صلى الله عليه وسلم ونصرته وحمايته حيا وميتا وإحياء سنته بالطلب والذب عنها ونشرها والتخلق بأخلاقه الكريمة وآدابه الجميلة

قال : أبو إبراهيم إسحاق التجيبى نصيحة رسول الله صلى الله عليه وسلم التصديق بما جاء به والإعتصام بسنته ونشرها والحض عليها والدعوة إلى الله تعالى وإلى كتابه وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم وإلى العمل بها

وقال : أحمد بن محمد من مفروضات القلوب إعتقاد النصيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم

وقال : أبو بكر الآجرى النصح لله تعالى نصحين نصحا له فى حياته ونصحا له بعد وفاته ففى حياته نصح له أصحابه صلى الله عليه وسلم بالنصر والمحاماة عنه ومعاداة من عاداه والسمع والطاعة له وبذل النفوس والأموال دونه كما قال : تعالى (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) **الأحزاب 23**

أما نصيحة المسلمين له بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فإلتزام التوقير له والإجلال له وشدة المحبة له والمثابرة على تعلم سنته والتفقه فى شريعته ومحبة آل بيته وأصحابه ومجانبة من رغب عن سنته وانحرف عنها وبغضه والتحذير منه والشفقة على أمته والبحث عن تعرف أخلاقه وسيرته وآدابه والصبر على ذلك . فعلى ذلك وما ذكر **تكون النصيحة إحدى ثمرات المحبة وعلامة من علاماتها**

أما النصح لأئمة المسلمين فطاعتهم على الحق ومعونتهم فيه وأمرهم به وتذكيرهم إياه على أحسن وجه وتنبيههم عن ما غفلوا عنه وترك الخروج عليهم وتضريب الناس وإفساد قلوبهم عليهم . وأما النصح لعامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم ومعونتهم فى أمر دينهم ودنياهم بالقول والفعل وتنبيه غافلهم وتبصير جاهلهم ورفد محتاجهم وستر عوراتهم ودفع المضار عنهم وجلب النفع لهم

وجوب تعظيم أمره وتوقيره وبره

صلى الله عليه سلم

قال : تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) **الفتح 8 -9**

وقال : تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) **الحجرات 2**

وقال : تعالى (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) **النور 63**
فأوجب الله تعالى تعزيره وتوقيره وإلزام إكرامه وتعظيمه صلى الله عليه وسلم
قال : ابن عباس تعزروه تجلوه
وقال : المبرد تعزروه تبالغوا فى تعظيمه
ونهى الله تعالى عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب قال : سهل بن عبد الله نهوا عن التقدم بين يديه والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه أو يفتاتوا بشىء من ذلك من قتال أو غير ذلك من أمر دينهم إلا بأمره ولا يسبقونه به ثم وعظهم وحذرهم مخالفة ذلك
قال : تعالى (فى الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) **الحجرات 1**
قال : الماوردى اتقوه يعنى التقدم
وقال : السلمى اتقوا الله فى إعمال حقه ونضييع حرمته إنه سميع لقولكم عليم بفعلكم ثم نهى عن رفع الصوت فوق صوته . وقيل كما ينادى بعضكم بعضا باسمه
قال : أبو محمد المكى أى لا تسابقوه بالكلام وتغلظوا له بالخطاب ولا تنادوه باسمه طنداء يعضكم لبعض ولكن عظموه ووقروه ونادوه بأشرف ما يحب أن ينادى به يا رسول الله يا نبى الله
وقال : غيره لا تخاطبوه إلا مستفهمين ثن خوفهم الله تعالى بحبط أعمالهم إن هم فعلوا غير ذلك وحذرهم منه

عادة الصحابة رضى الله عنهم فى تعظيمه صلى الله عليه وسلم وتوقره وإجلاله

عن عمرو بن العاص رضى الله عنه
قال : ما كان أحد أحب إلى من رسول الله ولا أجل فى عينى منه وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأنى لم أكن أملأ عينى منه
روى الزهرى عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كا يخرج على أصحابه وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر فلا يرفع أحدهم منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويبتسمان إليه ويبتسم لهما
وروى أسامة بن زيد رضى الله عنهما أن شريك قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه كأنما على رءوسهم الطير
وفى حديث صفته إذا تكلم كأنما على رءوسهم الطير
وقال : عروة بن مسعود حين وجهته قريش عام الحديبية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأى من تعظيم أصحابه ما رأى وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوئه وكادوا يقتتلون عليه ولا يبصق بصاقا ولا تنخم نخامة إلا تلقوها بأكفهم فدلكوا بها وجوههموأجسامهم ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيما له فلما رجع إلى قريش قال : يا معشر قريش لإنى جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه وإنى والله ما رأيت قوم قط مثل محمد وأصحابه

وفى رواية رأيت قوما لا يسلمونه أبدا
وعن أنس رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقص شعره وطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلا فى يد رجل
ومن قبيل هذا لما أذنت قريش لعثمان بن عفان
فى الطواف بالبيت حين وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فى صلح الحديبية أبى وقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله
وفى حديث طلحة رضى الله عنه
أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا : لأعرابى سله عمن قضى نحبه وكانوا يهابونه ويوقرونه فأعرض عنه إذ طلع طلحة فقال : رسول الله هذا ممن قضى نحبه
وقال : البراء بن عازب لقد كنت أريد أن أسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأمر فأؤخره سنين من هيبته

حرمة النبى صلى الله عليه وسلم بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان فى حياته

وكذلك حديثه وسنته وسماع اسمه وسيرته ومعاملة آل بيته وعشيرته وتعظيم أهل بيته وصحابته
قال : إبراهيم التجيبى واجب على كل مؤمن متى ذكره أو ذكر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته ويأخذ فى هيبته وإجلاله بما يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ويتأدب بما أدبنا الله به
قال : القاضى أبو الفضل ناظر أبو جعفر المنصور أميرالمؤنين الإمام مالك فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فقال : له الإمام مالك لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فإن الله تعالى أدب قوما فقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) **الحجرات2**
ومدح قوما فقال : (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) **الحجرات 3**
وذم قوما فقال :
(إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) **الحجرات 4**
وإن حرمته ميتا كحرمته حيا فاستكان له أبو جعفر
وقال : يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعوا أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ولما تصرف وجهه عنك وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة بل استقبله واستشفع به يشفعك الله قال : تعالى (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)
النساء 64
وكان عامر بن عبد الله بن الزبير إذا ذكر عنده النبى صلى الله عليه وسلم بكى

وكان الزهرى من أهنأ الناس وأقربهم إذا ذكر عنده النبى صلى الله عليه وسلم فكأنك لا تعرفه ولا يعرفك
وكان صفوان بن سليم من المتعبدين المجتهدين إذا ذكر النبى صلى الله عليه وسلم بكى فلا يزال يبكى حتى يقوم الناس عنه
وروى عن قتادة أنه إذا سمع الحديث يأخذه البكاء
وكان ابن سيرين ربما يضحك فإذا ذكر حديث النبى صلى الله عليه وسلم خشع
وقال : مصعب بن عبد الله كانمالك إذا ذكر عنده النبى صلى الله عليه وسلم يتغير لونه وينحنى حتى يصعب ذلك على جلساؤه فقيل : له يوما فى ذلك فقال : لو رأيتم ما رأيت ما أنكرتم ما ترون لقد كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسم فإذا ذكر النبى صلى الله عليه وسلم إصفر وما رأيت يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على طهارة ولقد إختلفت إليه زمانا فما رأيته إلا على ثلاث خصال إما مصليا وإما صامتا وإما يقرأ القرآن ولا يتكلم فيما لا يعنيه وكان من العلماء الذين يخشون الله
وكان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبى صلى الله عليه وسلم فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم هيبة من رسول الله .
من توقيره صلى الله عليه وسلم وبره بر آله وذريته وأمهات المؤمنين أزواجه
كما حض عليه الصلاة والسلام وسلكه السلف الصالح قال : تعالى (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) **الأحزاب 33**
وقال : تعالى (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) **الأحزاب 6**
وعن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنشدكم الله فى أهل بيتى ثلاثا ". قالوا : لزيد من أهل بيته قال : آل على وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس
وقال : صلى الله عليه وسلم " إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتى أهل بيتى فانظروا كيف تخلفونى فيهما "
قال : بعض العلماء معرفة مكانتهم من النبى صلى الله عليه وسلم وإذا عرفهم بذلك عرف وجوب حقهم وحرمتهم بسببه
وعن عمر بن أبى سلمة لما نزلت الآية (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) **الأحزاب 33**
وذلك فى بيت السيدة أم سلمة رضى الله عنها دعا فاطمة وحسنا وحسينا فجللهم بكساء وعلى خلف ظهره ثم قال : "اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب الرجس عنهم وطهرهم تطهيرا "
وقال : صلى الله عليه وسلم "من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعادى من عاداه "
وقال : صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه "لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق " .

وقال : صلى الله عليه وسلم "والذى نفسى بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حت يحبك لله ورسوله ومن آذى عمى فقد آذانى وإنما عم الرجل صنو أبيه "

وقال : أبو بكر رضى الله عنه

ارقبوا محمدا صلى الله عليه وسلم فى أهل بيته

وقال : صلى الله عليه وسلم أحب الله من أحب حسنا

وقال : صلى الله عليه وسلم من أهان قريشا أهانه الله

وقال : صلى الله عليه وسلم قدموا قريشا ولا تقدموها

وقال : الأوزاعى دخلت بنت أسامة بن زيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمر بن عبد العزيز ومعها مولى يمسك بيدها فقام لها عمر ومشى إليها حتى أجلسها على مجلسه وما ترك لها حاجة إلا قضاها

وبلغ معاوية رضى الله عنه أن قابس بن ربيعة يشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما دخل عليه قام من سريره وقبله بين عينيه لشبهه برسول الله

وروى أن مالكا رحمه الله لما ضربه أبو جعفر المنصور وحمل مغشيا عليه دخل عليه الناس فأفاق فقال : أشهدكم أنى جعلت ضاربى فى حل فشئل عن ذلك فقال : خفت أن أموت فألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأستحى منه أن يدخل بعض آله النار بسببى

ولما وردت السيدة حليمة االسعدية على النبى صلى الله عليه وسلم بسط له ردائه وقضى حاجتها فلما توفى وفدت على أبى بكر وعمر فصنعا بها مثل ذلك

ومن توقيره وبره صلى الله عليه وسلم توقير أصحابه وبرهم ومعرفة حقهم

والإقتداء بهم وحسن الثناء عليهم والإستغفار لهم والإمساك عما شجر بينهم ومعاداة من عاداهم ولا يذكر أحد منهم بسوء ولا يغمض عليه أمر بل نذكر حسناتهم وفضلهم وحمد سيرهم

قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر أصحابى فأمسكوا

وقال : تعالى (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) **الفتح 29**

وقال : تعالى (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) **التوبة 100**

وقال : تعالى (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) **الفتح 18**

وقال : تعالى (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) **الأحزاب 23**

وقال : صلى الله عليه وسلم "أصحابى كالجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم "

وقال : صلى الله عليه وسلم "لا تسبوا أصحابى فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه "

وقال : صلى الله عليه وسلم " من سب أصحابى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا "

وقال : مالك بن أنس من أبغض الصحابة وسبهم فليس له فى فىء المسلمين حق وقال : من عاظ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فهو كافر لأن الله تعالى يقول : (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) **الفتح 29**

وقال : عبد الله بن المبارك خصلتان من كانت فيه جا الصدق وحب أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم

وقال : صلى الله عليه وسلم "احفظونى فى أصحابى وأصهارى فإنه من حفظنى فيهم حفظه الله فى الدنيا والآخرة ومن لم يحفظنى فيهم تخلى الله منه ومن تخلى الله منه يوشك أن يأخذه "

وقال : رجل للمعافى بن عمران أين عمر بن عبد العزيز من معاوية فغضب وقال : لا يقاس أحد بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه على وحى الله

وأتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم بجنازة فلم يصلى عليه وقال : كان يبغض عثمان

قال : الإمام مالك هذا النبى صلى الله عليه وسلم مؤدب الخلق الذى هدانا الله به وجعله رحمة للعالمين يخرج فى جوف الليل إلى البقيع فيدعوا لهم ويستغفر كالمودع لهم وبذلك أمره الله والنبى صلى الله عليه وسلم أمر بحبهم وموالاتهم ومعاداة من عاداهم .

روى عن كعب رضى الله عنه قال : ليس لأحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إلا له شفاعة يوم القيامة وطلب من المغيرة بن نوفل أن يشفع له يوم القيامة

قال : سهل بن عبد الله التسترى لم يؤمن بالرسول صلى الله عليه وسلم من لم يوقر أصحابه ولم يعز أوامره .

ومن اعظامه صلى الله عليه سلم اعظام جميع أسبابه وإكرام مشاهده وأمكنته معاهده وما لمسه

روى عن الإمام مالك رضى الله عنه أنه كان لا يركب دابته بالمدينة وكان يقول : أستحى من الله أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة

وروى عند أيضا أنه وهب للإمام الشافعى كراعا كثيرة كانت عنده فقال : له الإمام الشافعى أمسك منها دابة فأجاب بمثا هذا الجواب

حكى أبو عبد الله السلمى عن أحمد بن فضلون الزاهد وكان من الغزاة الرماة أنه قال : ما مسست القوس بيدى إلا على طهارة منذ بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ القوس بيده

ورئى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما واضعا يده على مقعد النبى صلى الله عليه وسلم من المنبر ثم وضعها على وجهه

وقد أفتى الإمام مالك فيمن قال : تربة المدينة رديئة أن يضرب ثلاثين درة وأمر بحبسه وكان له قدر وقال : ما أحوجه إلى ضرب عنقه تربة دفن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم يزعم أنها غير طيبة

وحكى أن جهجاه الغفارى أخذ قضيب النبى صلى الله عليه وسلم من عثمان بن عفان ليكسره على ركبته فصاح به الناتس فأخذته الأكلة من ركبته فقطعها ومات قبل الحول

وقال : صلى الله عليه وسلم "من حلف على منبرى كاذبا فليتبوأ مقعده من النار"

قال : القاضى عياض رحمه الله

وجدير لمواطن عمرت بالوحى والتنزيل وتردد بها جبريل وميكائيل وعرجت منها الملائكة والروح وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح واشتملت تربتها على جسد سيد البشر وانتشر عنها دين الله وسنة رسوله وهى مشاهد الفضائل والخيرات ومعاهد البراهين والمعجزات ومناسك الدين حيث انفجرت النبوة وفاض عبابها ومواطن الرسالة وأول أرض مس جلد المصطفى ترابها أن تعظم عرصاتها وتتنسم نفحاتها وتقبل ربوعها وجدرانها

يا دار خير المرسلين ومن به
هدى الأنام وخص بالآيات
عندى لأجلك لوعة وصبابة
وتشوق متوقد الجمرات
وعلى عهد إن ملأت محاجرى
من تلكم الجدران والعرصات
لأعفرن مصون شيبتى بينهما
من كثرة التقبيل والرشفات
لولا العوادى والأعادى زرتها
أبدا ولو سحبا على الوجنات
لكن شاهدى من حفيل تحيتى
لقطين تلك الدار والحجرات
أزكى من المسك المفتق نفحة
يغشاه بالآصال والبكرات
وتخصه بزواكى الصلوات
ودوامى التسليم والبركات

حكم زيارة النبى صلى الله عليه وسلم

زيارة النبى صلى الله عليه وسلم من سنن المسلمين مجمع عليها وفضيلة مرغب فيها

روى الدارقطنى عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم من زارنى وجبت له شفاعتى "

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : رسوالله صلى الله عليه وسلم " من زار المدينة محتسبا كان فى جوارى وكنت له شفيعا يوم القيامة "
وفى حديث آخر "من زارنى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى **"**
وكره الإمام مالك أن يقال زرنا قبر النبى وقد اختلف فى معنى ذلك فقيل : كراهية السم لما ورد فى حديثه صلى الله عليه وسلم زوارات القبور وقوله : صلى الله عليه وسلم من زارنى فقد أطلق اسم الزيارة وأن الزائر أفضل من المزوروهذا أيضا ليس بشىء إذ ليس كل زائر بهذه الصفة وليس هذا هموما وقد روى فى حديث أهل الجنة زيارتهم لربهم ولم يمنع هذا اللفظ فحقه تعالى . وقال : أبو عمران رحمه الله
إنما كره مالك أن يقال : طواف الزيارة وزرنا قبر النبى صلى الله عليه وسلم لإستعمال الناس ذلك بينهم بعضهم لبعض وذكره تسوية النبى صلى الله عليه وسلم مع الناس وأيضا فإن الزيارة مباحة بين الناس وواجب شد المطى إليه صلى الله عليه وسلم والوجوب هنا ندب وترغيب لا وجوب فرض .
وقال : إسحاق بن إبراهيم الفقيه
ومما لم يزل من شأن من حج المرور بالمدينة المنورة والقصد إلى الصلاة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم والتبرك برؤيته ورؤية روضته وقبره ومجلسه وملامس يده ومواطىء قدميه والعمود الذى كان يستند إليه وينزل جبريل بالوحى عليه وبمن عمره وقصده من الصحابة وأئمة المسلمين والإعتبار بذلك كله .
وعن يزيد بن أبى سعيد المهرى قال : قدمت على عمر بن عبد العزيز فلما ودعته قال : لى إليك حاجة إذا أتيت المدينة سترى قبر النبى صلى الله عليه وسلم أقرئه منى السلام وكان يبرد إليه البريد من الشام بالسلام
وقال : بعضهم رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبى صلى الله عليه وسلم فرفع يده حتى ظننت أنه إفتتح الصلاة فسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ثم انصرف
وفى الموطأ – من رواية يحيى بن أبى يحيى الليثى أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يقفون على قبر النبى صلى الله عليه وسلم فيصلون على النبى وعلى أبى بكر وعمررضى الله عنهم
وعن أبى القاسم والقعنبى يدعون لأبى بكر وعمر رضى الله عنهم
وفى رواية ابن وهب
يقول : المسلم السلام عليك يا أيها النبى ورحمة الله وبركاته
فصل

المدائح النبوية من أعظم القربات إلى الله عزوجل

ورد هذا السؤال إلى فضيلة الدكتورعلى جمعة مفتى الديار المصرية وتفضل بالرد عليه

السؤال – يقول كثيرون إن المدائح النبوية من البدعة التى تخالف شرع الله سبحانه وتعالى وأن منها قصيدة البردة تشمل على أبيات فيها غلوفما صحة هذا القول ؟
الجواب – بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله وصحبه ومن والاه

وبعد

فقد أرسل الله عزوجل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إالى العالمين فى فترة كان أهل الجزيرة العربية متفرقين لا يجمعهم شمل ولا يخضعون تحت راية واحدة فلما جاء النبى صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى الوحدة والإتحاد تحت دين واحد وراية واحدة لينقذهم مما هم فيه من فوضى التفرق ودمار الحرب فآمن بدعوته بعض الناس وكفر بها بعضهم وقام بعض الشعراء من الكافرين بهجائه صلى الله عليه سلم فوقف الشعراء من المسلمين يدافعون عنه ويمدحونه مثل حسان بن ثابت رضى الله عنه .
فقد روى البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لحسان أهجهم أو قال : هاجهم وجبريل معك
قال : تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

التوبة 24

وقال : صلى الله عليه وسلم "فوالذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده "
وقال : أيضا "لا يومن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والنس أجمعين "
ومحبة النبى صلى الله عليه وسلم مظهر محبة الله سبحانه ومن أحب ملكا أحب رسوله ورسول الله حبيب رب العالمين وهو الذى جاء لنا بالخير كله وتحمل المتاعب من أجل إسلامنا ودخولنا الجنة وقد وصفه ربنا فى مواضع كثيرة من القرآن بصفات تدل على فضله منها قوله : تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) **القلم 4**
وقد عرف العلماء المديح النبوى بأنه الشعر الذى ينصب على مدح النبى صلى الله عليه وسلم بتعداد صفاته الخلقية والخلقية وإظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره والأماكن المقدسة التى ترتبط بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية ونظم سيرته شعرا والإشادة بغزواته وصفاته المثلى والصلاة عليه تقديرا وتعظيما فهو شعر صادق بعيد عن التزلف والتكسب ويرجى به التقرب إلى لله عزوجل . ومهما وصفه الواصفون فلن يوفوه حقه صلى الله عليه وسلم
قال : الشيخ :الباجورى رحمه الله فى مقدمة شرح البردة
إن من كمالاته صلى الله عليه وسلم لا تحصى وشمائله لا تستقصى فالمادحون لجنابه العلى الواصفون لكماله الجلى مقصرون عما هنالك قاصرون عن آداء ذلك وقد وصفه الله فى كتبه بما يبهر العقول ولا يستطاع إليه الوصول فلو بلغ الأولون والآخرون فى إحصاء مناقبه لعجزوا عن ضبط ما حباه مولاه من مواهبه .

وقد أحسن من قال :

أرى كل مدح فى النبى مقصرا
ولو صيغ فيه كل عقد مجوهرا
وهل بقدر المداح قدر محمد
وإن بالغ المثنى عليه وأكثرا
إذ الله أثنى بالذى هو أهله
على من براه للمحامد مظهرا
وخصصه فى رفع الذكر مثنيا
عليه فما مقدار ما تمدح الورى

فكل علو فى حقه صلى الله عليه وسلم تقصير ولا يبلغ البليغ إلا قليلا من كثير . ولم يقتصر مدحه صلى الله عليه وسلم بعد انتشار الإسلام وظهوره بل إنه قد مدح فى الجاهلية فقد مدحته أم معبد ووصفت أخلاقه وخلقه الكريم لزوجها بقولها : مر بنا رجل ظاهر الوضاءة مليح الوجه فى أشفاره وطف وفى عينيه دعج وفى صوته صحل غصن بين عصنين لا تشنؤه من طول ولا تقتحمه من قصر لم تعلوه ثجلة ولم تزر به صلعة كأنه عنقه إبريق فضة إذا نطق فعليه البهاء وإذا صمت فعليه الوقار كلامه كخرز النظم أزين أصحابه منظرا وأحسنهم وجها محشود غير مفند له أصحاب يحفون به إذا أمر تبادروا أمره وإذا نهى انتهوا عند نهيه .قال : هذه صفة صاحب قريش ولو رأيته لإتبعته ولأجهدن أن أفعل . وقد مدحه أيضا شعراء الكفار مثل الأعشى حيث يقول : فى مدحه النبى صلى الله عليه وسلم

نبى يرى ما لا ترون وذكره
أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغب ونائل
وليس عطاء اليوم مانعه غدا

وقال : بعض الباحثين – إن شعر المديح النبوى فن مستحدث لم يظهر إلا فى القرن السابع الهجرى مع البوصيرى وابن دقيق العبد . والحق أن المديح النبوى ظهر فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم على يد حسان بن ثابت وكعب بن مالك بن زهير وعبد الله بن رواحة وقد أقره النبى صلى الله عليه وسلم بدليل أن كعب بن زهير بن أبى سلمى أنشد رسول الله فى المسجد قصيدته المشهورة التى مدح فيها النبى صلى الله عليه وسلم والتى مطلعها

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول
متيم على إثرها لم يفد مكبول

ويقول : فيها

أنبئت أن رسول الله أوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة
القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بقول الوشاة ولم

أذنب ولو كثرت على الأقاويل
ثم ظل يمدح النبى صلى الله عليه وسلم إلى نهاية القصيدة ومن الأبيات التى يمدحه بها قوله :
إن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول
فأقر النبى صلى الله عليه وسلم مدح كعب بن زهير له ولم ينهه عن مدحه ولا على إنشاده فى المسجد بل كساه بردة . روى من طريق خريم بن أوس بن حارثة قال : كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : له العباس بن عبد المطلب يا رسول الله إنى أريد أن أمدحك فقال : له النبى هات لا يفضض الله فاك فأنشأ العباس يقول شعرا منه
وأنت لما ولدت أشرقت
الأرض وضاءت بنورك الأفق
فنحن فى الضياء وفى النور
وسبل الرشاد تخترق
فنجد أن النبى صلى الله عليه وسلم أقر عمه فى مدحه ولم يعترض عليه . فهذا دليل على مشروعية مدحه صلى الله عليه وسلم . وأما قول النبى صلى الله عليه وسلم " لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله " فالإطراء المدح الباطل تقول أطريت فلان مدحته فأفرطت فى مدحه وقوله : كما أطرت النصارى عيسى بن مريم أى فى دعواهم فيه الألوهية وغير ذلك فهو نهاهم عن المدح الباطل فقط ولم ينههم عن المدح مطلقا . فالإطراء الذى نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الغلو فة مدحه وذلك بأن يمدح بما هو من خصائص الله كأن يرفع إلى مقام الألوهية أو يعطى بعض صفات الله كما قالت إمرأة فى زمنه وهى تمدحه وفينا نبى يعلم ما فى غد فقال : صلى الله عليه وسلم لا تقولى هكذا وقولى : ما كنت تقولين , فنجد أن النبى صلى الله عليه وسلم نهانا وذلك لأن علم الغيب من خصائص وصفات الله وقد أمر الله رسوله أن يقول : (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)
الأعراف 188
فلا يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغيب إلا ما علمه الله وتعد قصيدة الكواكب الدرية فى مدح خير البرية والمعروفة باسم البردة من عيون الشعر العربى ومن أروع قصائد المدائح النبوية ودرة ديوان المديح فى الإسلام الذى جاءت به قرائح الشعراء على مر العصور وقد أجمع معظم الباحثين على أنها أفضل قصيدة فى المديح النبوى إذا استثنينا لامية كعب بن مالك البردة الأم حتى قيل إنها أشهر قصيدة فى الشعر العربى بين العامة والخاصة وقد ذكر الشاعر فى هذه القصيدة سيرة النبى صلى الله عليه وسلم من مولده إلى وفاته وتكلم عن معجزاته وخصائصه وقد وجه العض انتقادات كثيرة يرمون فيها قصيدة البردة وغيرها من قصائد المدح النبوى بالغلو ولكننا نقول : إن الأصل فى الألفاظ التى تجرى على ألسنة الموحدين أن تحمل على المعانى التى لا تتعارض مع أصل التوحيد ولا ينبغى أن نبادر برمى

الناس بالكفر والفسق والضلال والإبتداع فإن إسلامه قرينة قوية توجب علينا ألا نحمل ألفاظه على معناها الظاهر إن إقتضت كفرا أو فشقا وتلك قاعدة عامة ينبغى على المسلمين تطبيقها فى كل العبارات التى يسمعونها من إخوانهم المسلمين ولنضرب مثلا للأبيات التى أتهمت بالغلو ثم نوضح المعنى الصحيح التى تحمل عليه من هذه الأبيات قوله :

محمد سيد الكونين والثقلين

والفريقين من عرب ومن عجم

فنجد أن المعنى المقصود من هذا البيت هو بيان مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه سيد أهل الدنيا والآخرة وسيد الإنس والجن وسيد العرب والعجم ولا خلاف فى هذا بين عامة المسلمين . قال : صلى الله عليه وسلم أنا سيد الناس يوم القيامة

وقوله :

يا أكرم الرسل ما لى من ألوذ به

سواك عند حلول الحادث العمم

فالشاعر يقصد بالحادث العمم هنا هو يوم القيامة وأن الناس كلهم ستجهون إلى الأنبياء لطلب الشفاعة كما ورد فى الحديث يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك ؟وقال : بن عبيد فيلهمون لذلك فيقولون لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا قال : فيأتون آدم عليه السلام فيقولون أنت آدم أبو الخلق خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول : لست هناكم فيذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها ولكن إئتوا نوحا أول رسول بعثه الله قال : فيأتون نوحا عليه السلام فيقول : لست هناكم فيذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها ولكن إئتوا إبراهيم عليه السلام الذى اتخذه الله خليلا فيأتون إبراهيم عليه السلام فيقول : لست هناكم ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها ولكن إئتوا موسى عليه السلام الذى كلمه ربه وأعطاه التوراة قال : فيأتون موسى عليه السلام فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها ولكن إئتوا عيسى روح الله وكلمته فيأتون عيسى روح الله وكلمته فيقول : لست هناكم ولكن إئتوا محمدا صلى الله عليه وسلم عبدا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتونى فأستأذن على ربى فيؤذن لى فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا فيدعنى ما شاء الله فيقال : يا محمد إرفع رأسك قل يسمع سل تعطه اشفع تشفع فأرفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ربى ثم أشفع فيحد لى حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود ساجدا فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ثم يقال : إرفع رأسك يا محمد قل يسمع سل تعطه اشفع تشفع فأرفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لى حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة قال : فلا أدرى فى الثالثة أم فى الرابعة قال : فأقول يا رب ما بقى فى النار إلا من حبسه القرآن " أى وجب عليه الخلود

فيتضح لنا بعد قراءة قصائد ودواوين المديح النبوى عبر تعاقبه التاريخى والفتى إنه كان يستوحى مادته الإبداعية ورؤيته الإسلامية من القرآن الكريم أولا فالسنة النبوية الشريفة ثانيا إعتمادا على الكتب المعتمدة فى السيرة النبوية مثل السيرة لابن هشام

والسيرة النبوية لابن حبان والوفاء بأحوال المصطفى لأبى الفرج عبد الرحمن الجوزى والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى غياض وغيرهما

وعلى هذا فمدح النبى صلى الله عليه وسلم من أعظم القربات وإنشاده فى المسجد له فضل كبير وأن الأبيات التى أتهمت بالغلو عند مراجعتها ومراجعة شروحها نجد أنها تهم باطلة إذا فهم المقصود منها على أساس إحسان الظن .

والله تعالى أعلى وأعلم

الإحتفال بالمولد النبوى الشريف محمود لا مذموم

ورد هذا السؤال إلى فضيلة الدكتورعلى جمعة مفتى جمهورية مصر العربية وتفضل سيادته بالرد عليه

السؤال – تحتفل الأمة الإسلامية كل عام بالمولد النبوى الشريف ونرى من يعترض على ذلك الإحتفال ويقولون إنه بدعة فما حقيقة ذلك ؟

الجواب – لقد كان المولد النبوى الشلاريف إطلالة للرحمة الإلهية بالنسبة للتاريخ البشرى جميعه زعبر القرآن الكريم عن وجود النبى صلى الله عليه وسلم بأنه رحمة للعالمين وهذه الرحمة لم تكن محدودة فهى تشمل تربية البشر وتزكيتهم وتعليمهم وهدايتهم نحو الصراط المستقيم وتقدمهم على صعيد حياتهم تالمادية والمعنوية كما أنها لا تقتصر على أهل ذلك ذلك الزمان بل تمتد على امتداد التاريخ بأسره (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) **الجمعة 3**

والإحتفال بذكرى مولده صلى الله عليه وسلم من أفضل الأعمال وأعظم القربات لأنه تعبير عن الفرح والحب له صلى الله عليه وسلم ومحبة النبى صلى الله عليه وسلم أصل من أصول الإيمان وقد صح عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : " والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده "

وأنه قال : صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين "

قال : ابن رجب

محبة النبى صلى الله عليه وسلم من أصول الإيمان وهى مقارنة لمحبة الله عزجل وقد قرنها الله بها وتوعد عليها محبة شىء من الأمور المحببة طبعا من الأقارب والأموال والأوطان وغير ذلك فقال : تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) **التوبة 24**

ولما قال : عمر بن الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم " أنت أحب إلى من كل شىء إلا نفسى فقال : لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال : عمر والله أنت الآن أحب إلى من نفسى قال : الآن يا عمر "

والإحتفال بمولده صلى الله عليه وسلم هو الإحتفاء به والإحتفاء به أمر مقطوع بمشروعيته لأنه أصل من الأصول ودعامتها فقد علم سبحانه وتعالى قدر نبيه فعرف الوجود بأسره بإسمه وبمبعثه وبمقامه ومكانته والكون كله فى سرور دائم وفرح مطلق بنور الله ونعمته على العالمين وحجته .وقد درج سلفنا الصالح من القرن الرابع والخامس على الإحتفال بمولد الرسول الأعظم صلوات الله عليه وسلامه بإحياء ليلة المولد بشتى أنواع القربات من إطعام الطعام وتلاوة القرآن والأذكار وإنشاد الأشعار والمدائح فى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نص على ذلك غير واحد من المؤرخين مثل الحافظين ابن الجوزى وابن كثير والحافظ ابن دحية الأندلسى والحافظ ابن حجر زخاتمة الحفاظ جلال الدين السيوطى رحمهم الله تعالى وألف فى إستحباب الإحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف جماعة من العلماء والفقهاء بينوا بالأدلة الصحيحة إستحباب هذا العمل بحيث لا يبقى لمن له عقل وفهم وفكر سليم إنكارما سلكه سلفنا الصالح من الإحتفال بذكرى المولد الشريف وقد أطال ابن الحاج فى المدخل فى ذكر المزايا المتعلقة بهذا الإحتفال وذكر فى ذلك كلاما مفيدا يشرح

الصدور للمؤمنين مع العلم أن ابن الحاج وضع كتابه المدخل فى ذم البدع المحدثة التى لا يتناولها دليل شرعى . وقال : خاتمة الحفاظ جلال الدين السيوطى فى كتابه حسن المقصد فى عمل المولد بعد سؤال رفع إليه عن عمل المولد النبوى فى شهر ربيع الأول ما حكمه من حيث الشرع وهل هو محمود أم مذموم وهل يثاب عليه ؟
والجواب – عندى أن أصل عمل المولد هو إجتماع الناس وقراءة ما تيسر من القرآن ورواة الأخبار الواردة فى مبدأ أمر النبى صلى الله عليه وسلم وما وقع فى مولده من الآيات ثم يمد لهم سماط يأكلونه وينصرفون من غير زيادة على ذلك هو من البدع الحسنة التى يثاب عليها صاحبها لما فيه من تعظيم قدر النبى صلى الله عليه وسلم وإظهار الفرح والإستبشار بمولده الشريف . وقد رد السيوطى على من قال : لا أعلم لهذا المولد أصلا فى كتاب ولا سنة بقوله : نفى العلم لا يلزم نفى الوجود مبينا أن إمام الحفاظ أن الفضل بن حجر رحمه الله قد استخرج له أصلا من السنة واستخرج له هو يعنى السيوطى أصلا ثانيا موضحا أن البدعة المذمومة هى التى لا تدخل تحت دليل شرعى فى مدحها أما إذا تناولها دليل المدح فليست مذمومة . روى البيهقى عن الشافعى رضى الله عنه قال : المحدثات من الأمور ضربان : -
أحدهما - أحدث ما يخالف كتاب أو سنة أو أثرا أو إجماعا فهذه البدعة الضلالة .
الثانى – ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد . وهذه محدثة غير مذمومة وقال : عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى قيام شهر رمضان نعم البدعة هذه يعنى أنها محدثة لم تكن وإذا كانت فليس فيها رد لما مضى . هذا آخر كلام الشافعى .
قال : السيوطى – وعمل المولد ليس فيه مخالفة لكتاب ولا سنة ولا أثر ولا إجماع فهى غير مذمومة كما فى عبارة الشافعى وهو من الإحسان الذى لم يعهد فى العصر الأول فإن إطعام الطعام الخالى عن إقتراف الآثام إحسان فهو إذن من البدع المندوبة كما عبر عنه بذلك سلطان العلماء العز بن عبد السلام وأصل الإجتماع لإظهار شعائر المولد مندوب وقربة لأن ولادته أعظم النعم علينا والشريعة حثت على إظهار شكر النعم وهذا ما رجحه ابن الحاج فى المدخل حيث قال : لأن فى هذا الشهر من الله تعالى علينا بسيد الأولين والآخرين فكان يجب أن يزاد فيه من العبادات والخير وشكر المولى على ما أولانا به من النعم العظيمة . والأصل الذى خرج عليه الحافظ بن حجر عمل المولد النبوى هو ما ثبت فى الصحيحين من أن النبى صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم فقالوا هذا يوم أغرق الله فيه فرعون ونجى موسى فنحن نصومه شكرا لله تعالى " قال : الحافظ فيستفاد منه فعل شكر الله على ما من به فى يوم معين من إسداء نعمة أو دفع نقمة ويعاد ذلك فى نظير ذلك اليوم كل سنة والشكر يحصل بأواع العبادات كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة وأى نعمة أعظم من نعمة بروز هذا النبى نبى الرحمة فى ذلك اليوم ويؤكد الحافظ بن حجر على مظاهر هذا الإحتفال فيقول : فينبغى أن نقتصر فيه على ما يفهم الشكر لله تعالى من نحو ما تقدم ذكره من التلاوة والطعام وإنشاد شىء من المدائح النبوية والزهدية المحركة للقلوب إلى فعل الخير والعمل للآخرة وما كان مباحا بحيث يقتضى السرور بذلك اليوم لا بأس بإلحاقه به ونقل السيوطى عن إمام القراء الحافظ شمس الدين بن الجزرى من كتابه عرف التعريف بالمولد الشريف

قوله : إنه صح أن أبا لهب يخفف عنه العذاب فى النار كل ليلة إثنين لإعتقاه ثويبة عندما بشرته بولادة النبى صلى الله عليه وسلم فإذا كان أبو لهب الكافر الذى نزل القرآن بذمه جوزى فى النار بفرحه ليلة مولد النبى صلى الله عليه وسلم فما حال المسلم الموحد من أمة النبى صلى الله عليه وسلم يسر بمولده ويبذل ما تصل إليه قدرته فى محبته . لعمرى إنما يكون جزاؤه من الله الكريم أن يدخله بفضله جنة النعيم وأنشر الحافظ شمس الدين الدمشقى فى كتابه المسمى مورد الصادى فى مولد الهادى

إذا كان هذا كافر جاء ذمه

وتبت يداه فى الجحيم مخلدا

أتى أنه فى يوم الإثنين دائما

يخفف عنه للسرور بأحمدا

فما الظن بالعبد الذى كان عمره

بأحمد مسرور ومات موحدا

كما يمكن الإستدلال بعموم قوله : تعالى (وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ) **إبراهيم 5**

فلا شك أن مولد النبى صلى الله عليه وسلم من أيام الله ويكون الإحتفال به ما هو إلا تطبيقا لأمر الله وما كان كذلك فلا يكون بدعة بل يكون سنة حسنة حتى ولو لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نحتفل بمولده صلى الله عليه وسلم لأننا نحبه ولما لا نحبه وقد عرفه وأحبه كل الكائنات فهذا الجذع وهو جماد أحب التبى صلى الله عليه وسلم وتعلق به واشتاق إلى قربه الشريف بل وبكى بكاءا شديدا تشوقا للنبى صلى الله عليه وسلم وقد تواتر هذا الخبر وصار العلم به محتم وروى عن أكثر من صحابى من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أنه عندما كان يخطب النبى صلى الله علي وسلم قائما معتمدا على جذع نخل منصوب فإذا طال وقوفه وضع يده الشريفة على ذلك الجذع ولما كثر عدد المصلين صنع له الصحابة منبرا فلما خرج صلى الله عليه وسلم من باب الحجرة الشريفة يوم الجمعة يريد المنبر وجاوزظ الجذع الذى كان يخطب عنده إذا بالجذع يصرخ صراخا شديدا ويحن حنينا مؤلما حتى أرتج المسجد وتشقق الجذع ولم يهدأ حتى نزل النبى صلى الله عليه وسلم عن المنبر وأتى الجذع فوضع يده الشريفة عليه ومسحه ثم ضمه بين يديه إلى صدره الشريف حتى هدأ ثم خيره بأن ساوره بين أن يكون شجرة فى الجنة وبين أن يعود شجرة مثمرة فى الدنيا فاختار الجذع أن يكون شجرة فى الجنة فقال : صلى الله عليه وسلم أفعل إن شاء الله أفعل إن شاء الله أفعل إن شاء الله فسكن الجذع ثم قال : صلى الله عليه وسلم " لو لم ألتزمه لبقى يحن إلى قيام الساعة شوقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ".

ومما سبق ذكره من أقوال الأئمة كابن حجر وابن الجوزى والسيوطى وغيرهم ونبين لنا أن هذا حال الأمة من القرن الخامس الهجرى نرى إستحباب الإحتفال بالمولد النبوى الشريف موافقة للأمة والعلماء وأن يكون الإحتفال بما ذكر من تلاوة القرآن والذكر وإطعام الطعام ولا يتطرق إليه مظاهر مذمومة كالرقص والطبل وما إلى ذلك ولا عبرة بمن شذ عن هذا الإجماع العملى للأمة وأقوال هؤلاء الأئمة وليس ذلك

الإحتفال بكثير على النبى صلى الله عليه وسلم الرحمة المهداة حبيب رب العالمين

وفى الختام – أذكر قول : صاحب البردة

فهو الذى تم معناه وصورته
ثم اصطفاه حبيبا بارىء النسم
منزه عن شريك فى محاسنه
فجوهر الحسن فيه غير منقسم
دع ما ادعته النصارى فى نبيهم
واحكم ما شئت مدحا فيه واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف
وانسب إلى قدره من شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له حد
فيعرب عنه ناطق بفم

والله تعالى أعلى وأعلم

الباب العاشر

حقيقة علاقة التصوف بالتشيع

هذا السؤال قد ورد إلى دار الإفتاء المصرية وتفضلوا مشكورين بالرد عليه

السؤال - يتردد فى الآونة الأخيرة أن التصوف هو بوابة التشيع فى مصر فنود إلقاء الضوء على حقيقة هذا الأمر ؟ آدامكم الله ذخرا للإسلام وعونا للمسلمين .

الجواب – فى البداية لا يمكن أن نعد التصوف الإسلامى مذهبا عقائديا كالمعتزلة والخوارج والشيعة ولا نمكن أن نعدهم كذلك مذهبا فقهيا كالحنيفية والماكية والشافعية والحنابلة ولكن التصوف الإسلامى منهج التربية الروحى والسلوكى الذى يرقى به المسلم إلى مرتبة الإحسان التى عرفها النبى صلى الله عليه وسلم أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك فالتصوف يهتم بتطهير النفس من كل أمراضها التى تحجب الإنسان عن الله عزوجل وتقوم انحرافه النفسى والسلوكى فيما يتعلق بعلاقة الإنسان مع الله ومع الآخر ومع الذات . والشيعة هم الذين انتحلوا التشيع لعلى كرم الله وجهه وقالوا : إنه الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنص الجلى أو الخفى وأنه الوصى بعده بالإسم أو الوصف دون الصديق وعمر وعثمان رضى الله عنهم وأن الإمامة لا تخرج عنه ولا عن أولاده وإن خرجت فبظلم من غيرهم أو بتقية منه أو من أولاده وربما كان للخلافات السياسية والحربية التى حدثت فى نهايات عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أثر كبير فى نشأة بعض الفرق العقائدية كالشيعة والخوارج وغيرهم والشيعة الإمامية وهم أغلب الشيعة فرقة من المسلمين إلا أنها أخطأت حينما خالفت المسلمين فى تقديم على بن أبى طالب رضى الله عنه على سائر الصحابة الكرام والطعن على خلافة من سبقه بل والنيل من أغلب الصحابة والوقوع فى سبهم ولعنهم فهذه طامات كبرى أوغرت قلوب أهل السنة والجماعة إلا أنهم لا يكفرون بهذه المخالفات غير المقبولة لأن المسلم لا يكفر بسب المسلم ولعنه وإن كان من وقعوا فيهم بالسب واللعن هم خير المسلمين على الإطلاق بعد النبى صلى الله عليه وسلم إلا أنهم متأولون بل ولا يرونهم صحابة أصلا ولذا فإن الشيعة الإمامية وهم الكثرة الغالبة من الشيعة فى زمننا هذا من المسلمين مع مخالفتهم لمنهج أهل السنة والجماعة وللشيعة فرق أخرى متعددة منها ما تطرف فى التشيع حتى خرج عن ربقة الإسلام بمزاعم مكفرة ومعتقدات باطلة فمنها فرقة تزعم أن الإله قد حل فى على وأولاده وأنه قد ظهر بصورتهم ونطق بألسنتهم وعمل بأيديهم ومن هذه الفرق التى ضلت الإسماعيلية والبهرة والدروز ومن عقائد بعض فرق الشيعة الغلاة القول بتحريف القرآن وتكفير الصحابة وعدم أحقية الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل أبى بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ويرى متبعى الشيعة أن الإمامة منصوص عليها ومحددة من قبل الله بينما يرى أهل السنة أن الإمامة لم يتم تحديدها من قبل الله والإمامة فضل من الله يتفضل به ةعلى من يشاء من عباده وليست خاصة لأحد ومع كون الصوفية ليسوا مذهبا عقائديا إلا أنهم ينتمون لمذهب أهل السنة والجماعة وعدهم علماء التوحيد من أهل السنة والجماعة يقول : ابن السبكى فى شرح عقيدة ابن الحاجب

اعلم – أن أهل السنة والجماعة كلهم قد إتفقوا على معتقد واحد فيما يجب ويجوز ويستحيل وإن إختلفوا فى الطرق والمبادىء الموصلة لذلك فهم بالإستقراء ثلاث طوائف : -

الأولى – أهل الحديث ومعتقد الأدلة السمعية الكتاب والسنة والإجماع

الثانية – أهل النظر العقلى وهم الأشعرية والحنفية الماتريدية وشيخ الأشعرية هو أبو الحسن الأشعرى وشيخ الحنفية أبو منصور الماتريدى وهم متفقون فى المبادىء

العقلية فى كل مطلب يتوقف السمع عليه وفى المبادىء السمعية فيما يدرك العقل جوازه فقط والعقلية والسمعية فى غيرها وإتفقوا فى جميع المطالب الإعتقادية إلا فى مسائل

الثالثة – أهل الوجدان والكشف وهم الصوفية ومبادئهم مبادىء أهل النظر والحديث فى البداية والكشف والإلهام فى النهاية

يقول : الإمام محمد أحمد السفارينى الحنبلى

أهل السنة والجماعة ثلاث فرق : -

الأولى – الأثرية وإمامهم أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى

الثانية - الأشعرية وإمامهم أبو الحسن الأشعرى رحمه الله تعالى

الثالثة – الماتريدية وإمامهم أبو منصور الماتريدى

وأغفل السفارينى الصوفية لا لأنه لم يعدهم فى أهل السنة والجماعة وإنما لأنه لم يعدهم مذهبا عقائديا بل هو مذهب سلوكى كما أسلفنا فلم يستقل الصوفية بمذهب فى إثبات قضايا التوحيد بل كانوا يتبعون فى العقيدة أهل السنة والجماعة إما بموقف أهل الحديث أو موقف الأشاعرة والماتريدية وكما نجد كثيرا من كتب طبقات الأولياء كالحلية وطبقات الشعرانى تبدأ بترجمة الخلفاء الراشدين الأربعة على ترتيبهم عند أهل السنة فتبدأ بذكر أبى بكر الصديق فعمر بن الخطاب فعثمان بن عفان فعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم ومن جهة أخرى فإن أعلام التصوف السنيين وكثير منهم من الأشراف المنتسبين لآل البيت مذكورون فى كتب طبقات التصوف وكتب التاريخ المختصة بأعلام أهل السنة ولا ذكر لهم فى كتب أعلام الشيعة كما سنجد فى أعلام التصوف كثيرين من أشراف آل البيت سنجد أيضا كثيرين ممن ينتسبون من حيث النسب إلى سيدنا أبى بكر الصديق كالسادة البكرية فى مصر ومنهم من ينتهى نسبه إلى سيدنا عمر بن الخطاب كالشيخ محمد بن عنان وهو من كبار أولياء مصر وإليه ينتهى نسب السادة العناية بمصر وله ترجمة فى طبقات الشعرانى وكذلك الشيخ العارف الكبير الإمام الربانى أحمد السرهندى الفاروقى مجدد الألفية الثانية وكذلك الشيخ ضياء الدين وينتهى نسبه إلى سيدنا عثمان بن عفان وكلاهما من كبار رجال النقشبندية وعليها تدور سلاسل هذه الطريقة ومن جهة أخرى فليس فى طبقات الصوفية التى بين أيدينا ترجمة لأحد من أعلام الشيعة إلا من كان من الشخصيات الإسلامية العامة كسيدنا على بن أبى طالب أو ابنيه السيدين الحسن والحسين وغيرهما من أعلام آل البيت الذين لا تختص بهم فرقة دون أخرى ولا يعنى ترجمة أحد منهم فى رجال التصوف أن التصوف شيعيا ومن جهة الممارسات اليومية فسنجد رايات الطرق الصوفية مثلا تكتب فى أركانها أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وهوما يؤكد سنية هذه الطرق كل ما تقدم يؤكد على سريان أصول أهل السنة والجماعة فى التصوف السنى بداية من الأصول النظرية والفكرية ومرورا بالأعلام والرجال وإنتهاء بالممارسات اليومية بهذا يتبين لنا أن أصول الشيعة وعقائدهم تخالف أصول الصوفية السنيين جملة وتفصيلا . أما ما قاله البعض من أن الصوفية شاركت الشيعة فى المغالاة فى حب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بن أبى طالب كرم الله وجهه وذريته فأمره مردود لأن الصوفية

لم يغالوا فى حب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدهم بل أحبوهم وأحبوا جميع الصحابة رضوان الله عليهم وكيف لا وقد أمرنا بحب آل بيت النبوة قال تعالى : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) **الشورى 23**
فالآية توصى بحب قرابته صلى الله عليه وسلم ومودتهم وجعل محبتهم فى أعماق قلب كل مسلم والمغالاة لا تكون فى المحبة إنما تكون فى الإعتقاد فطالما كان المسلم سليم الإعتقاد فلا حرج عليه فى محبة أهل البيت رضوان الله عليهم جميعا ومحبة أهل البيت درجات يرزقها الله لمن أحبه فكلما زاد حب المسلم لآل البيت إرتقى بهذا الحب فى درجات الصالحين لأن حب أهل البيت الكرام علامة على حب الرسول صلى الله عليه وسلم وحب الرسول علامة على حب الله عزوجل وفى هذا المعنى قال الإمام الشافعى :

إن كان رفضا حب آل محمد
فلشهد الثقلان أنى رافضى

وبهذا العرض نكون قد وقفنا على حقيقة العلاقة بين التصوف والتشيع وعلمنا أن التصوف الإسلامى يتبع مذهب أهل السنة والجماعة

والله تعالى أعلى وأعلم

فصل

الصوفية ودورها فى نشر الإسلام

كانت إفريقية فى الأزمنة القديمة تمثل الشريط الساحلى الذى يمتد من حدود مصر إلى ساحل المجيط الأطلسى وكل ذلك شمال الصحراء والتسمية نفسها تسمية عربية قديمة جدا كما جاء فى بعض المصادر كالطبرى أما باقى أجزاؤه من شرقها وغربها فكانت تسمى عند العرب بلاد السودان وعند غيرهم من الأمم بلاد السواد بحسب

تغيرات لغاتهم المختلفة والجزء الشمالى الغربى من القارة الذى أطلق عليه اسم إفريقيا انتشر فيه الإسلام بطرق مختلفة منذ عصر الخلفاء الراشدين وأوائل الدولة الأموية حتى فتحت آخر المعاقل فى جنوب أوروبا أما الأجزاء الأخرى فقد دخلها الإسلام بطرق الدعوة السلمية وقد أبان هذا الجانب المستشرق الإنجليزى المشهور توماس أرنولد بخير بيان وأوضحه

أثر الطرق الصوفية فى نشر الإسلام

حقيقة تاريخية

إن أثر الطرق الصوفية فى نشر الإسلام فى بقاع كثيرة فى العالم الإسلامى حقيقة تاريخية لا يختلف فيها إثنان إلا بعضها الذى إنحرف وتخلف عن الركب لظروف عدة حيث يرتبط إنتشار الإسلام فى إفريقيا السوداء جنوب الصحراء والهند بكثير من الطرق والزوايا وشيوخها بما يبذلون من جهاد فى هذا لصدد إذ لم ينتشر الإسلام فى كثير من هذه المناطق بواسطة الحروب ذلك لأن التوافق الإجتماعى بين الكافرين والمسلمين لا يتم إلا بواسطة أولئك الذين يعطون ولا يطلبون ويقرضون ولا يأملون فى شىء ومن أمثلة ذلك الدور الذى أدته الزوايا السنوسية لا ينكر أحدا الدور الذى أدته الزوايا السنوسية فى الجهاد والأعمال الربية التى كان أثرها فى تونس وليبيا والجزائر والزوايا القادرية والرحمانية وغيرها ودورها فى مقاومة الإحتلال الغربى بالجزائر وإحتضان ثورة التحرير

يقول : دكتور: حوتيه محمد من جامعة أداوا فى بحثه الطرق الصوفية بإقليم توات وغرب إفريقيا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبغض النظر عن أسماء الطرق الصزفية ومسمياتها والآراء التى نادت بها والأفكار التى حاولت نشرها فإن هذه الطرق لعبت دورا كبيرا فى نشر الدين الإسلامى فى إقليم توات بالجزائر حوض نهر النيجرولو حاولنا فصل هذه الطرق عن الحياة الدينية بهذين الإقليمين لوجدنا أن المحاولة تؤدى إلى فشل من يتصدى لها وفى النهاية نقبل بهذه الطرق بإعتبارها الحاكم فى الحياة الإسلامية بإقليمى توات والأزواد رغم الإدعاءات فى الإنحراف الذى أصاب بعضها إن كل من الطريقة القادرية والطريقة الموساوية والطريقة الشيخية والطريقة التيجانية أثر كبير فى نشر الإسلام وتعاليمه الدينية فى الزوايا والكتاتيب القرآنية وحلقات الذكر وقد بدأ يبرز ويتأكد إنتشار التصوف بإفريقيا فى شكل رباطات والتى قد أنشئت فى أول الأمر لحماية الثغور الإسلامية من الهجمات الأوروبية حيث كان الصوفية يتعبدون ويمارسون رياضتهم الروحية فإن اعتدى أحد على ثغورالإسلام كانوا هم خط الدفاع الأول فى مواجهة العدوان وهنا يحسن التأكيد على أن هذه المواجهة لم تكن إبتداء عدوانا وإنما مبادرة فى رد العدوان

التصوف هو دعوة إلى الله وتربية فى جوهره

فالتصوف هو دعوةإلى الله تعالى وتربية فى جوهره وليس فيه المواجهة مع الآخر إلا فى ظروف خاصة فمثلا فإن هذه الرباطات لن تنتقل من سواحل شمال إفريقيا إلى سواحل المغرب الأقصى إلا فيما بعد بسبب تركيز الهجمات الأوروبية على شواطىء الجزائر وتونس مكان الرباط عبارة عن قعة متقدمة وملجأ للسكان المسلمين المجاورين فى حالة هجوم الأعداء وقد انتشرت الربط على طول الساحل

الإفريقى مع بدايات القرن الخامس الهجرى ابتداء تطور الربط وتضاف إليه مهام أخرى لا تقل أهمية عن السابقة فقد أصبحت هذه الرباطات معاهد علمية يقصدها طلبة العلم من كل حدب وصوب وخلال سبعة قرون من التطور أصبحت الزوايا والربط جامعات علمية أكاديمية تنشر العلم الإسلامى وتخرج كبار العلماء وتنشر الأمن على طول الطريق والأهم من ذلك كله تنشر الدين الإسلامى . وهكذا نلاحظ أن الكثيرين فى شمال إفريقيا قد دخلوا الإسلام بواسطة هذه الطرق الصوفية

أهم الزوايا التى أنشئت فى بلاد المغرب

الزاوية الناصرية - فى وادى درعة تامكروت أسسها عمر الأنصارى فى سنة 983 هجرية وكان شيخها فى فترة من الفترات سيدى محمد بن ناصر الدرعى العالم المشهور

زاوية أبو المحاسن – التى انشأها أبو المحاسن الفارسى فى سنة 988 هجرية

الزاوية العيساوية – التى أنشأها العارف بالله الشيخ محمد بن عيسى فى أوائل القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى بمكناس وكانت تدرس العلوم الإسلامية وتقدم المأوى والغذاء لعابرى السبيل .

زاوية الأسمر - التى أسسها الشيخ عبد السلام الأسمر بزلتين فى الثلث الثانى من القرن العاشر وكانت تحتوى على مكتبة عامرة وكانت مدرسة علمية كبيرة بالمنطقة حافظت على الرغم من الصعوبات على كيانها ومنهجها عبر القرون وهى أكبر معهد لتحفيظ القرآن الكريم بليبيا وبالإضافة إلى هذا النشاط كله قد كان هناك قراءة القرآن الكريم وتلاوة الأذكار وتربية المريدين التربية الإسلامية الصحيحة

الزاوية الدلائية – وقد أنشأها الشيخ أبو بكر الدلائى مؤلف كتاب نتائج التحصيل فى أواخر القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى وقد بلغت هذه الزاوية الغاية من التقدم فى العلوم وخرجت فطاحل العلماء ونوابغ الفقهاء بل وكانت بمستوى الجامعة فكان بها نزل مجانى للطلبة به ما يزيد على ألف وأربعمائة مسكن حول الزاوية وكثر المدرسون بها من مقيمين وزائرين وشبهت مكتبتها بمكتبة المستنصر الشهيرة بالأندلس

الزاوية العياشية – التى أنشأها العياشى سنة 1044 هجرية المعروفى الآن بزاوية سيدى حمزة وتقع على وادى ريز وكانت بمستوى الزاوية الدلائية بل وكانت منافسة شديدة لها .

هذا على مستوى المغاربى من ليبيا إلى المغرب الأقصى مرورا بتونس والجزائر حيث اكتفينا بالإشارة إلى الرباطات عامة وست زوايا على وجه الخصوص

الزوايا بالمغرب والأندلس

قد عم انتشار الزوايا فى المغرب الإسلامى والأندلس ففى المغرب الأقصى توجد الزاوية الحديثة بمدينة فاس والزاوية القديمة والحديثة بمدينة مكناس ورباط الشيخ أبى محمد بمدينة آسفى وزاوية الحاج عبد الغنى بمدينة سلا وفى تونس توجد زاوية الشيخ أبى يوسف الدهمانى وزاوية الشيخ أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن القيسى بالقيروان كما أنشأ السلطان الحفصى أبو فارس عبد العزيز ثلاث زوايا وهى زاوية باب البحر من تونس والزاوية التى خارج باب أبى سعدون بحومة باردو والزاوية

التى بحومة الداموس خارج باب حلاوة المعروف بالشيخ صالح سيدى فتح الله وزاوية يعقوب بن عمران البويوسفى المسماه بالزاوية الهلالية بفرجيوه

وفى المغرب الأوسط تكونت مجموعة من الزوايا منها زاوية العباد بظاهر تلمسان وزاوية سيدى ابن الحسن التى شيدها أبو سعيد عثمان الزيانى وزاوية الحلوى بجانب مسجد الشيخ الحلوى وزاوية أبى يزيد عبد الرحمن بن يعقوب بن على وزاوية الحسن بن مخلوف الشهير بأبركان قرب المدرسة الجديدة التى جدد بناءها السلطان أبو العباس أحمد العاقل وزاوية ابن البناء وزاوية أبو يعقوب العشاش بشلف . كما وجدت بعد ذلك فى القرن التاسع زاوية الثعالبى فى مدينة الجزائر وضريح الشيخ محمد الهوارى فى وهران وزاوية السنوسى بتلمسان

أما فى الأندلس – فتوجد مجموعة من الزوايا منها زاوية المحروق بظاهر غرناطة

الوظيفة التعليمية للزاوية

قد اضطلعت الزاوية بوظيفتين أساسيتين : -

الأولى – وظيفة تعليمية

الثانية – وظيفة إجتماعية

وسوف نقتصر على النقطة الأولى لأهميتها فى الموضوع وهى المراحل التى مرت بها الوظيفة التعليمية للزاوية وهى : -

المرحلة الأولى – المشاركة الفعالة فى نشر العلم . ذلك أنها كانت مؤسسة من مؤسسات التعليم العالى وكان يعهد بالتعليم فيها إلى كبار العلماء وكان الطلبة يقبلون على التعليم فى الزوايا وينهلون من معارفها ويتمتعون بالإقامة فى بيوتها فنشرت العلم وشاركت فى تنوير الأمة

المرحلة الثانية – فى هذه المرحلة تخصصت الزاوية فى تعليم القرآن الكريم وإلقاء دروس الوعظ والرقائق وقراءة الكتب المتعلقة بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم ومدحه مثل كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض والإهتمام بأخلاق الصالحين والإعتناء الكبير بأنواع ذكر الله تعالى من التهليل والتسبيح والتقديس

وسائل الصوفية فى نشر الإسلام

إن جهاد هذه الطرق والمدارس أخذ طرقا ووسائل وأساليب عدة منها : -

أولا – وسيلة التعليم والتوجيه

ثانيا – وسيلة التربية بالعبادة والمجاهدة بالأذكار فى الخلوات

ثالثا – وسيلة إنشاء الخلوات والزوايا والطرق المجتمعة حولها والتى تطور بعضها إلى مدن كبيرة

رابعا – وسيلة إقراء الضيف وإكرام القصاد والإعتناء براحة طلاب العلم

خامسا – وسيلة الإجتماع على الأذكار

سادسا – وسيلة الهجرة والإسعداد للجهاد

سابعا – وسيلة الإتصال بالحكام والولاة ورؤساء العشائر

فصل

الدور الصوفى فى نشر الإسلام فى آسيا

يشير المؤرخون إلى أن الدولة العثمانية قامت على أسس الصوفية وأن مؤسسوا الدولة العثمانية كانوا يعيشون فى فى مقاطعات غرب الأناضول حياة إيمانية محاطة بالقوة المعنوية من جانب رجال العلم والتصوف الذين كانوا يلازمونهم وكان

السلاطين العثمانيون مرتبطين بشيوخ الصوفية وكان لأهل التصوف دورهم العظيم فى الدفاع ع الإسلام وكان لهم نفوذ على الهيئة الحاكمة فى الدولة ورقابة سياستها وكان رجال التصوف يشتركون مع الجيش العثمانى فى فتوحاته وساهموا فى تحقيق العديد من الإنتصارات ويكفى فى هذا المقام أن نذكر أن محمد الفاتح فاتح القسطنطينية هو تلميذ شمس الدين آق شيخ الطريقة النقشبندية وبصفة عامة كان التوجه الصوفى قاسما مشتركا بين جميع السلاطين العثمانيين قد عرف عنهم التصوف وحب الصوفية

الصوفية وآسيا الوسطى

تعتبر منطقة آسيا الوسطى أحد المراكز الرئيسية لإنتشار الصوفية فى العالم الإسلامى وقد نشأت أهم الطرق الصوفية فيها ما بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر الميلاديين وأهم الطرق بها النقشبندية فى أوزبكستان والكبراوية فى تركمنستان واليسوية فى جنوب كزاخستان وتركمنستان ومركزها وادى فرغانة ولقد لعبت بعض هذه الطرق الصوفية كالطريقة النقشبندية دورا مشرقا فى تاريخ الدفاع عن المنطقة ضد الإستعمار القيصرى والسوفيتى كما قاومت القمع الصينى لمسلمى تركستان الشرقية فضلا عن أنها لعبت دورا لا يقل أهمية فى توصيل تعاليم الدين الإسلامى إلى مناطق نائية لم تصلها سفارات الملوك ولا فتوحات السلاطين . ومع هذا لم يكن للطرق الصوفية حضور فى السياسة الداخلية ولم تقدم مشروعا للوصول إلى السلطة كما لم تطالب بمشاركة حزبية أو تكتلات سياسية والإستثناء فى المشاركة السياسية الداخلية نجده فى دور قام به أفراد متصوفون أكثر مما قامت به جماعات صوفية كحركة سياسية ويرجع الفضل فى تشكيل هوية المسلمين فى آسيا الوسطى إلى رجال التصوف الذين حملوا على عاتقهم مهمة تبليغ الدعوة الإسلامية إلى تلك البقاع , فقد قام المتصوفون الأوائل ببث روح الجهاد من أجل رفع راية الإسلام وتثبيت دعائم العقيدة الإسلامية فى قلوب هذه المناطق وواجهوا الإستعمار الروسى فى مختلف المراحل التاريخية والذى بذل كل جهوده من أجل محو الهوية الإسلامية وهدم الإسلام وإخراجه من تلك الأرض وقد تجلى فضل هؤلاء المتصوفة الكبار أمثال محمد بهاء الدين نقشبند مؤسس الطريقة النقشبندية التى كان لها دور فعال وتأثير كبير على شعوب آسيا الوسطى وأحمد اليسويه شيخ الطريقة اليسوية التى امتدت فروعها إلى كل مناطق آسيا الوسطى والقوقاز وكذلك الطريقة القادرية والطريقة الكبروية . وقد كان نشاط هذه الطرق ينحصر فى تربية المسلم تربية روحية وفكرية وخلق إرادة إيمانية فى نفس كل مسلم والإرتقاء به إلى أعلى مراتب الإسلام وكذلك العمل على تكوين مجتمع إسلامى منظم تنظيما مثاليا

الصوفية ودروهم فى حنوب شرق آسيا

الصوفية لهم الأثر الأكبر فى إسلام أكثر من نصف مليون مسلمى العالم فاليوم يعيش ما يقرب من نصف مسلمى العالم فى الهند وباكستان وإندونسيا

أولا ـ إندونسيا

كتب صاحب كتاب نهضة إندونسيا فى فصل الدين فى إندونسيا يقول : وقد تحقق نفوذلا الإسلام فى إندونسيا بالطريقة نفسها التى بيناها لسائر الأديان البوذية

والهندوكية غير أن إنتشار الإسلام قد تحقق لأول مرة على يد تاجرين عربيين صوفيين بإسم عبد الله العارف وبرهان الدين الشاكردوى اللذين كانا من التجار المقيمين بكجرات فى الجنوب الغربى من الهند فهذان التاجران اللذان كانا يترددان إلى جنوب شرقى آسيا هما اللذان نشرا معارف الإسلام وثقافته العالية فى منطقة عملهما وكتب يقول : إن السعى العلنى للمسلمين فى سومطره والذى سرى إلى جاوه وكاليمنتان أدى إلى إختلاف شديد بين المسلمين والحكومة الدينية البوذية فى القرن الثالث والرابع الميلادى وأدت هذه الإختلافات أخيرا إلى سقوط إمبراطورية موجوباهيت لمدة قرن من الزمان

الإسلام ينشر نفسه بنفسه

كان من أثر الأصول الأخلاقية والروحية الإسلامية المبنية على المحبة والأمانة والعدالة والأخوة والمسواة وسائر الأخلاق الفاضلة وكانت هذه الخصائص ملائمة لطبيعة الناس المحليين وعاداتهم القديمة فكان أن إستقبلوا هذا الدين الجديد برحابة صدر بعد أن كانوا أتباع بوذا مئات الأعوام وعلى إثر تقدم تالإسلام تقهقرت المذاهب والمعارف البرهمية إلى المناطق الجبلية والقرى والأرياف فى شرقى جاوة وهنا إمتزجت العقائد والتقاليد البوذية بعقائد وتقاليد أهلى هذه الأماكن إلا أن الإسلام كان فى تقدم دائم لا يعرض فى مكان إلا ويحتوى سائر المذاهب المحلية ويجعلها تحت نفوذه وكتب المؤلف يقول : إن الدكتور سوكارنوا كان يقول : فى خطابه إن الشرف والصدق والمساواة والأمانة هى الخصال التى جاء بها الإسلام هدية لشعب إندونسيا .وجاء فى كتاب الإسلام صراط مستقيم بقلم جماعة من العلماء من مختلف الدول الإسلامية مقال بعنوان الإسلام فى إندونسيا بقلم ب – ا حسين جاجا وليفكرات أستاذ العلوم الإسلامية بكلية الآداب فى إندونسيا يقول : إن أقدم سند تاريخى موجود بأيدينا يذكر فيه إنتشار الإسلام فى إندونسيا هو خواطر وذكريات رحلة ماركو بولو حيث توقف أثناء رجوعه فى عام 692 هجرية من بلاط قوبلاى الصينى إلى فينسيا إيطاليا فى نواحى بالارك شمال سواحل سومطرة فشاهد أن كثيرا من أهالى تلك المناطق إعتنقوا الإسلام تأثرا بدعوة القادمين إليهم من ساراسين

شهادة الرحالة ابن بطوطة

إن الرحالة المغربى الشهير ابن بطوطة المتوفى سنة 779 هجرية فى طريقه إلى الصين زار علم 746 هجرية سومطرة وكان ملكهم إذ ذاك الملك ظهير بن الملك صالح يقول : ويمضى على استقرار الدين الإسلامى رسميا فى تلك الديار إذ ذاك قرن من الزمان تقريبا وكتب فى كتابه أحاديث عن تواضع وزهد وديانة هذا السلطان الشافعى وأنه رتب مجالس العلماء للبحث والجدل فى المواضع الدينية وقراءة القرآن بمحضر العلماء والمتكلمين وأنه كان يذهب لصلاة الجمعة ماشيا على الأرض حافيا وكان يجاهد الكفار فى جوزته أحيانا

ثانيا – ماليزيا

لا يعرف على وجه التحديد متى دخلت تعاليم االتصوف إلى ما يعرف اليوم بماليزيا مع وجود إختلافات فى تقدير ذلك فإن المتفق عليه أن تاريخها يمتد لعدة قرون ماضية بفضل الدعاة المتقدمين الذين جاءوا إلى شبه جزيرة الملايو وأرخبيل جزر ما

يعرف بإندونسيا وجوارها اليوم ومن أشهر هؤلاء الشيخ عبد الله العارف الذى قدم من جزيرة العرب وغيره ومن هؤلاء الدعاة الأوائل أيضا الشيخ أبو عبد الله مسعود بن عبد الله الجاوى الذى ذكره الشيخ يوسق النبهانى قائلا : إن الشيخ الجاوى عالم مشهور كان له تلاميذ كثيرون وقد توفى فى سنة 768 هجرية وكان معاصرا لابن بطوطة وعاش فى مملكة باساى الإسلامية الشهيرة بسومطرة وهكذا جمع الجاوى بين تأثيره بين العرب والملايوبين فى آن واحد لكن مؤلفاته إختفت اليوم

ثالثا ـ الصوفية فى الصين

تمكنت النقشبندية من عبور مسحات جغرافية واسعة فوصلت بشيوخ أنديجان ونامانجان فى وادى فرغانة إلى تركستان الشرقية فى غرب الصين اليوم فتغلبت على ما قبلها من موروثات وصارت الطريقة الأكثر تأثيرا بين مسلمى الأيجور من الإقليم وقد لعبت فى هذا الإقليم الدور الذى لعبته فى القوقاز حينما حملت هم الدفاع عن إستقلال الإقليم ضد الطمع الإستعمارى وهو ما جعلها منذ القرن التاسع عشر فى نظر السلطات الصينية حركة إسلامية سياسية إستوجبت القمع فتم إعتقال شسوخها وقتل شيخ الطريقة النقشبندية يعقوب بك خواجة فى عام 1878 ميلادية وبدأ دور الصوفية فى الوهل منذ ذلك التاريخ إلى أن عاد إليها شيوخ الصوفية من فرغانة فرارا من البطش السوفيتى بعد إنكسار ثورة البسماتشى الشعبية فى عشرينات القرن العشرين وذلك قبل أن تتحول الصين إلى الشيوعية

رابعا ـ الصوفية فى الهند وباكستان

لقد وصل الإسلام إلى الهند عبر الطرق التجارية ومن خلال الفاتحين العرب والصوفية وأصبح من أكبر الديانات إنتشارا فى شبه القارة الهندية ومن أشهر رجال الدين السلمين الموقرين فى الهند خواجة معين الدين الجشتى الأجميرى وللصوفية دور كبير فى نشر الإسلام منذ القرن الرابع عشر وكان ذلك رهين مساعى المسلمين الإيرانيين خصوصا الصوفيون منهم إلى حد كبير والأستاذ مظهر الدين الصديقى الأستاذ المساعد ورئيس دائرة التاريخ الإسلامى فى جامعة السند فى حيدر آباد وباكستان فى مقال : له بعنوان الثقافة الإسلامية فى الهند وباكستان من كتاب الإسلام صراط مستقيم ككتب يقول : كانت للعرب علاقات تجارية بالهند الجنوبية من قبل ظهور الإسلام وإستمرت هذه العلاقات التجارية عن طريق البحر بعد ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم من التبليغ بالإسلام وحينما أصيبت الهند بالإضطرابات السياسية والنزاعات المذهبية إغتنم المسلمون العرب هذه الفرصة فهاجروا إلى سواحل مالابار وأقاموا فيها وأثرت سماحة الإسلام ووضوح عقائده فى أفكار الهنود أثرا بالغا حتى إعتنق فى مدة الجمس والعشرين سنة كثير منهم الإسلام بما فيهم سلطان مالابار وإستمرت تجارة العرب مع الهند عن طريق البحر إلا أن الإسلام تقدم إليهم فى الأكثر عن طريق البر أى ممالك إيران وآسيا المركزية ثم كتب يقول : كان الصوفيون أحب إلى الناس والدولة من علماء الدين وذلك لأنهم كانوا يجتنبون التدخل فى الأمور السياسية بينما كان علماء الدين يفرضون قيودا على أعمال السلاطين لذلك كان أمراء دلهى من هواة الصوفية وقد دعا الشيخان الصوفيان سالار غازى وإسماعيل فى القرن الخامس الهجرى إلى الإسلام آلافا من الهنود على الرغم

من الحكام غير المسلمين وقد بنى الصوفى الكبير معين الدين السمرقندى الذى جاء إلى الهند قبيل أسرى الغوريين الطريقة الجشتية التى لا زالت من إحدى كبريات الطرق الصوفية فى باكستان والهند .

خامسا - الصوفية فى كشمير

يمثل وادى كشمير أحد أبرز مناطق الهند تأثرا بالطرق الصوفية وقد بدأ تاريخ الصوفية فى الهند حين تدفقت طرق متعددة من آسيا الوسطى وإيران وأفغانستان وأشهر هذه الطرق الشيستية والسهروردية زالفردوسية والكبراوية والقادرية والنقشبندية والرشية والأخيرة طريقة مميزة لإقليم كشمير ولا بد من الإقرار للطرق الصوفية من فضل نشر الإسلام عبر مختلف مناطق كشمير والنائية منها بصفة خاصة قبل أن تصلها سفارات أو فتوحات إسلامية وتنسب أولى خطوات الصوفية فى كشمير إلى شيخ الطريقة السهروردية حضرة سيد شرف الدين عبد الرحمن المشهور بإسم حضرة بلبل شاه الذى وصل كشمير فى عام 1324 ميلادية قادما من التركستان من آسيا الوسطى وعلى الرغم من أن الإشارات الأولى للإسلام قد وصلت كشمير مع جيوش السلطان محمود غزنوى فى القرن الحادى عشر الميلادى فإن الإسلام إنتشر بين السكان على أيدى الدعوة الصوفية وكانت النقلة النوعية هى ما نجح فيه الشيخ الصوفى بلبل شاه حين أقنع الأمير التبتى رينشانا بترك البوذية وإعتناق الإسلام وتبعه أناس كثيرون فى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى

سادسا - الصوفية فى الفلبين

دخل الإسلام إلى الفلبين حوالى عام 270 هجرية عن طريق الدعوة وتتابع الدعاة إلى تلك الجهات وفى عام 310 هجرية هاجر من العراق للدعوة هناك ثلاث رجال هم محمد بن يحيى وأحمد بن عبد الله ومحمد بن جعفر واستشهد هؤلاء الثلاثة عام 313 هجرية وفى عام 317 هجرية وصل إلى تلك الجزر أحفاد أحمد بن عيسى بن محمد النقيب بن على الرضا بن جعفر الصادق رضى الله عنهم ولقد لقب أحمد هذا بالمهاجر إذ إنتقل من العراق إلى اليمن وإنتقل أحفاده منها إلى الهند ومنها إلى جنوب شرقى آسيا وإستقر أخيرا فى جزر الفلبين ويقال : إنه قد حل فى عام 679 هجرية بأرخبيل صولو أحد الفقهاء وهو الشريف كارم المخدوم فأسس أول مسجد هناك فى توبيخ أنديغنان فكان هذا المسجد حجر الأساس فى إنتشار الإسلام وهناك روايات أخرى عديدة

جهاد الصوفيون

فى هذه السطور سيكون التوجه إلى تهمة ملصقة بالصوفية عامة وهى أنها تدعوا مريديها إلى القعود عن مقاومة الأعداء بل يصل الأمر إلى التعاون مع الأعداء لنشر روح القعود والتخاذل بين الناس وفى هذه السطور لن ندافع عنهم ولمن فقط سنوضح بعض سطور من تاريخ هذه الأمة من كثرة ما تأخذ المحسن بذنب المسىء ونسيانها أو جهلها بتاريخها والمظلومة من جانب ولاة أمورها ومن جانب أعلامها ومفكريها

تعرض العالم الإسلامى فى القرنين الأخيرين لضربات أتت على إستقلال أغلب الدول وإنهارت الأمة الإسلامية ولم يأت مطلع القرن العشرين حتى كانت أمم الإسلام واقعة تحت سلطان غير المسلمين من إنجليز وفرنسيس وهولنديين وإيطاليين وهذا الأمر لم يحدث بين يوم وليلة بل سبقته أوضاع مهدت له وواكبته أحداث وحروب ومقاومة لا يعرف كثير من الأجيال المعاصرة الآن سيئا عنها وسنعرض بعض التفاصيل ودور إحدى هذه الطرق فى المقاومة للأعداء وهى الطريقة النقشبندية والتى ترجع فى أصلها إلى الشيخ محمد بن بهاء الدين بن لطف الله الذى توفى فى سنة 952 هجرية كان أبوه الشيخ بهاء الدين مدرسا للشريعة الإسلامية وجده صوفيا وفقيها فى بالى والشيخ محمد فقيه حنفى وقد جمع بين فقه أبيه وتصوف جده وسافر إلى الحج مرتين وقد اتخذ لنفسه صنعة حتى لا يأكل من وراء يعليمه النس أو من عطايا الملوك والأمرء فكانت صنعته التطريز للأطلس ومن هنا جاء إسم الطريقة نقش بندى وقد ذاع صيته فى البلاد المختلفة وقد كان بعض مشايخ الطرق يقودون حركة الجهاد فى مناطق مختلفة وكان الشيخ منصور أشرمة أول قائد عسكرى صوفى بمنطقة الشيشان وداغستان وقاد هجمات ناجحة على قوات القيصرية الروسية واستطاع أن يفنى سرية روسية كاملة على نهر سونجا عام 1785 ميلادية وقد أسره الروس فى إحدى المعارك عام 1791 ميلادية وحكم عليه بالسجن المؤبد ومات فى حصن شكو بليرغ ولم تتوقف مسيرة الجهاد وتولى الشيخ فاس محمد أفندى البار اغلارى النقشبندى قيادة حركة الجهاد وإستشهد فى ساحة المعارك وتولى مشايخ الطريقة النقشبندية قيادة حركة الجهاد فى وسط آسيا وقاد ثورة مدينة أنديجان فى سنة 1898 ميلادية شيخ النقشبندية بها وبعد قمع الثورة 1899 ميلادية شنق على يد الروس وقبل هذه الثورة كان القاضى ملا محمد الكمراوى النقشبندى يقود المجاهدين فى إنتصارات متوالية على القوات الروسية حتى أطلق عليه إسم الغازى محمد حيث ظل يحقق أنتصارات متوالية بين عامى 1832 – 1834 ميلادية وأستشهد الرجل فى الميدان وحمل الراية تلميذه الأمير حمزة الخنزاجى ولحق التلميذ بأستاذه شهيدا وتحمل مسئولية القيادة الإمام محمد شامل تلميذ القاضى محمد وشيخ النقشبندية وإستطاع الإمام شامل تحقيق إنتصارات رائعة ببطولة وعبقرية نادرة واسترد الإمام شامل كثيرا من القلاع والحصون التى إستولى عليها الروس وإستطاع أن يقيم دولة مجاهدة تقيم العدل وتقوم برسالة الإسلام من دعوة وتربية وجهاد خلال خمس وعشرين سنة وأقام الشيخ محاكم شرعية فى كافة الجهات التى تقع تحت سلطانه وأرسل مندوبين عنه لمتابعة الأعمال وفى هذا السياق نقلت المصادر موقفا بين أحد نوابه وقاضى شرعى أشتهر بالجرأة فى الحق قال : النائب قبل مغادرته لقاعة المحكمة إذا لم تحافظ على الحقوق العامة فى الدائرة فلأقيمن العدل بهذا وأشار إلى سيفهفرد القاضى مجيبا وإذا رأينا فيكم إهمالا أو تقصيرا فى تنفيذ الأحكام المستمدة من شريعة الله أنفذ فيك أمر ربى وأشار إلى بندقية كانت فى جواره ويصف أحد الرحالة العثمانيين شكل الحكم فى هذه الدولة بعد أن وصفها بأنها المدينة الفاضلة التى يحلم بها الفلاسفة فيقول : يجب ألا تستولى علينا الدهشة حينما نعلم أن الحكم والإدارة عندهم أبعد ما تكون عن الإستبداد فالحكم

المطلق والإستبداد لا يجد بينهم مرتعا خصيبا فى حكومة الأشراف شكلا وحكومة دستورية فعلا ويصف سلطة الأمير ويسمى البشى إنك تجد سلطة البشى محدودة لا تتعدى القانون وما عدا ذلك فإنه كان يستمد سلطته من مجلس الأمراء والأعيان وكذلك ثروته فإنها كانت محدودة لا تتعدى إحتياجاته الشخصية وهم خاضعون فى كل أحكامهم للشورى . هذا كان حكم دولة الإمام شامل وفى نفس الوقت يقوم ببناء القلاع والحصون ومصانع السلام والبارود ويرسل النواب للدعوة إلى الجهاد فى كافة المدن والقبائل ومتابعة أعمال الجهاد ضد روسيا ويقوم بإجراء اتصالات دولية للإستعانة ببعض الدول المعادية لروسيا وينجح فى إستثمار أجواء الصراع الدولى ضدها فى حرب القرم 1853 ميلادية ولكن تسويات دولية بين القوى المتصارعة أدت إلى إنتهاء مصالح هذه الدول مع الإمام شامل ويلتف الجيش القيصرى على دولة الإمام ويستشهد مشايخ النقشبندية فى الميدان ويظل يناوشهم بقليل من عدد وعدة طوال عشر سنوات حتى خرج من الميدان بعد أن فقد كل ما لديه من مون وسلاح وانتهى به الأمر إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث دفن فى البقيع عام 1871 ميلادية ورغم عنف القمع القيصرى بالطريقة النقشبندية شسوخا ومريدين وقتلهم وسجنهم ومطاردتهم فى أنحاء البلاد فإن السنين قد مرت وظهر حيوان شرس جديد وهو البلشفية الشيوعية الذى بدأ ناعما ينادى الجميع للتعاون لإسقاط حكم القياصرة ولكن النقشبندية فهموا الأمر منذ البداية وقالوا : رأيهم الذى لم يتغير وهو الدولة الإسلامية هى الطريق الصحيح الوحيد . وبعد أن نجحت الثورة البلشفية فى روسيا 1917 ميلادية بدأت تسير الثورة فى الأراضى المحيطة وتقوم بالقمع والمذابح الجماعية لكل من يعارضهم فقام شيخ النقشبندية نجم الدين دى غوتسو فى منطقة داغستان بالوقوف أمام الزحف الشيوعى بدءا من عام 1917 ميلادية واتحد مع مشايخ النقشبندية فى الشيشان أوزون حجى ومحمد البلوكانى وسراج الدين حجى وغيرهم وبدأت الثورة الكبرى من عام 1918 ميلادية واستمرت حتى عام 1928 ميلادية وقد سميت بإسم ثورة الباسمشية البسماجى وهى كلمة تعنى قاطع الطريق بالتركية ولكنها صارت مرادفة لكلمة مجاهد عند المسلمين وقد نجحت هذه الحركة فى تأسيس حكومة للمنطقة فى خريف عام 1919 ميلادية وتم تنظيم أمور الدولة وساعد على تقوية الإنتفاضة العسكرية دعم الملا عبد القهار من كابل وقيادة أمير بك أمير بخارى العسكرية وقدم إليهم بعد قليل قائد محنك هو أنور باشا من الدولة العثمانية واستطاع أن يحقق إنتصارات رائعة على القوات الروسية ولكن الضغائن وسلاح الوقيعة وبعض المعاملات الخشنة من أنور باشا مع الأمراء والقادة فضت الإجتماع وفرقت القلوب وانسحب كل أمير بقواته وأستشهد أنور باشا وإنهرمت القوات المسلمة وذبح ما يقرب من عشرين ألف مسلم وتم تعقب قادة كافة الطرق الصوفية وإعدامهم بالجملة .

وهل يتوقع إنسان أن تقوم قائمة للطريقة النقشبندية أو غيرها فى هذه المنطقة ؟

العقل يقول : يكاد يكون من المستحيل ولكن الواقع يقول : إن الثورات لم تنقطع وإن المصادر السوفيتية تقدم إحصاء من جانبها فتقول : إن هذه المنطقة قامت بها إثنان وخمسون ثورة ما بين سنة 1939 – وسنة 1979 ميلادية مجلة الشئون السوفيتية

العدد الرابع لقد وجه الشيوعيون إهتمامهم للقضاء على التصوف وملاحقة الصوفية الكبار وإيداعهم السجون أو التقليل من مكانتهم وهيبتهم لدى المسلمين وأجبروا مفتى آسيا الوسطى عام 1959 ميلادية على إصدار فتوى تؤكد أن التصوف تيار دخيل على الإسلام كما أجبروا كل من مفتى شمال القوقاز وداغستان على إصدار فتوى تحرم الدعاء فى أضرحة المتصوفين وأغلق الشيوعيون أضرحة الأولياء وحولوا بعضها إلى متاحف وبعضها الآخر تحت وضع حماية الدولة ورغم القمع البربرى ورغم أن ستالين ألغى هذه المحافظة ونفى أهلها جميعا إلى سيبريا إلا أنهم عادوا وتجمعوا ونظموا صفوفهم وعبدوا الله تعالى وتوجهوا إلى الجهاد تحت راية مشايخ النقشبندية .

فصل

دور الدولة العثمانية فى نشر الإسلام

يقول : الأستاذ : إسماعيل أحمد ياغى فى كتابه الدولة العثمانية

تشغل الدولة العثمانية حيزا كبيرا للغاية فى التاريخ حيث إمتدت فتوحاتها إلى ثلاث قارات هى آسيا وأفريقيا وأوروبا وبذلك فإن الدولة العثمانية كانت أول دولة إسلامية فى التاريخ الأوروبى تصل بقواتها الجرارة إلى هذه الأراضى الأوروبية وكان

الوجود الإسلامى العثمانى العسكرى والسياسى حقيقة لا جدال فيها ويشير المؤرخون إلى أن الدولة العثمانية قامت على أسس صوفية وكان للطرق الصوفية دورا بارزا فى إدارة شئون الدولة وتأسسها فكان شيوخ الطرق التى كان لها دور بارز فى الدولة العثمانية الطريقة البكتاشية والطريقة الرفاعية والطريقة المولوية وكان السلاطين العثمانيون مرتبطين بشيوخ الصوفية وبالطرق والتكايا وكان لأهل التصوف دورهم العظيم فى الدفاع عن الإسلام وكان لهم نفوذ على الهيئة الحاكمة فى الدولة ورقابة سياستها وكان رجال التصوف يشتركون مع الجيش العثمانى فى فتوحاته وساهموا فى تحقيق العديد من الإنتصارات ويكفى فى هذا المقام أن نذكر أن محمد الفاتح فاتح القسطنطينية تلميذ شمس الدين آق شيخ الطريقة النقشبندية والسلطان عبد الحميد الثانى الذى رفض بيع أرض فلسطين لليهود تلميذ لشيخ الشاذلية أبى الشامات وبصفة عامة كان التوجه الصوفى قاسما مشتركا بين جميع السلاطين العثمانيين فقد عرف عنهم التصوف وحب المتصوفين واحتفظوا بروح الجهاد الدينى فى مسيراتهم الحربية فى أوروبا فالإسلام عند العثمانيين دين مجاهدين وإزدادت هذه الروح الدينية تأججا فى نفوس العثمانيين بعدما واجهوا تكتلات صليبية متعاقبة واسعة النطاق ضمت العديد من الدول الأوروبية وكانت البابوية فى روما تدعم وتؤيد هذه التكتلات بل تنادى بالإنضمام إليها ولم تجد الحركة الصليبية فى أوروبا ثغرة تنفذ منها لتفتيت وحدة الصف الإسلامى العثمانى فكان النصر حليف القوات العثمانية فى معظم المعارك الضاربة التى نشبت بين الفريقين وحولت الدولة الهثمانية دار الحرب إلى دار السلام وأسهم الجميع فى غرس بذور الإسلام فى الأقالي المفتوحة مما ساعد على نشر الإسلام فى أوروبا وبذلك إقترنت حركة الفتوحات الإسلامكية فى كل من الأناضول وأوروبا بنشر الإسلامك وقد إنتشر إنتشارا سريعا واسعا فى بعض الأقاليم وإنتشر إنتشارا وئيدا فى أقاليم أوروبية أخرى وغدت العواصم التى إتخذتها الدولة العثمانية تباعا وهى قونية بروسية أدرنة وإستابول مدنا إسلامية عثمانية ومركزا للدراسات الإسلامية والحياة الإسلامية ونظر الأوروبيون إلى الفتوحات العثمانية فى أوروبا على أنها فتوحات إسلامية وبإسم الإسلام فتح السلطان محمد الفاتح 857 هدرية 1453 ميلادية القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية واتخذها عاصمة لدولته وإستبدل إسما جديدا هو إستانبول ومعناها دار الإسلام وبإسم الإسلام فتح السلطان محمد الفاتح روما مقر البابوية وبإسم الإسلام فتح السلطان سليمان القانونى بلغراد وجزيرة رودس وبودابست وبإسم الإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة عرب شمالى أفريقيا فى الصراع الصليبى الذى إحتدم بينهم وبين الأسبانيين والبرتغاليين الذين أرادوا إحتلال هذه الأقاليم وتحويل سكانها إلى المسيحية وبذلك حفظت الدولة العثمانية الصوفية لشمالى إفريقيا إسلامه وعروبته وأوغلت الجيوش العثمانية فى زحفها على قلب أوروبا حتى بلغت مشارف فيينا وكانت الأساطيل العثمانية تحقق إنتصارات كاسحة ضد التكتلات الصليبية الأمر الذى أدى إلى تصاعد العداء بين أوروبا المسيحية والدولة العثمانية ولذلك فإن الأوروبيون إعتقدوا بأن الدولة العثمانية هى الرمز الحى المجسد للإسلام

الدولة العثمانية وآل بكداش

أسس آل بكداش مدينة بكداش الساحلية على بحر قزوين ليسكنها آل بكداش وحكموا منطقة تدعى منطقة الكرش وأسسوا فيها الطريقة الصوفية النقشبندية وأسسوا طريقة صوفية بإسمهم البكداشية وكانوا من الدعاة إلى الديانة الإسلامية الصحيحة وكان هناك خلاف كبير بين أمراء الكرش آل بكداش من جهة وبين السلطة الروسية القيصرية التى يحكمها نقولا الثانى وهو عدو الإسلام الأول وتخوفه من تعمق الدين الإسلامى فى بلاد روسيا القيصرية جعله يقرر غزو بحر قزوين حيث يدمر منطقة الكرش وزعمائها آل بكداش عن بكرة أبيهم بأمر من بطرونة روسيا القيصرية كاترينا زوجة قيصر روسيا وذلك سنة 1825 ميلادية وقد فر من المذبحة أربعة شباب من آل بكداش حيث فروا إلى إستانبول وهم حسن وحسين وسليمان وروحى وحفيظة بكداش وذلك أيضا سنة 1825 ميلادية وقد إستقبلوا إستقبالا عظيما من حاكمم البلاد الخليفة العثمانى وأعضاء حكومته والتى كان ينتمى بعضهم إلى عائلات الكرش وزعمائهم وأصدر أمرا بالرد على روسيا القيصرية إنتقاما لمقتلة الكرش وزعمائهم من آل بكداش وإستمرت الحروب لفترات طويلة ولم يرسل زعماء بكداش إلى جبهات القتال تفاديا من إنقراضهم وهم زعماء منطقة الكرش ولكى تستمر الطريقة النقشبندية والطريقة البكداشية بإستمرار حياة مؤسسيها

الصوفية وكوسوفا

فتح العثملنيون إقليم كوسوفا بقيادة السلطان العثمانى مراد الأول وضموه للحواضر الإسلامية العثمانية فى منتصف القرن الخامس عشر وترك حكمهم بصمة واضحة فى أسلمة الإقليم الذى يبلغ تعداده اليوم أكثر من إثنين مليون ومائة وخمس وسبعون ألف نسمة تسعون منهم من الألبان سكان البلاد الأصليين لتبقى كوسوفا قى عز الإسلام حتى نهاية الدولة العثمانية فى أوائل القرن المنصرم وقيام يوغسلافيا الحديثة حيث بدأ الألبان مواجهة مشوار جديد من الإضطهاد والتطهير العرقة المنظم على أيدى الصرب ما أضطر الكثيرين منهم إلى مغادرة الإقليم إلى بعض الدول الإسلامية والعربية سيما سوريا التى إحتضنت الكثيرين منهم إلى أن خاض الإقليم معركة البقاء الأخيرة وحصل على إستقلاله منذ بضع سنوات . يعود الفضل إذا للدولة العثمانية بشكل أساسى فى نشر الإسلام

دور دولة المرابطين والدولة العثمانية فى نشر الإسلام

أولا : دولة المرابطين

من المسائل المهمة التى يجب أن نعرفها أن ياسين والد عبد الله ياسين الجزولى الصوفى مؤسس دولة المرابطين قطع المحيط الأطلسى وذهب إلى المناطق شمال البرازيل وغينيا ونشر فيها الإسلام ذهب إلى هناك مع جماعات من أتباعه وأسس منطقة كبيرة كانت تابعة للدولة المرابطة أى أن الدولة المرابطة لم تكن فى شمال أفريقية والأندلس والبرتغال فحسب وإنما كانت أيضا فيما يسمى الآن شمال البرازيل وغينيا وهذا موثق بالوثائق التى تملكها دوقة مدينة سيدونيا الأسبانية والتى نشرتها فى كتابها من إفريقية إلى أمريكا وصدر نهاية عام 2000 ميلادية وفعلا وإلى يومنا هذا هناك مدن وقرى فى تلك المناطق إسمها فاس مراكش تلمسان والظن أن تلك الأسماء جاءت مع الرحالة الأسبان غير أن الدوقة قال : بل كانت قبل مجىء الأسبان

إنما كانت مع وجود المسلمين قبل أربعمائة عام من كريستوفر كولومبس إذا بصفة عامة وبتلخيص شديد العلاقات بين صوفية المغرب والأندلس وما يسمى اليوم بأمريكا كانت متواصلة وحسب معظم العلماء فالآن سواء من الطرف الأسبانى أو من الطرف الأمريكى فإنهم يعتقدون أن قبل كريستوفر كولومبس كان الإسلام منتشرا على يد الصوفية فى شمال أمريكا وفى جنوبها وأن أول عمل قام به كونكيسادور الأسبان النصارى هو متابعة هجومهم على الإسلام الذى كان فى الأندلس بالقضاء على الإسلام والقضاء على الوثائق التى تبرهن أى وجود إسلامى فى تلك القارة ورغم هذا المجهود الكبير لم يسطيعوا القضاء على كل شيء

ثانيا : الدولة العثمانية

الآن نرى علاقة الدولة العثمانية الصوفية مع أمريكا قبل كريستوفر كولومبس وعلاقات الممالك الإسلامية فى أفريقيا الغربية مع أمريكا قبل كريستوفر كولومبس فى عام 1929 ميلادية أكتشف خريطة للمحيط الأطلسى رسمها بيرى محيى الدين رايس الذى كان رئيس البحرية العثمانية فى وقته وذلك سنة 919 هجرية أى حوالى 1010 – 1515 ميلادية والخريطة الموجودة الآن الغريب فيها أنها تغطى شواطيء أمريكا بتفصيل متناه غير معروف فى ذلك الوقت بالتأكيد بل ليس الشواطيء فقط بل أتى بأنهار وأماكن لم يكتشفها الأوروبيون إلا أعوام 1540 – 1560 ميلادية . فهذا يعنى وكما ذكر بيرى رايس بأن هذه الخريطة مبنية على حوالى تسعين خريطة له وللبحارة الأندلسيين والمغاربة الصوفية الذين قدموا قبله فسواء هم أم المسلمون قبله سيكونون عرفوا قطعا تلك المناطق وعرفوا إسمها قبل الأوروبيون من بعد ذلك هناك خريطة للحاج أحمد العثمانى الصوفى عام 1559 ميلادية وهى تدل كذلك على معرفة واضحة بالقارة الأمريكية متفوقة على خريطة الأوروبيون .

خاتمة

دعاة الإسلام ومشاعل الإيمان

وكما ذكرنا آنفا فقد نشر الإسلام على أيديهم وعلى أيدى أتباعهم فى مشارق الأرض ومغاربها ولا يحاربهم ليلا أو نهارا إلا دعاة التبشير وعملاء الإستعمار ولا يغمط حقهم أو يقصر فى حقهم والثناء عليهم إلا من لم يدرس تاريخ الدعاة ولم يطلع على أعمالهم وآثارهم وقد أوضح الشيخ أبو الحسن الندوى رئيس ندوة العلماء فى الهند

وعضو المجمع العلمى العربى بدمشق فى كتابه الحديث رجال الفكر والدعوة فى الإسلام نبذة يسيرة عن مسعاهم الخير وآثارهم فقال : عنهم تحت عنوان دعاة الإسلام ومشاعل الإيمان كان لهؤلاء فضل كبير لنشر الإسلام فى الأمصار البعيدة للحكم الإسلامى فى أفريقية السوداء وفى إندونسيا وفى الهند وفى سيبيريا وإلى شواطىء البحر المتجمد الشمالى ويقول : فى هذا الكتاب أيضا لما فتح التتار العالم الإسلامى فى القرن السابع الهجربوأثخنوه جراحا وقتلا ولم يتركوا فيه إلا روحا ضعيفة ونفسا خافتا وفل سيف الجهاد والمقاومة فأشبح لا يؤثر ولا يعمل وأغمده المسلمون يأسا وقنوطا وآمن الناس بأن التتار لا يمكن إخضاعهم وأن العالم الإسلامى قد كتب عليه أن يعيش تحت حكم هؤلاء الهمج وأن الإسلام إنتهى ولا مستقبل له هنا قام هؤلاء الدعاة المخلصون الذى لا يزال تاريخ الدعوة والإصلاح على إحصائه وإستقصائه يجهل كثير منهم قاموا يتسربون فى هؤلاء الطغاة من التتار يفتحون قلوبهم للإسلام حتى تفتحت له وأحبته وصاروا يدخلون فى دين الله أفواجا ولم يمضى على زحفهم على العالم الإسلامى وإذلالهم له كثير من الزمان حتى أسلم جلهم أو كلهم وصاروا من حملة الإسلام وحملة لوائه ورايته وكان منهم فقهاء وزهاد ومجاهدون وإليكم ما كتبه الأستاذ : خليق أحمد النظامى يقول : عندما يقرأ مستشرقوا أوروبا التاريخ الإسلامى يجدون أنفسهم متحيريين أمام هذه الحقيقة أن الزوال السياسى عند المسلمين لم يستطع قط هدم نظامهم الدينى بل على حد قول : الاستاذ : فيلب حتى كثيرا ما حدث أنه فى أظلم اللحظات من تاريخ الإسلام فاز الإسلام المذهبى بإنجازات رائعة .وهكذا عبر المستشرق الهولندى : لوكى جارد عن إستعجابه من هذه الظتهرة بقوله : إن الإسلام السياسى وإن تعرض للزوال مرارا إلا أنه لا يزال الإسلام الروحانى يترقى إلى التقدم والإزدهار ويحيلنا أيضا إلى محاضرة المستشرق الشهير : آركب جيب التى ألقاها أمام مجلس جامعة إكسفورد بأنه قال : حدث فى التاريخ الإسلامى مرارا أن عورض التهذيب الإسلامى بالشدة ولكنه مع ذلك لم يغلب وسببه الكبير أن منهج التصوف أو الصوفية كان يصل فورا لإمداده بقوة وطاقة بحيث لا يستطيع أحد معارضة هذه الطاقة .

حاجة العصر إلى التصوف

إن هذا العصر عصر المادية البحتة ولذاتها المؤقتة وتهدر فيه الأخلاقية الطاهرة وكيف يمسخ وجه الروحانية الجميل وكيف يتعفن عالم القلوب بمظاهر الطمع والبغض والحسد ونقترب بالسرعة الفائقة إلى حفرة الزوال والإنحطاط وعندما يقع أى قوم فى هذه الحفرة لا يكتب له الخروج . ولذلك يجب على محسنى الملة أن ينقذوا الملة من الوقوع فى هذه الحفرة وذلك بأن نقدم لهم نماذج هذه النفوس الطاهرة التى تنور قلوبنا وأنظارنا بأنوار الإخلاص والقناعة والإستغناء وعلو الهمة والجرأة والسخاوة والشفقة لكل الإنسانية على وجه سواء وإنما توجد كل هذه الخصائص بأكمل وجه فى سير الصوفية الكرام .

تمهيد

- لمحة عامة عن التصوف الإسلامى
- حقيقة التصوف الإسلامى

الفهرس

- خاتمة

المراجع

- القرآن الكريم بالرسم العثمانى
طبعة مكة المكرمة
- كتاب الشفا بتعربف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم
للقاضى عياض بن عياض السبتى
- كتاب الأولياء

للحافظ بن أبى الدنيا تحقيق وتعليق مجدى السيد إبراهيم مكتبة القرآن
- كتاب البداية والنهاية
للإمام الحافظ بن كثير طبعة دار المنار الجزء الثالث
- كتاب التربية الإسلامية بين العقيدة والأخلاق
دكتور/ محمد فريد حجاب
- كتاب التفكير فريضة إسلامية
الأديب والكاتب عباس محمود العقاد
- كتاب الإسلام قلب تقى وعقل رشيد
الأستاذ / عبد التواب إبراهيم رضوان
- كتاب محاضرات فى التصوف الإسلامى
دكتور / أبو الوفا التفتازانى
سلسلة كتاب الإسلام وطن
- الهداية الصوفية والفتنة الوهابية
الشريف / عبد الحليم العزمى الحسينى
- مجلة الإسلام وطن
عدد سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر 2009
- مقالة الأستاذ الدكتور / عبد الرحيم السايح
- مقالة الشيخ / طاهر رمضان عبد الرازق
- مجلة الإسلام وطن
عدد يناير وفبراير ومارس ونوفمبر 2010
مقالة الدكتور / على جمعة مفتى الجمهورية
مجلة الإسلام وطن
عدد نوفمبر وديسمبر 2010
مقالة الأستاذ / السيد يوسف هاشم الرفاعى
مجلة الإسلام وطن
عدد يونيه 2011
مقالة الأستاذ / السيد يوسف هاشم الرفاعى
مجلة الإسلام وطن
عدد أكتوبر 2011
مقالة الشريف / محمد عبد الهادى الجاويش
مجلة الإسلام وطن
عدد نوفمبر 2010
مقالة الدكتور / عمار على حسن
مجلة الأزهر 2009
نقلا عن التفهم والدرك لمسألة الترك
للحافظ عبد الله بن الصديق الغمارى
كتاب مدخل إلى الأخلاق

مكتبة دار العلوم
دكتور / محمد كمال إبراهيم جعفر
مجلة الإسلام وطن
عدد أغسطس 2014
التصوف إلى علم التزكية والتصوف
لضياء الأمة الشيخ / محمد كرم شاه الأزهرى
سلسلة كتاب الإسلام وطن
عدد أغسطس 2014
فرسان لبعشق الإلهى – الجزء الثالث
دكتور / عمار على حسن
كتاب المنتقى النفيس
فضيلة الأستاذ الشيخ / صالح بن محمد بن صالح الجعفرى
مجلة الأزهر عدد أغسطس 2014
رائد الفكر الحديث الإمام محمد عبده
مقالة الأستاذ / عاطف مصطفى
كتاب الفتوحات الربانية والمنح النبوية فى الصلاة على خير البرية
للإمام المجدد / السيد محمد ماضى أبو العزائم
سلسلة كتاب الإسلام وطن
العدد 176 ديسمبر 2014
مجلة الإسلام وطن
عدد أكتوبر 2019
مقالة الدكتور / محمد الإدريسى الحسنى
الصوفية فقط على منهج السلف الصالح
مجلة الإسلام وطن
عدد يوليو 2019
مقالة الدكتور / محمد الإدريسى الحسنى
الصوفية فقط على منهج السلف الصالح
مجلة الإسلام وطن
عدد أغسطس 2019
مقالة الدكتور / محمد الإدريسى الحسنى
الصوفية فقط على منهج السلف الصالح